

وزارة الثقافة

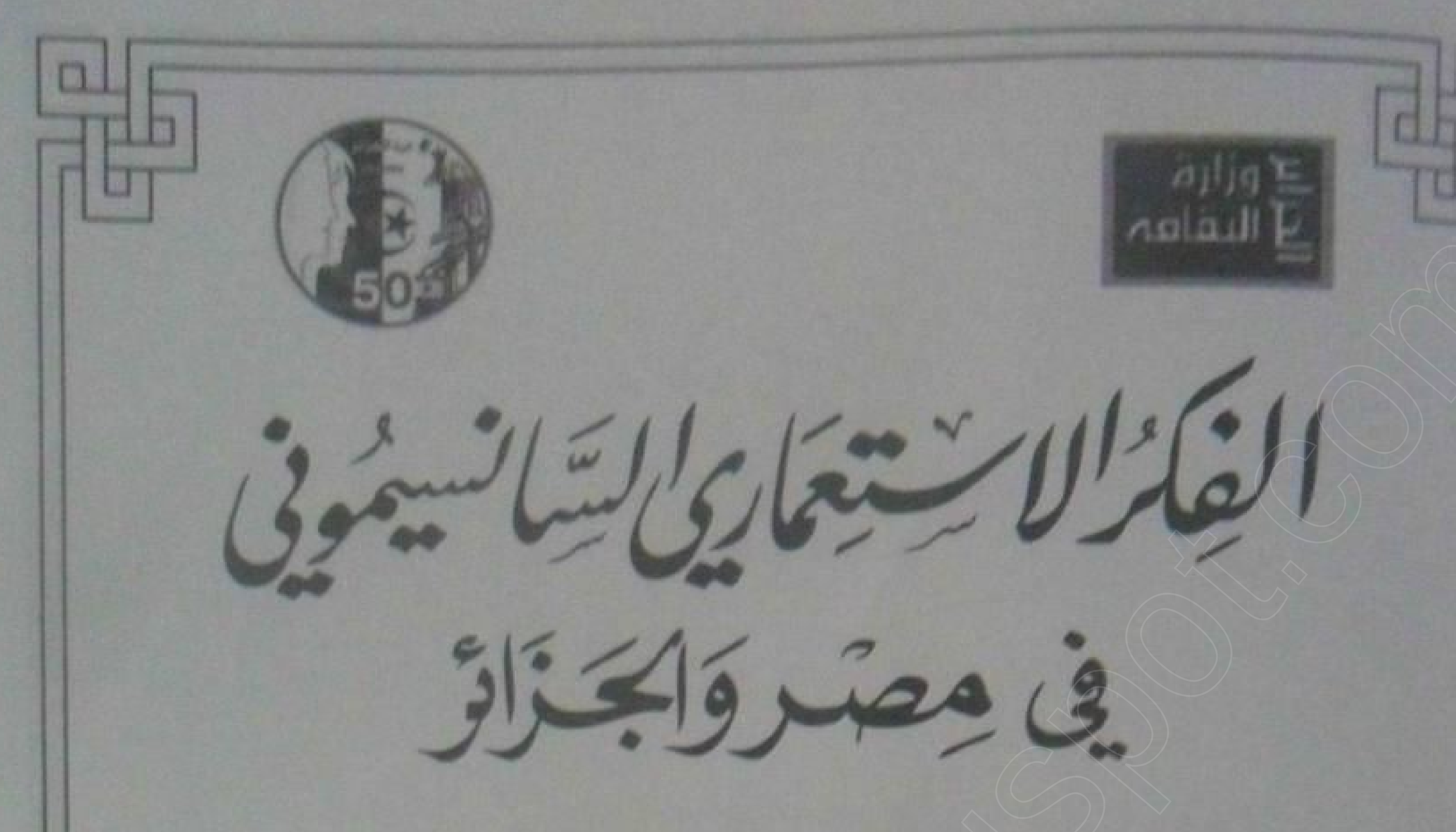
الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر

1833 - 1870 م

دراسة في مشاريع ونشاط السانسيمونيين بمصر وتجربة توماس (إسماعيل) أوربان وأثرها في الجزائر

تأليف
مصطفى عبيد

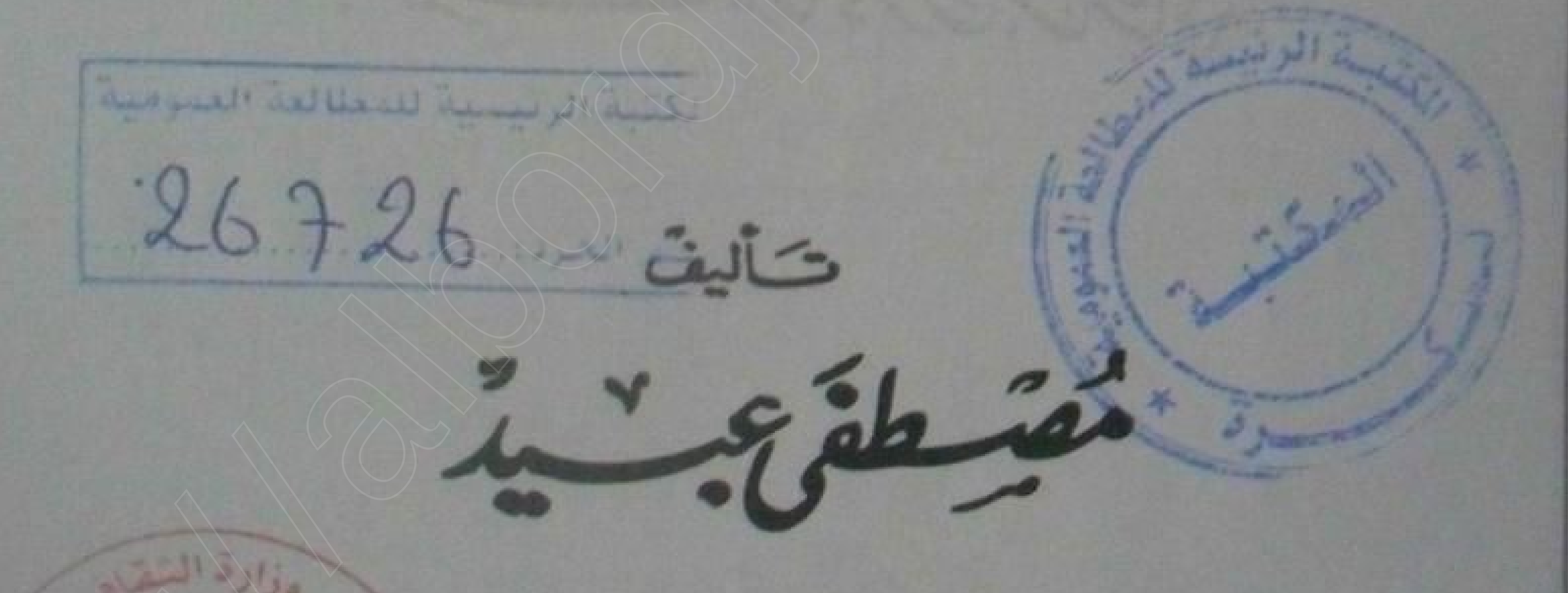
دار المعرفة الدولية
للنشر والتوزيع
الجزائر



الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر

1833 - 1870م

دراسة في مشاريع ونشاط السانسيمونيين بمصر وتجربة توماس (إسماعيل) أوربان وأثرها في الجزائر

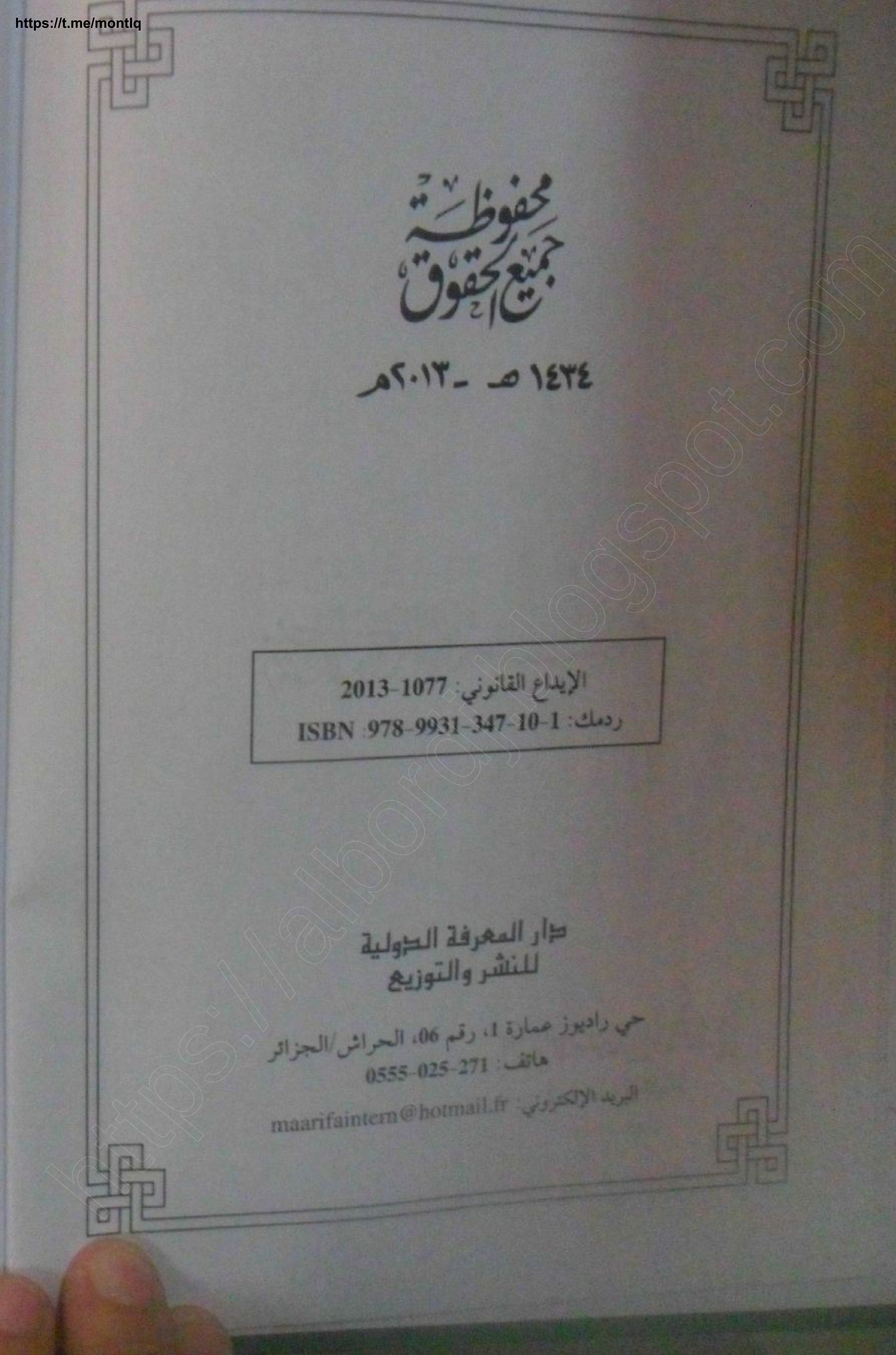


تأليف

مصطفى عبيد

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

في إطار الاحتفال بالذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر



١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الإيداع القانوني: 2013-1077
ردمك: 978-9931-347-10-1 ISBN

دار المعرفة الدولية
للنشر والتوزيع

حي راديوز عمارة 1، رقم 06، الحراش/الجزائر
هاتف: 271-025-0555
البريد الإلكتروني: maarifaintern@hotmail.fr

شكر وتقدير

بمناسبة نشر باكورة أعمالنا العلمية، نتقدم بالشكر الجزيل،

إلى الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله،

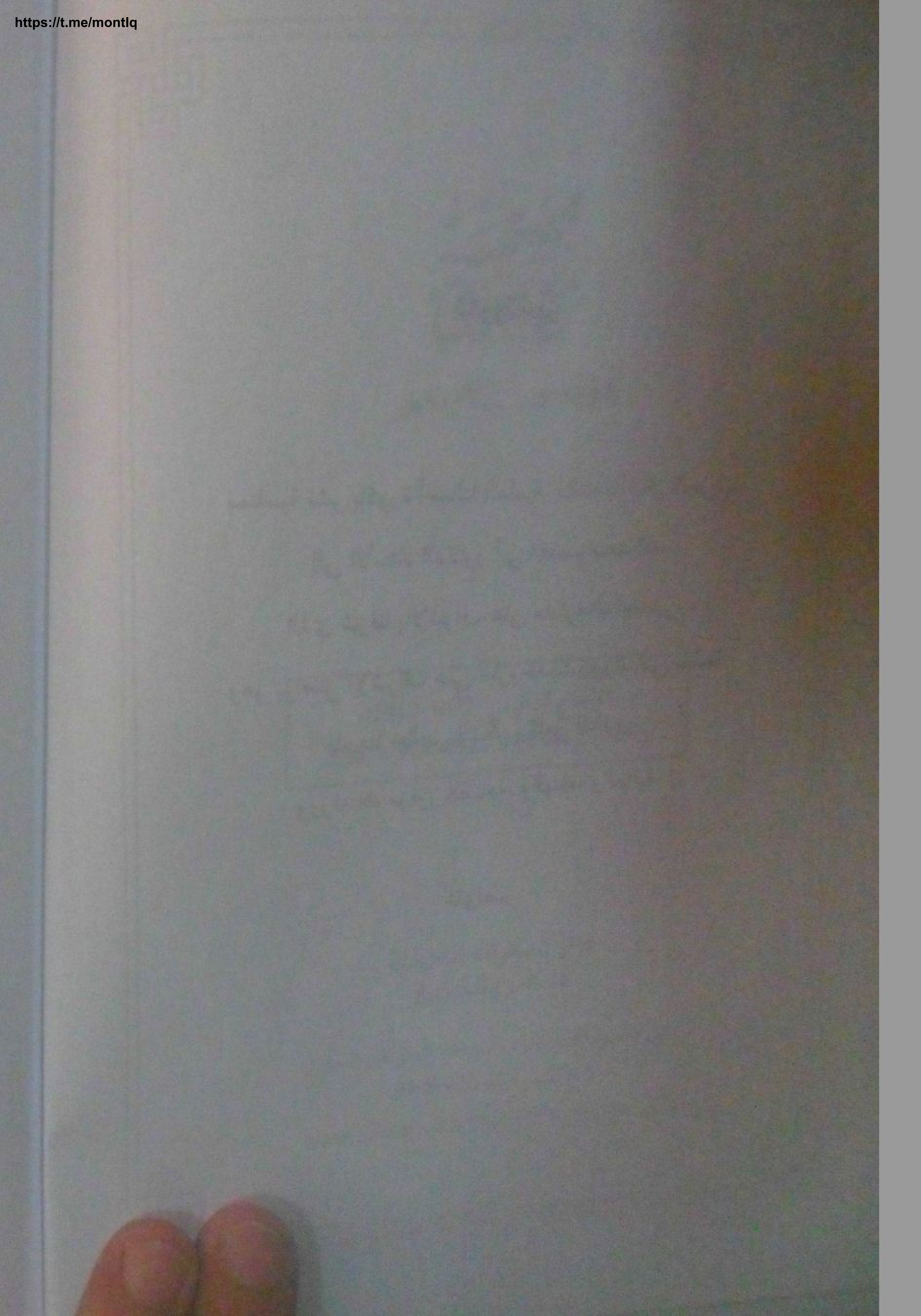
الذي شرّفنا بالإشراف على مذكرة الماجستير،

وهو يواصل الإشراف على أطروحة الدكتوراه التي نعدّها.

فله منا خالص الشكر وكامل التقدير،

ورزقه الله موفور الصحة، والهناء، والعافية.

المؤلف



الإهداء

إلى الوالد الكريم رحمه الله.

إلى الوالدة الكريمة حفظها الله.

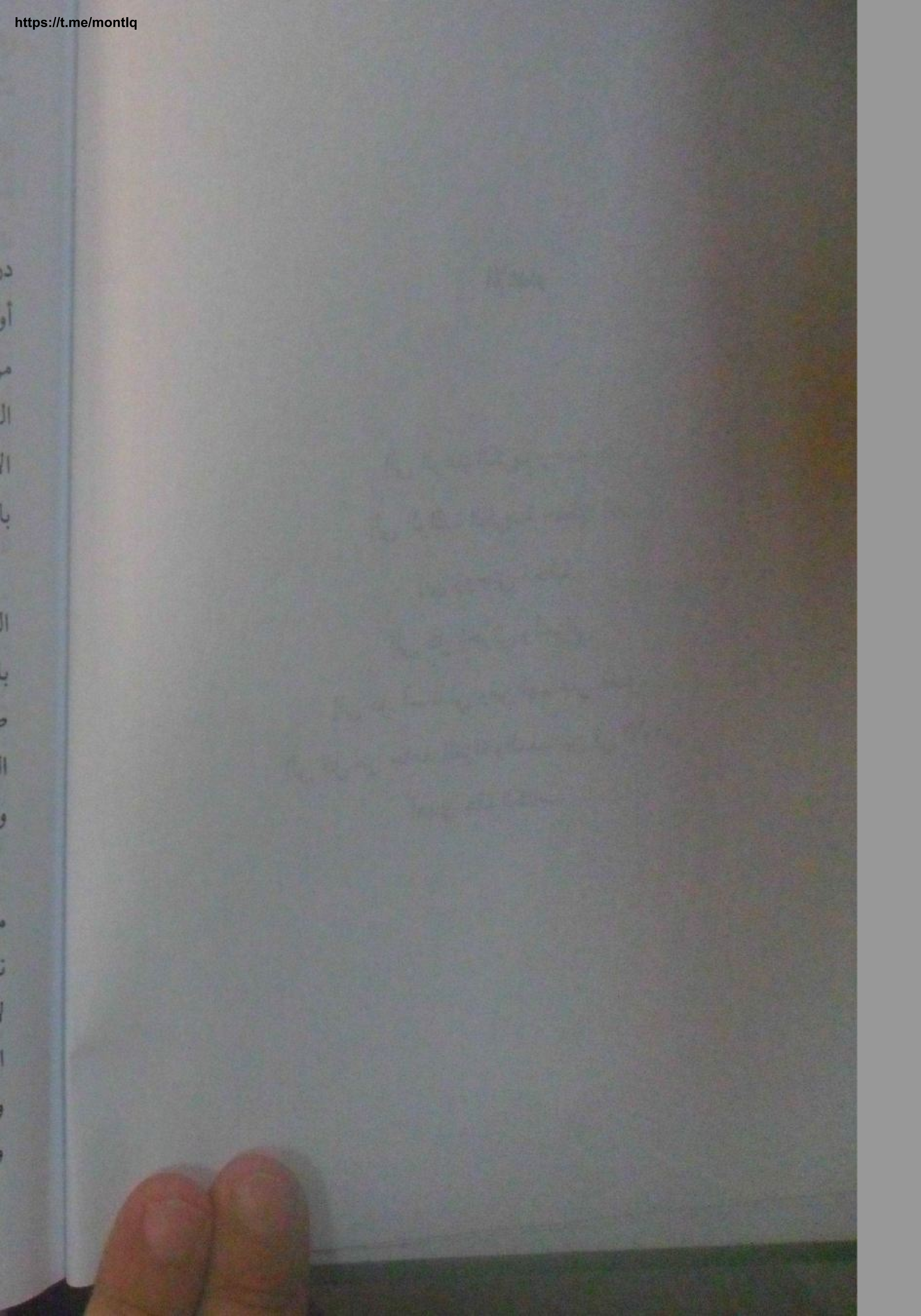
إلى زوجتي الغالية.

إلى كل إخوتي وأخواتي.

إلى كل أساتذتي ومن لهم علي فضل.

إلى كل من جاهد الغزاة والمفسدين في الأرض.

أهدي هذا الكتاب.



تمهيد

إن كتاب "الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر 1833 – 1870، دراسة في مشاريع ونشاط السانسيمونيين بمصر وتجربة توماس (إسماعيل) أوربان وأثرها في الجزائر". كتاب تاريخي بنظرة فلسفية، حيث يتناول حقبة هامة من تاريخ مصر والجزائر هي الفترة الممتدة بين سنتي 1833 و 1870 م، إذ يمثل التاريخ الأول دخول أول فوج من السانسيمونيين إلى مصر، فيما يمثل التاريخ الأخير نهاية دور وتأثير السانسيموني توماس أوربان في الحياة الاستعمارية بالجزائر.

والتيار السانسيموني، هو تيار اشتراكي، ظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر بأوربا على يد سانسيمون، وخلفه أونفونتان الذي أصبح يعرف بالأب الروحي للسانسيمونيين. وقد آمن السانسيمونيون بغزو الغرب للشرق، في صورة أن يكون الغرب فاعلا والشرق مفعولا به. ومن أجل ذلك نادوا بوحدة العالمين (الشرق والغرب) وبالاستعمار الذي تقوده أوربا خاصة فرنسا وإنجلترا وألمانيا. لما تتوفر عليه من علم ومال وإرادة.

دخل السانسيمونيون (وهم كلهم هنا من الفرنسيين) أرض مصر، وهم مغضوب عليهم من الحكومة الفرنسية التي رأت فيهم المعارضة السياسية. حيث نادوا لتطبيق أفكارهم وجهروا بها مما عرّضهم إلى أشد العقوبات ومنها السجن لأونفونتان وديشتال وغيرهما... كما مروا بأراضي الدولة العثمانية، واستقبلهم السلطان محمود الثاني ولم يطمئن إليهم، مما جعله يأمر بمواصلة مسيرتهم نحو وجهتهم مصر، فدخلوها غير آمنين لأنّ محمد علي حاكم مصر لم يرض عنهم ونظر إليهم بنظرة الريبة.

وباعتبار أن السانسيمونيين حملوا مشروعا استعماريا استثماريا في بداية الأمر ألا وهو مشروع شق قناة السويس، وفي ظل الصراع الفرنسي الإنجليزي بالخصوص على منطقة المشرق العربي ومنها مصر، أصبح السانسيمونيون هؤلاء مشروعا تنافسيا فرنسيا. مما جعل الحكومة الفرنسية تتدخل عن طريق قنصلها في مصر السيد ميمو ونائبه السيد ديلسبس لدى محمد علي، من أجل السماح لهم بالاستقرار في مصر وممارسة نشاطاتهم بصفة عادية. على أن تتدخل السلطات الفرنسية في حالة ما إذا رأى محمد علي أن السانسيمونيين قد أضروا بالحياة العامة. وهكذا تحول السانسيمونيون من مغضوب عليهم في فرنسا إلى يد استعمارية فرنسية قوية في مصر.

كان هؤلاء السانسيمونيون على درجة كبيرة من الثقافة والتكوين العلمي، فهم خريجو المدرسة المتعددة التقنيات في فرنسا، وكانت آنئذ من أكبر المدارس العالمية المتخصصة في الهندسة. كما كانت لديهم قدرات علمية كبيرة خاصة المهندس والإثنوغرافي أونفونتان، وفورنال وبراكس وإيميل بارو، وأوربان...

كان مشروع شق قناة السويس هو أهم المشاريع السانسيمونية في مصر على الإطلاق، لعلاقته بمنجزات الحملة الفرنسية سنة 1798 وإلى غاية 1801، وما قام به المهندس لوبير ومن معه ومن خلفه، من مجهودات في ربط البحرين الأحمر بالمتوسط. بل وكانت كمشاريع ربط البحار متعددة في الفكر السانسيموني بحثا عن القوة الاقتصادية، فقد حاول - قبل ذلك - سانسيمون شخصيا في محاولة شق القنوات. وجاء الدور عندئذ على أتباعه من أجل رد الاعتبار لأنفسهم بعد تعرضهم للسجن ووصفهم بأشنع الأوصاف في الوسط الاجتماعي الفرنسي.

لم يكتب للسانسيمونيين الظفر بامتياز قناة السويس رغم كل المحاولات التي قام بها أونفونتان وفورنال وحتى القنصل الفرنسي ميمو لدى محمد علي الذي فضل البدء بمشروع الجسور، ومنحه للمستمر الفرنسي لينون وجعل السانسيمونيين في مساعدة هذا الأخير. وذلك لعدم ارتياح محمد علي للدور

الذي تلعبه كل من بريطانيا وفرنسا، خاصة وأنه كان قد منح مشروع متابعة دراسة منطقة القناة للمهندس الإنجليزي تشيزني، ولم يكن يأمن جانب الدولة العثمانية التي تراه عدوها الانفصالي الأول والمهدد الرئيسي للعاصمة اسطنبول، وأيضا لتخوفه من التدخل الأوربي المباشر بعد ظهور ملامح تدويل منطقة قناة السويس، بل وهناك من دعا إلى فصلها عن مصر.

عمل السانسيمونيون إذا في مشروع الجسور الذي لم يكتمل هو الآخر بقرار من محمد علي، بسبب انتشار مرض الطاعون، وسوء التخطيط والدراسة من شركة لينون. وفي الوقت الذي عاد فيه بعضهم إلى فرنسا وعلى رأسهم أونفونتان، وفورنال، وأوربان، استقر آخرون بمصر على شاكلة المهندس ماشيرو، الذي أسلم وغير اسمه إلى محمد بيومي أفندي، وتولى إدارة مدرسة المهندسين، التي كانت من اقتراح أونفونتان سنة 1834. وأصبح يدرّس بها أبناء الطبقة الحاكمة (القصر العيني) خلفا للمهندس الإنجليزي الذي كان يدرسهم. ولم يكن ماشيرو الوحيد الذي أسلم من السانسيمونيين، بل أسلم توماس أوربان أيضا بمصر سنة 1835، وغيّر اسمه إلى اسماعيل، تأسيا بإسماعيل عليه السلام. كما أصبح لامبير المتخصص في التعدين والمناجم مديرا لمدرسة المعادن والتي كانت أيضا من اقتراح أونفونتان، حينما نصح محمد علي بإصلاح التعليم. ثم مديرا لمدرسة المهندسخانة أو المدرسة المتعددة التقنيات ببولاق. كما وصل سليمان باشا إلى رتبة نائب محمد علي، وربما حاكما على مصر بعد محمد علي على رواية توماس أوربان، وسليمان باشا هذا هو العقيد الفرنسي ذو الجنسية التركية أيضا، السيد (Sève). كما أسس السانسيمونيون مدارس للفلاحة وأخرى للطب.

ومن السانسيمونيين الذين رجعوا إلى فرنسا عائدين إليها من مصر نجد فورنال وأونفونتان وتوماس أوربان وديشتال وآخرون، ويهمنا هنا توماس أوربان الذي دخل الجزائر سنة 1837، آخذا على عاتقه مهمة خدمة السانسيمونية في إطار الاحتلال الفرنسي.

لم يكن توماس أوربان السانسيموني الوحيد الذي دخل الجزائر أو عمل بها، بل كان معه بيليسي، ولامورسيير، ووراني، قبل خصومته معهم... كما عاش أونفونتان فترة في الجزائر (1839 – 1843)، عضوا في اللجنة العلمية لاستكشاف الجزائر العلمي. كان له فيها تأثير كبير على أتباعه، وكانت له وجهة نظر في كيفية سير الاستعمار... وقد جمع أراءه كلها في كتاب سمّاه " استعمار الجزائر" (Colonisation de l'Algérie).

وقد آمن توماس أوربان في الجزائر بتطبيق سياسة استعمارية غير تلك التي ألفت فرنسا تطبيقها في مستعمراتها سابقا، فدعا إلى التشارك وهو مبدأ مهم في عمل السانسيمونيين. ويعني إشراك الأهالي في عملية التشييد والبناء. فكان أوربان يرى أن على الإدارة الفرنسية أن تشرك الجزائريين في الزراعة، والصناعة، على أن يكون الجزائريون أيدي عاملة، والأوربيون في الجزائر أدمغة موجهة. وأن يتوجه الجزائريون إلى المدرسة الفرنسية للاستفادة والتكوين سواء في التعليم العام، أو التكوين المهني، الذي بدأ السانسيمونيون يفكّرون لإقامته في الجزائر، ولكن وفق وجهة تخدم الثقافة الفرنسية، وتخدم مستقبل فرنسا في الجزائر، وهادمة لثوابت الأمة. فتوماس أوربان لم يكن يرى مشكلا بأن يكون الفرد مسلما ومسيحيا في آن واحد، وكان هو شخصيا قد اعتنق الإسلام في مصر سنة 1835 ومات عليه بالجزائر سنة 1884. ولكنه كان على إسلام بسيط بقي فيه مؤمنا بوحدة العالم، وبذوبان الخصوصيات الشرقية تحت خصائص الحضارة الغربية.

بدأ توماس أوربان عمله في الجزائر سنة 1837 مترجما من الدرجة الثانية بالجيش الإفريقي، ثم مترجما من الدرجة الأولى إلى غاية 1845، ثم تولى منصبا هاما وهو إدارة الشؤون الأهلية رفقة دوماس، وذلك خلال الفترة الممتدة بين 1845 و 1860. وأخيرا تولى منصب مستشار حكومة الإمبراطور نابليون الثالث، خلال الفترة الممتدة بين 1860 و 1870، وهو أهم وآخر منصب تولاه قبل أن يعتزل الحياة السياسية الرسمية إثر هزيمة فرنسا أمام بروسيا في سبتمبر 1870.

وفي مختلف الوظائف التي تولاّها كان لأوربان نظرته الخاصة التي كلّفته عداوة الأصدقاء، مثل صديقه وارني الذي انقلب عليه، واتهمه بأنه مدافع عن الجزائريين (الأهالي على لسان فرنسا)، ففي وظيفة الترجمة (1837 - 1845) احتك أوربان بالمجتمع الجزائري، وكان ترجمانا لجنرالات فرنسا وقادتها مثل الجنرال بيجو، الذي كان أول من عمل أوربان إلى جانبه. وشهد أوربان امضاء معاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو في 30 ماي 1837، وكانت هذه المعاهدة هي أول حدث كبير شهده أوربان بعد دخوله الجزائر، وربما كان هو من مترجمي الجنرال بيجو. لأن أوربان ذكر في سيرته أنه شهدها، وأنه كثيرا ما كان يبقى في معسكر الجنرال عند خروجه للحرب التي شارك فيها هو الآخر، ولكن لم يكن راضيا على أسلوب القوة، بل كان داعيا إلى استعمار الجزائر عن طريق التشارك، والسهر على خدمة الأهالي إلى الحد الذي يضمن إدماجهم، وفرنستهم، وجعلهم يتمسّكون بثوابت الهوية الوطنية الفرنسية. وهو بذلك كان أخطر من دعاة القوة والعنف على الجزائر والجزائريين. بل وكان هو من عمل على نقض فرنسا لهدنتها ضد الأمير كما جاء على لسانه.

بعد بيجو، عمل أوربان رفقة قائد الأركان الدوق أورليان، رغم عدم مشاركته في الحملة على المدية، ثم مع أخيه أومال، ثم مع غالبوا، ونيغربي، وروميني، في إخضاع منطقة سطيف والبيبان. قبل أن يتوقف نهائيا عن المشاركة في الحملات العسكرية، ويتفرغ لمهام الترجمة مع كل من شانغاربي بالبليدة، ثم الجنرال فالي بقسنطينة.

ومن خلال مهمة الترجمة هذه، وكذلك إسلامه الذي كان عليه منذ 1835، خالط أوربان المجتمع الإسلامي وخصوصا بقسنطينة، فتزوج من جرمونة بنت مسعود الزبيري، وهي من عائلة قسنطينية معروفة، وكان زواجا إسلاميا، أنجب منها بنتا سمّاها باية، قبل أن تتوفى جرمونة سنة 1864، فتزوج مرة ثانية سنة 1867 من فرنسية، أنجب منها ولدا.

أما عمله في مصلحة الشؤون الأهلية (1845 - 1860)، فكان فيه أوربا فعالا أيضا، حيث كانت له كلمة ونظر في كل ما حدث في تلك الفترة، سواء من المخططات الفرنسية، أو من نتائج على الجزائريين. فشهد استسلام الأمير عبد القادر في 24 ديسمبر 1847، حين كان رفقة الدوق أومال. وقد زار الأمير عبد القادر مرارا في منفاه بيريسكو و أمبواز، وكان على صداقة كبيرة ببواصونييه مرافق الأمير وحارسه بأمبواز.

وفيما يتعلق بعمله في الاستشارة بالحكومة العامة (1860 - 1870)، فقد كان مساهما في أغلب القرارات الهامة التي أصدرها الإمبراطور، من خلال الكتابين الذين كان قد ألفهما سنتي 1861 و 1862، الأول "الجزائر للجزائريين" تحت اسم مستعار هو جورج فوازين، والثاني "الجزائر الفرنسية". كما كان مرافقا للإمبراطور نابليون الثالث في رحلتيه إلى الجزائر، فأعجب الإمبراطور بحيويته بأفكاره. لذا أثر أوربان في سياسة نابليون الثالث خاصة في رسالة 1863 التي عالجت الملكية الفردية، ورسالة 1865 التي عالجت الجنسية، فكلاهما نتج عنهما صدور قرار سيناتوس كونسيلت لسنتي 1863، و 1865 وهما من بنات أفكار توماس أوربان.

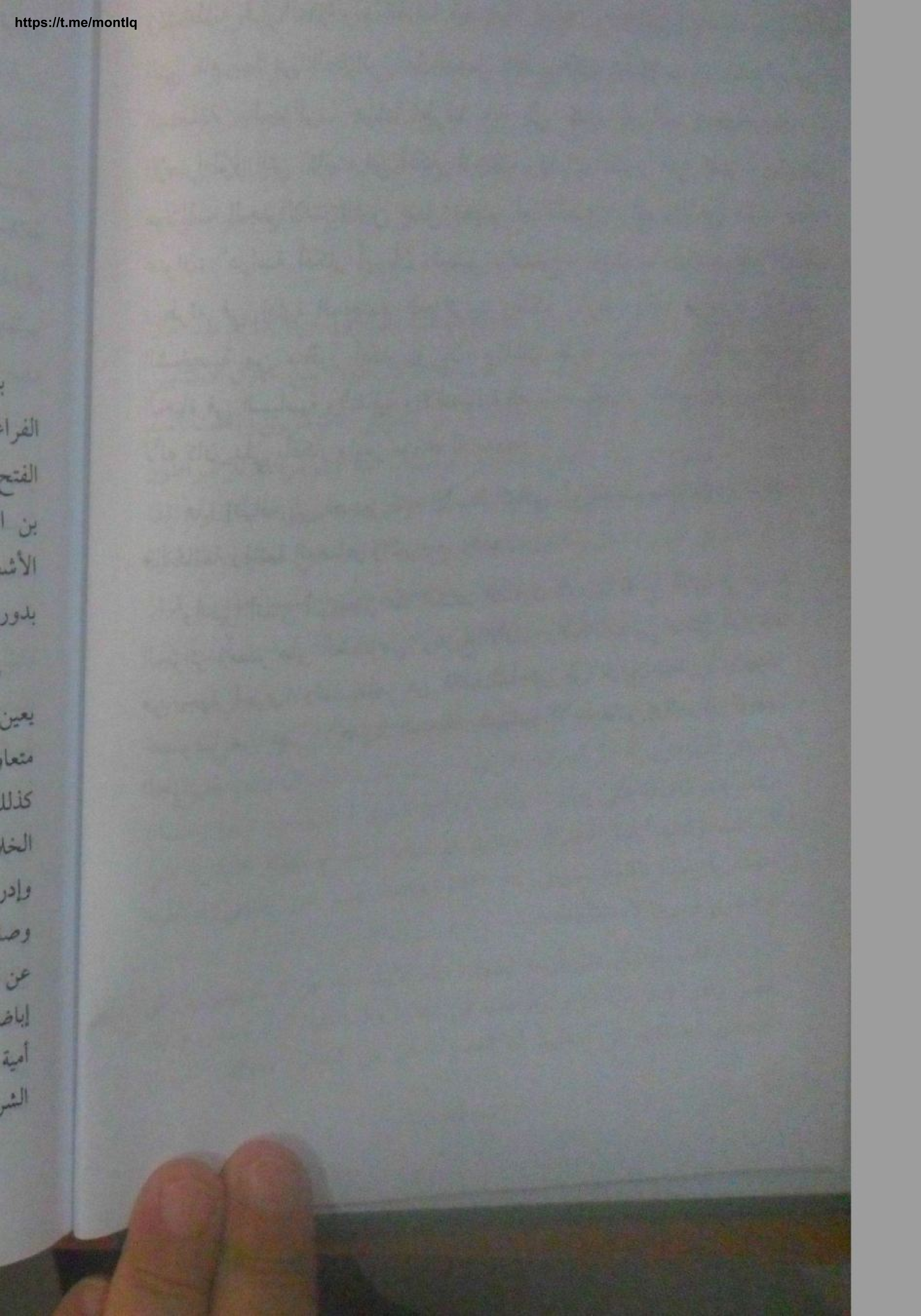
كما كان أوربان ذا قلم سيّال، فقد كتب في السياسة الاستعمارية، داعيا الإدارة الفرنسية إلى تطبيق أفكاره الواردة في رسالتي الإمبراطور، وفي كتابيه" الجزائر للجزائريين"، و" الجزائر الفرنسية ". كما كتب للجنرال بيدو، يشرح له أفكار قائد الحملة على بسكرة، وقائد الأركان الدوق أومال، عن كيفية إخضاع السكان. وكتب أيضا للجنرال روندون في كيفية إخضاع منطقة القبائل، التي انتهت باعتقال فاطمة نسومر سنة 1857. وكتب أيضا عن إقليمي قسنطينة والتيطري تسهيلا لاحتلالهما.

والكتاب يحتوي على أربعة فصول، جاء الأول منها عن السانسيمونيين في مصر وأهم قادة هذا التيار وتواجده في مصر، والسانسيمونيون ومشروع بناء الجسور ونشاطهم في التعليم. أما الفصل الثاني من الكتاب، بعنوان : "أوربان

ونشاطاته في الجزائر"، تناولنا فيه حياة أوربان ومختلف الوظائف والنشاطات التي قام بها في الجزائر. أما الفصل الثالث فكان تحت عنوان: كتابات أوربان المتعلقة بالجزائر: حيث تطرقنا فيه إلى كتب أوربان، وبحوثه، ورسائل الإمبراطور التي كانت من أفكار أوربان، وكذلك التقارير التي كتبها أوربان إلى مختلف الجنرالات الذين عمل معهم. أما الفصل الرابع والأخير فكان تحت عنوان: "دراسة أفكار أوربان (تحليل واستنتاج)، حيث عالجنا فيه فهم أوربان ونظرته في إدارة المجتمع الجزائري، وملكية الأرض وكذا موضوع الأحوال الشخصية من منظور أفكار أوربان، وكذلك نظرته المتعلقة بمختلف جوانب الحياة في السياسية والثقافية والاقتصادية الفرنسية بالجزائر كتنظير وليس كتأريخ لأنه كان يدلي بأفكار وليس مؤرّخا للاستعمار.

هذا إضافة إلى تصدير كتبه الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، والمقدمة والخاتمة وقائمة المصادر والمراجع، والفهارس.

وأخيرا أتمنى أن يحقق هذا الكتاب المأمول منه، لما له من أهمية في تاريخ الجزائر ومصر على الخصوص، وتاريخ الأفكار والعلاقات بين ضفتي المتوسط من جهة أخرى، ولما يقدّمه من فائدة للباحثين في تاريخ البلدين والجزائر خصوصا من فهم الأحداث المتعلقة بالسياسة الاستعمارية والحركة الوطنية الجزائرية.



تصدير

بقلم الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بين الجزائر ومصر تاريخ مشترك يرجع إلى عصور سحيقة، ربما قبل عصور الفراعنة والفينيقيين، كما تدل الحفريات والآثار الدينية واللغوية القديمة. ومنذ الفتح الإسلامي أصبحت مصر القاعدة التي ينطلق منها القادة والولاة من عمرو بن العاص وعقبة بن نافع وأبي المهاجر وموسى بن نصير إلى محمد بن الأشعث. وقد استمر العمال على إفريقية يأخذون تعيينهم من ولاة مصر المعينين بدورهم من المدينة أو من دمشق أو من بغداد.

ومنذ الفاتح موسى بن نصير (نهاية القرن الأول الهجري) أصبح والي إفريقية يعين مباشرة من دمشق دون انتظار التعيين من والي مصر، بل أصبحا إداريا ندين متعاونين على شحن الجيش الإسلامي بالجنود إذا اقتضى الأمر. وظل الأمر كذلك إلى أن تحقق النصر في الأندلس. ومر دعاة المذاهب والمنشقون عن الخلافة المركزية عبر مصر (عبد الرحمن بن رستم، وعبد الرحمن الداخل، وإدريس الأول، وعبيد الله الشيعي، والمهدي الفاطمي وابن تومرت. .) إلى أن وصلوا إلى أهدافهم، فهيجوا المازيغ ضد الحكم المركزي وأنشأوا كيانات تعبر عن إيديولوجياتهم. فهذه دولة علوية-هاشمية في فاس، وتلك دولة خارجية-إباضية في تاهرت، وثالثة دولة فاطمية-إسماعيلية في المهدية. ولا تسأل عن بني أمية في قرطبة، ورجوع الفاطميين إلى المشرق وإنشائهم القاهرة والأزهر الشريف بمساعدة الكتاميين الجزائريين. وقد أصبحت مصر - كما يقول ابن

https://t.me/montlq

خلدون(القرن الثامن): "أم الدنيا وبستان العالم" وموردا للعلم يقصده الجزائريون والمغاربة عامة لينهلوا من حياضه.

كان طلب العلم من مصر لا حدود له، سواء في حياة الإمام مالك وتلاميذه أو في عهد الأزهر وشيوخه. ويقدم ابن محرز الوهراني وأبو الفضل المشدالي ومحمد بن مرزوق وأحمد المقري التلمسانيين. شهادات حية عن هذه العلاقة العلمية النشطة. ثم كانت تغريبة بني هلال التي دفعت بنحو خمسين ألف بدوي عربي كانوا يعيشون في جنوب مصر وفي شرق الدلتا، إلى عبور النهر العظيم والصحراء الكبرى في اتجاه الغروب دون أن تقف حواجز في طريقهم إلا جبال الأطلس وبحر الظلمات. .

وليس صدفة أن يكون عام استيلاء السلطان سليم الأول العثماني على مصر هو نفسه عام الفتح العثماني للجزائر، كما أنه ليس صدفة أن يغزو الفرنسيون مصر بنهاية القرن الثاني عشر الهجري، وعند عجزهم عن تحقيق هدف حملتهم افتعلوا بعد ثلاثين سنة حادثة تبيح لهم غزو الجزائر، وإذا كانت غزوتهم لمصر قد فشلت لأسباب داخلية وخارجية فإن حملتهم على الجزائر قد نجحت. وأثناء التفكير في غزو الجزائر خطط الفرنسيون للاستعانة بحاكم مصر عندئذ (محمد علي) على إيقاع الهزيمة بجيش الداي حسين. ولكن عوامل تاريخية وعسكرية جعلت مشروع التعاون يوضع في الأدراج.

وعندما انتهت الحملات الفرنسية بالفشل في مصر والنجاح في الجزائر استعان الفرنسيون أولا بالمترجمين المصريين الذين سبق لهم العمل معهم في مصر، وثانيا الاستفادة من العلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة على مصر في الجزائر، ومنهم فريق من الاشتراكيين المثاليين أتباع سان سيمون، وكان على رأسهم أستاذهم وقائدهم أونفونتان Enfantin. فقد عمل السانسيمونيون -كما أصبحوا يعرفون- في مصر وحاولوا تطبيق نظريتهم في الاشتراكية المثالية على الشعب المصري الذي وجدوا فيه ضالتهم والأرضية الصالحة لتطبيق برنامجهم

فعملوا ما استطاعوا إلى أن حان موعد هروب قائد جيشهم من مصر(نابليون بونبارت) عائدا إلى بلاده تحت جنح الظلام.

ورغم أن بعض السانسيمونيين بقي في مصر ولم يتأثر بالانسحاب العسكري والمعاهدات الدبلوماسية فإن عددهم كان يتقلص إلى أن حان موعد التحاقهم بجيش بلادهم الذي نجح بالجزائر في فرض الاحتلال والاستقرار والاستيطان. وذلك هو ما كان ينشده السانسيمونيون. فهم وإن وجدوا في مصر الإنسان فإنهم لم يجدوا فيها الأرض التي يطبقون عليها نظريتهم. أما في الجزائر فالأرض كانت متوفرة بحكم فرض الاستعمار والاستيطان. وكان التطبيق النظري على المستوطنين المحتلين وليس على أصحاب الأرض الأصليين.

وهنا برز دور هذه الفئة الملتفة حول شيخها (أونفنتان). شارك أونفنتان بنفسه في الجزائر فوضع المخططات وألف الكتب، وأعد التقارير وساهم في المشاريع المنجحة لكيفية استغلال الأرض المغتصبة الجديدة. وكان أحد زعماء هذه الفئة الأكثر بروزا والأقوى صوتا والأمضى قلما هو توماس أوربان Thomas Urbain الذي أصبح يعرف بإسماعيل أوربان (عربان) بعد اعتناقه الإسلام وزواجه من امرأة مصرية مسلمة عندما كان في مصر. ثم جاء إلى الجزائر كزملائه مدعيا معرفة الفلسفة السانسيمونية وفهم الإسلام والمسلمين. وفي الجزائر تزوج أوربان أيضا من امرأة مسلمة من مدينة قسنطينة، واستطاع أن يعرف منها ومن دراساته المكثفة المجتمع المسلم من الداخل في الجزائر. وأخذ يعالج قضايا الاستعمار ويدافع بقلمه القوي ومشاعره المتدفقة عن حقوق الأهالي في الاستفادة من الحضارة الغربية. وظهر أوربان في الساحة الجزائرية- الفرنسية كأنه بطل من أبطال الدفاع عن حقوق الإنسان الأهلي "في التملك والتحضر والمعاملة الإنسانية" وتوفير الحماية من استغلال المستوطنين لهم.

وقد درس الأستاذ مصطفى عيد هذه الشخصية المشحونة بالمتناقضات عبر سنوات وتعمق في فهم أصوله البشرية، لأن أوربان كان رجلا هجينا يعاني عقدا

صعبة الفهم والحل. ودخل معه الأستاذ الباحث في أعماق هذه العلاقة. وقد بدأ الأستاذ عيد عمله الجامعي معي منذ كان يبحث عن موضوع يخصصه لرسالة ماجستير بجامعة الجزائر. فاستشارني فأشرت عليه بما كنت أراه يخدم عدة أهداف، منها الخروج من النطاق الضيق الذي حصر فيه طلابنا أنفسهم وهو غالبا الاقتصار على الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية وشخصياتهما... وبحث الأستاذ عيد وبحثنا معا إلى أن استقر الرأي على معالجة دور السانسيمونيين في تطبيق نظريتهم في مصر والجزائر، وهو موضوع كان يشغل بال المستعمرين في بلادنا ويثير بينهم المعارك الفكرية والسياسية، وكان بالتالي يؤثر على علاقتهم بالمسلمين (الجزائريين) ومصير الإنسان الأهلي تحت حكمهم الاستبدادي. ومما تجدر الإشارة إليه أن توماس أوربان قد أثر على سياسة نابليون الثالث في الجزائر وتحت تأثير أوربان طرح الامبراطور فكرة المملكة العربية في الجزائر وغيرها من الأفكار التي لم يهضمها خصوم نابليون وخصوم أوربان. وكان أوربان عندئذ هو المترجم الرئيسي لنابليون أثناء زيارتيه للجزائر، كما كان مستشاره في الشؤون الأهلية. وقد رأينا أن معالجة دور السانسيمونيين وتوماس أوربان يخدم الجزائر كما يخدم مصر باعتبار أن الحركة السانسيمونية بدأت في مصر ثم انتقلت إلى الجزائر.

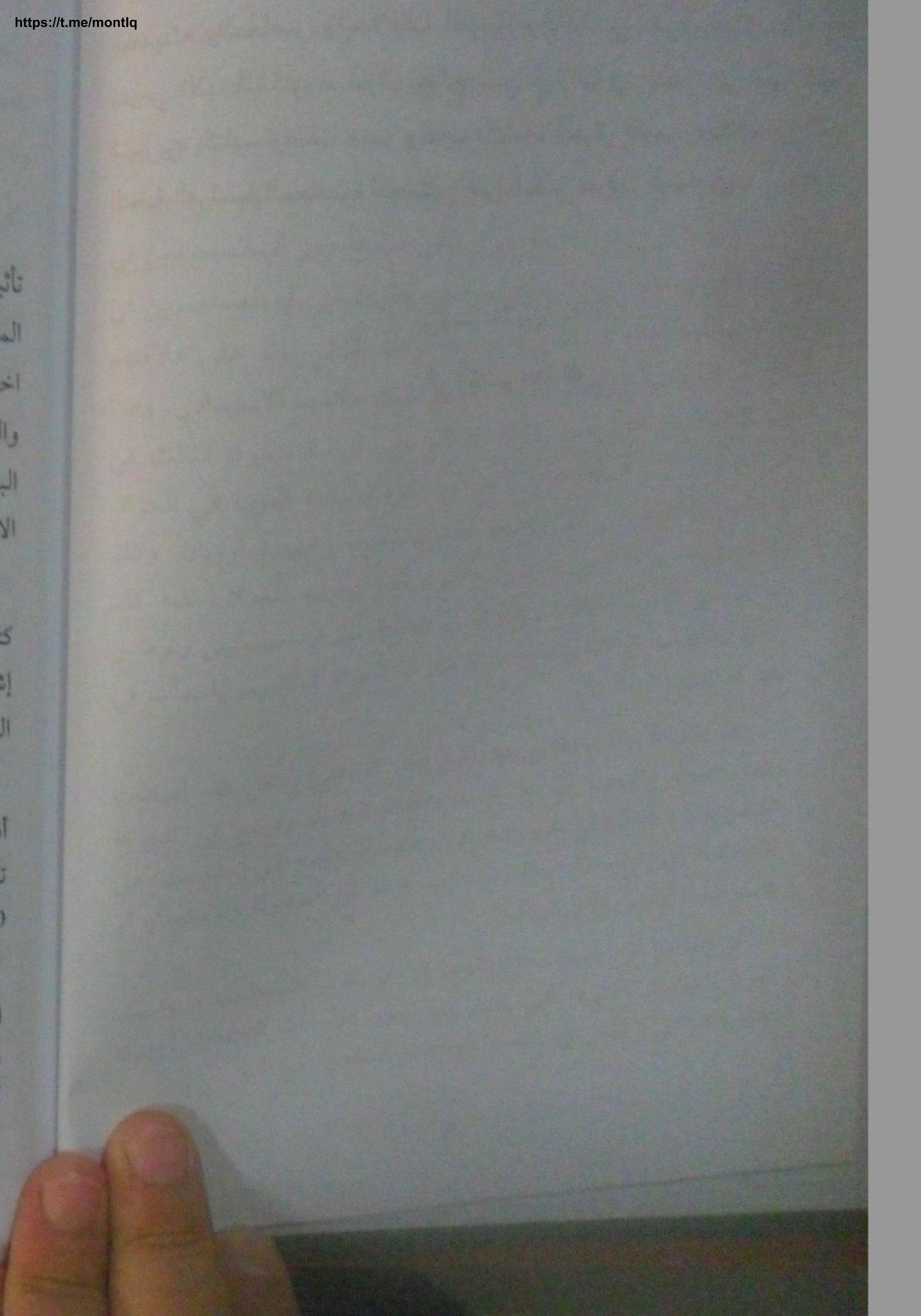
وقد عدل الأستاذ مصطفى عيد أصل بحثه الجامعي فأدخل عليه إضافات وطور فصوله وأضاف إليه ما يناسب عنوانه الجديد وتوسع في الحركة السانسيمونية ونشاطها في مصر والجزائر، وحاول أن يجيب على أسئلة منها: هل كانت فعلا حركة إنسانية منصفة للشعوب بعيدة عن العنصرية والاستعمار أو كانت وسيلة لتحقيق هذين الهدفين؟

في الكتاب آراء دسمة يحتاج قارئها إلى أن يكون متسلحا بمعرفة واسعة، مدركا للحبكات الكثيرة التي كانت وراء بعض الأحداث التاريخية، ومدركا للتأويلات التي لا تكفي فيها المعرفة العادية أو السطحية.

والمؤلف من رعيل الشباب القادر على إضافة الجديد في فهم التاريخ الحديث والمعاصر والعلاقات العربية، وخاصة بين مصر والجزائر، لأنه وهو يدرس الآن للدكتوراه مازال يعالج نفس التيارات في البلدين على ضوء كتابين شهيرين: كتاب وصف مصر وكتاب اكتشاف الجزائر العلمي، وكلاهما من إنتاج النخبة الفرنسية المعاصرة للحملتين على البلدين العربيين المسلمين.

بيروت، 24 يناير 2012

أبو القاسم سعد الله



المقدمة

من المواضيع التي تتعلق بوطننا العربي تحت الاحتلال الأجنبي، وتحت تأثير التيارات الفكرية الأجنبية وخاصة في إطار العلاقات بين ضفتي البحر المتوسط وتياراته، والتي تحتاج إلى تعمق في الدراسة. نجد هذا الموضوع الذي اخترناه عنوانا لكتابنا هذا وهو: "الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر". وذلك لعلاقة التيار السانسيموني كمذهب شيوعي بما حدث في البلدين من احتلال ومن نشاط استعماري، أو توجيه للنخبة والبنية التحتية الاقتصادية.

كان هذا الكتاب أول الأمر مذكرة ماجستير حملت عنوان " الجزائر في كتابات توماس (إسماعيل) أوربان 1812 - 1884. دراسة تاريخية تحليلية ". تحت إشراف الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله. نوقشت بقسم التاريخ بجامعة الجزائر بتاريخ جويلية 2008.

اقترح علينا الأستاذ المشرف نشر المذكرة في كتاب تعميما للفائدة، ورأى أن نضيف فيها شيئا عن السانسيمونيين في مصر. باعتبار أن هذا التيار قد حاول تجريب أفكاره في مصر قبل المجئ إلى الجزائر مع الحملة الفرنسية عليها سنة 1830.

حلّ السانسيمونيون في مصر سنة 1833 بتخطيط من أونفونتان، حتى يرد الاعتبار لهذا التيار الذي أرادت أن تشوّهه الملكية القائمة بفرنسا آنذاك، وتظهره في مظهر المعادي للوطنية، وبناء الدولة. فحكمت على الأعضاء البارزين من أتباعه بالسجن. فبعث أونفونتان النشطاء الباقين إلى مصر.

عمل السانسيمونيون في مصر على كسب مودة السلك الديبلوماسي
الفرنسي هناك المتمثل في القنصل ميمو ونائبه ديليسبس ومساعدوه. ولحسن
حظهم أن الحكومة الفرنسية دعمت انتقالهم إلى مصر، إخراجا لهم من فرنسا،
ومنافسة لبريطانيا هناك.

كما عمل السانسيمونيون على كسب محمد علي حاكم مصر آنذاك، وقد
بذلوا في ذلك جهودا كبيرة. ولكن محمد علي بقي غير مرتاح لوجودهم في
مصر، إلى أن تدخل أعضاء السلك الديبلوماسي الفرنسي وقدموا ضمانات بطرد
السانسيمونيين إن هم حاولوا التشويش.

نشط السانسيمونيون، وهم المعروفون بالتخطيط، والجدّية، والعمل
الدؤوب، في كل المشاريع التي أعدّها محمد علي للنهوض بمصر، وساعدهم
في ذلك اعتماده على الخبرة الأوربية الإنجليزية والفرنسية، من خلال اسناد
المشاريع إلى مهندسيهم. فعملوا تحت إشراف المهندسين الإنجليز بعد أن رفض
محمد علي اسناد مشروع بناء الجسور إليهم. وحاولوا إقناعه بشق قناة السويس
التي كانت على رأس اهتماماتهم فرفض. كما عملوا في ميدان التعليم وفي الطب
وفي الزراعة، كما سنرى فيما يأتي من القول.

أما السانسيمونيون في الجزائر، فقد درسناهم من خلال شخصية توماس
أوربان، والذي لا يزال شخصية غامضة في تاريخ الوجود الفرنسي بالجزائر. ذلك
أنه جمع بين كثير من المتناقضات، فهو يرى نفسه مسيحيا ومسلما كما كان يرد
عن متّهميه بالموالاة للمسلمين، وهل اعتنق الإسلام عن قناعة أم تضليلا للعرب
والمسلمين لكسب ثقتهم والتغلغل في أوساطهم؟. رغم أنه قد بدا لنا أنه اعتنق
الإسلام بصدق، ولكنه لم يغص في العقيدة الإسلامية. وهو فرنسي مولّد اعتبره
الفرنسيون طبقا للقانون الفرنسي السائد آنذاك مواطنا من الدرجة الثانية. كما أنه
أيّد الاحتلال ووقف مع الجزائريين ضد جشع المعمرين الذين عادَوه من أجل
مواقفه هذه. تميّز بقوة توالد الأفكار حول التمكين للاحتلال، وبحسن التدبير في

كيفية جعل الجزائر مستعمرة فرنسية طيّعة على المدى البعيد ربحا للطاقة والجهد الفرنسيين اللذين دعا إلى توفيرهما واستغلالهما في عمليات بناء مؤسسات الاستعمار بالجزائر. عاجزا عن الجهر بأفكاره هذه فنشرها تحت اسم مستعار تارة وتحت اسم مجهول تارة أخرى. وتحت أسماء مسؤوليه العسكريين مرة ثالثة.

جاء الكتاب في أربعة فصول ومقدمة وخاتمة، خصصنا الفصل الأول للسانسيمونيين في مصر، فعرّفنا فيه بالفكر السانسيموني وأهم قادته، وتطرقنا إلى التواجد السانسيموني في مصر منذ دخول الفوج الأول منهم سنة 1833. متناولين بالدراسة نشاطاتهم هناك، في محاولاتهم من أجل تجسيد مشروعهم الكبير قناة السويس، وفي بناء الجسور وفي التعليم.

أما الفصول الثلاثة الأخرى فقد خصصناها للسانسيمونيين في الجزائر من خلال تجربة توماس أوربان. فخصصنا الفصل الثاني لأوربان ونشاطاته في الجزائر من خلال نشأته، واكتشافه الشرق، وإقامته في مصر، ومختلف المهام التي تولاها في الجزائر منذ دخولها إليها سنة 1837 إلى وفاته بها سنة 1884. دون أن ننسى وضع القارئ في الإطار التاريخي لذلك، من خلال لمحة موجزة عن تاريخ الجزائر منذ دخول الاحتلال الفرنسي سنة 1830 إلى دخول أوربان سنة 1837.

أما الفصل الثالث فخصصناه إلى كتابات أوربان المتعلقة بالجزائر، من حيث الكتب، والرسائل، والبحوث والتقارير التي أعدّها للضباط العسكريين، من أجل التعريف بالجزائر، وفي كيفية دمج المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي، وإحداث التشارك الذي كان ينادي به أوربان والسانسيمونيون.

في حين خصصنا الفصل الرابع والأخير، إلى دراسة أفكار أوربان من خلال الاستنتاج والتحليل، وركّزنا على أفكاره المتعلقة بإدارة وفهم المجتمع الجزائري، وهي الآلية التي استعملها السانسيمونيون والمستعمر للتغلغل في المجتمع الجزائري والسيطرة عليه. وعلى ملكية الأرض، والتجنيس والأحوال

الشخصية، وعلاقة أوربان في كل ذلك بما عرف بقانوني سيناتوس كونسيلت الأول المتعلق بملكية الأرض سنة 1863، والثاني المتعلق بالأحوال الشخصية سنة 1865. هذا إلى جانب أفكار أوربان كنموذج للسانسيمونيين في ميادين الزراعة والثقافة والمواصلات.

وأخيرا نتمنى أن يكون في هذا الكتاب مبتغى الباحثين في المجال الفكري الاشتراكي بصفة عامة والسانسيموني والاستعماري في البلدين الجزائر ومصر بصفة خاصة.

وعلى الله قصد السبيل. وما توفيقي إلا بالله أولا وأخيرا.

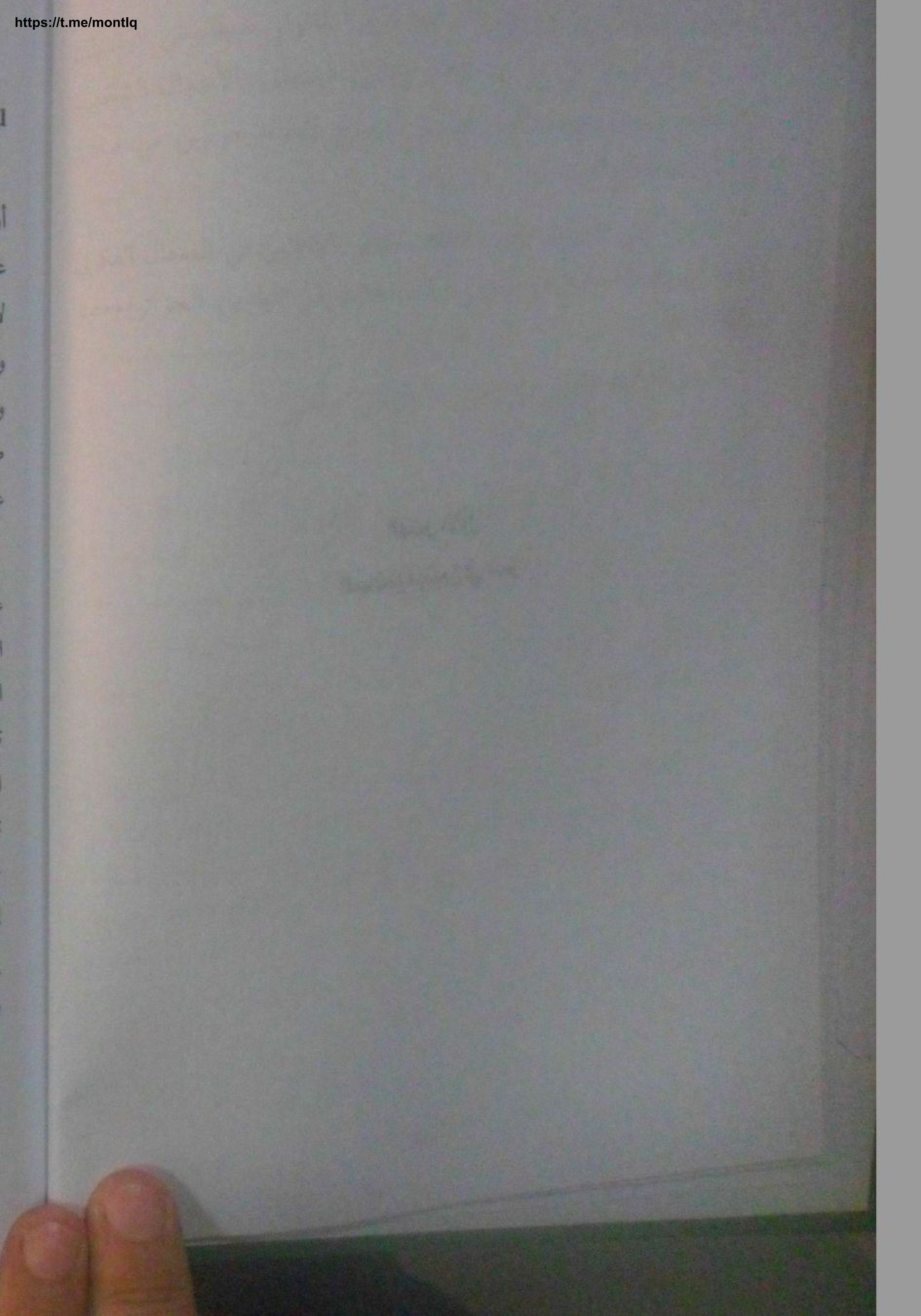
المسيلة في: 17 صفر 1433 هـ

الموافق لـ:12 جانفي 2012 م.



الفصل الأوّل

السانسيمونيون في مصر



1. الفكر السانسيموني:

إن السّانسيمونيّة "*Saint-simonisme*" مذهب أيديولوجي (فكري) ظهر في أوربا مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي على يد "سان سيمون"، يقوم أساسا على المثالية والاشتراكية، التي وجدت في الوضع الأوربي ميدانا خصبا لانتشارها، وهو الوضع الذي انتهى إلى الإعلان عن البيان الشيوعي سنة 1848. وكانت قد تأثرت بها فرنسا منذ الظروف المأساوية التي أدت إلى ثورات 1830 و1848، منادية بضرورة " إقامة مجتمع يسوده العدل والنظام والانسجام، عن طريق التشارك والعمل الجماعي الذي يؤدّي بدوره إلى التشارك في الثروة والرّبح عن طريق حماية الدّولة"[(1)].

وتدعو السانسيمونية إلى الابتعاد عن المادية البحتة، وبدلا من ذلك تحث على العمل على احترام الإنسان وتشريف الإنسانية، من خلال تفضيل المصلحة العامة، ونبذ الأنانية، وإحلال مشاعر التضامن والكرامة محلها. وأن التنمية المادية التي تدعو إليها ماهي إلا وسيلة لذلك، وليست غاية في حد ذاتها، خاصة وأنها ترى أن الإنسان قادر على تسخير الطبيعة لصالحه[(2)]. إلا أن الملاحظ على أعمال السانسيمونيين بمصر والجزائر، ومدى بشاعة استغلالهم للاقتصاد المصري لو نحكموا فيه وأداروه ووجهوه، ومدى استغلالهم للإنسان الجزائري وتلهفهم على جمع المادة. يحكم أن مبادئهم هذه لم تكن سوى مجرد ادعاءات لم تجد طريقها إلى الواقع، خاصة وأنهم يؤمنون بواجب تحقيق الوحدة بين العالمين الشرقي

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954. ج6. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 1998. ص 437.

(2) مارسيل إيميريت، السانسيمونيون في الجزائر،
Marcel Emérit, Les Saint-simoniens en Algérie. Edition les belles lettres, Paris, 1941. p 15, 16.

والغربي، على ان يكون الغرب فاعلا والشرق مفعولا به.

وكان السانسيمونيون قد عرفوا مصر منذ سنة 1832، عن طريق أونفونتان الذي بعث السادة كايول " *Cayol* "، و بانتييه " *Pantier* "، وجيرمين " *Germain* "، وفليشي " *Flichy* "، فاتجهوا إليها حاملين مشروع الاستثمار في قناة السويس، ومشاريع أخرى تعليمية، وفي الهندسة المدنية والتقنيات.

كما عرف السانسيمونيون الجزائر منذ عهد مبكر عن طريق الأب الروحي لهم "أونفونتان" حيث صرّح سنة 1843: " إنني أعرف الجزائر التي زرتها ورحلت إليها وقطنت بها خمس سنوات من شبابي"[1]. إلا أن اهتمامه بها كان فيما بعد، حين استقر بها كعضو في اللجنة العلمية لاكتشاف الجزائر لمدة سنتين من 1839 والى غاية 1841[2]. وكان قد حمل على عاتقه تطبيق المشروع السانسيموني بعد أن عاد خائبا من مصر سنة 1836.

ونتيجة لاطلاعه على أوضاع الجزائر ومعرفته بها منذ 1816، رأى أن الظروف بها تختلف عن مثيلاتها بمصر، وأن الجزائر تحمل عوامل نجاح المشروع الذي يتبنّاه، ومن خلاله نجاح المشروع الاستيطاني. وهكذا تحمّس السانسيمونيون لذلك، ولعب رجالهم أدوارا هامة في تثبيت الاستيطان الأوربي تحت السلطة الفرنسية، من خلال سعيهم إلى إدماج المجتمع الجزائري في المجتمع الأوربي الدّخيل، وتوجيه الفكر والثقافة من خلال التحكم في المدارس التي أنشؤوها خصّيصا لذلك[3]، وكذا توجيه الاقتصاد والتحكم فيه من خلال

---

(1) الفترة التي قصدها أونفونتان هي فترة "1816 – 1821 " عندما كان وكيلا متنقلا للتجارة في الخمر. ينظر: جورج إيفر. أونفونتان والهجرة الأجنبية في الجزائر Georges Yver. Enfantin et L'émigration étrangère en Algérie بالمجلة الإفريقية. ع 295. سنة 1918. ص 258.

(2) المصدر نفسه. ص 258.

(3) احميدة عميراوي. السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في منطقة سكيكدة (1838 – 1858).

تأسيس القرى الفلاحية واستغلال المناجم، ومدّ طرق المواصلات والسكة الحديدية[1].

ولعل أهم من درس السانسيمونيين في الجزائر هو مارسيل إيمبريت الذي خصّهم بكتاب شامل هو "السانسيمونيون في الجزائر" حيث يرى أن السانسيمونيين "رجال سياسة واقتصاد، يمتازون بتفكير عميق، والشعب عندهم مقدّس"[2]. ولذا كانت اهتماماتهم بعث المبشّرين للخروج بالإنسانية إلى حياة أفضل. أما من ناحية الاقتصاد فأهدافهم ترتكز على التطوّر الصناعي للخروج من التخلّف المورّث للبطالة، ولن يتمّ ذلك إلا باستغلال الثروات، ولن يتوصّل إلى ذلك إلاّ بمدّ شبكة المواصلات وعلى رأسها السكة الحديدية فاهتموا بها اهتماما بليغا هنا في الجزائر، على غرار ما اهتموا بها في مصر، حيث كان على رأس كل مشاريعهم، مشروع قناة السويس، وشق طرق السكة الحديدية، وبناء الجسور. كما اهتموا بها في سائر الدول الأوربية كفرنسا وإيطاليا والنمسا وإسبانيا وروسيا[3].

ومن خلال ذلك يتضح أن الفكر السانسيموني يتمحور حول قضيتين

=دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. 2004. ص 62. ولا بد هنا أن نفرّق بين المؤسسات الدينية والثقافية التي حطّمها الاستعمار لتحطّم معها هوية الأمة، وبين المدارس والمعاهد التي أنشأها لبثّ القابلية للاستعمار. وهذا ما تمّ العمل له منذ 1830 وخاصة عن طريق أولئك المترجمين الذين رافقوا الحملة مثل بنيامين فانسن، أو الذين جاءوا معهم من أمثال المحاضر "جواني فرعون" "*Joanny Pharaon*" ابن إلياس فرعون البعلبكي مترجم الحملة الفرنسية على مصر. ينظر: هنري ماسي. الدّراسات العربية في الجزائر 1830 – 1930. *Henri Massi. Les Etudes Arabes en Algérie 1830 – 1930*. بالمجلة الإفريقية. ع356، 357. سنة 1933. ص 02.

(1) المرجع نفسه. ص 62.

(2) إيمبريت. مصدر سابق. ص10.

(3) المصدر نفسه. ص 11.

رئيسيتين هما، التنظير ومباشرته بالعمل الفعّال. فالجانب التّنظيري اهتم به السانسيمونيون اهتماما بليغا من خلال أطروحات أو رؤى أونفونتان، وأوربان، وورارني، وديشتال، وفورنال، وبراكس، وبيرون، وغيرهم. مقدّسين فيه العمل المنهجي المنظّم القائم على الدّراسات العلمية ومبدأ الكفاءة. ولذا وضعوا أسسا لنجاح أعمالهم متمثلة في توجيه الرأي العام من خلال الإشهار الذي يخدم مشاريعهم، فطبّقوا مشروعا إشهاريا واسعا، سواء من المنتجين أو الحكومة التي استغلت مكانة الصحافة كسلطة رابعة في المجتمع الليبرالي لتمرير كيفية إنجاح مشاريعها. هذا إضافة إلى المعارض المختلفة سواء الوطنية منها أو الدولية[1].

كما عمل السانسيمونيون على التحكم في الثروة المالية من خلال إنشاء البنوك والمصارف، وربطوا علاقة هامة بينها وبين الإشهار من أجل الوصول إلى القوة الاقتصادية التي آمنوا بها في ظل الليبرالية السائدة، فنشروا المنافسة الحرّة، وامتلكوا الثروة، وأسسوا للقرض واهتموا به كوسيلة للثراء وتحقيق المصلحة الخاصّة، فنادى أونفونتان بأن يكون لكل تخصص صناعي بنك يدعّم منتجيه برأس المال الضروري، فاتحين المجال أمام الحرية في عقد الاتفاقيات الصّناعية والتجارية. مفرّقين في ذلك كله بين البنوك التي يدعون لإنشائها تحت تحكم الفرنسيين، والتي يحذّرون منها وهي الواقعة تحت تحكّم اليهود أو البروتستانت[2]. فأسسوا البنك الفلاحي الجزائري سنة 1863[3]، مدركين مدى تحكم أصحاب رأس المال في تسيير دواليب الحكم في المجتمع الليبرالي.

اهتم السانسيمونيون بالنقد اهتمامهم بالقرض، وذلك لأن النقد هو العجلة

---

(1) المصدر نفسه، ص 24.

(2) إدوارد هنري كوردي، نابليون الثالث والجزائر.
Edouard Henri Cordier, *Napoléon III et L'Algérie*, Ancienne Imprimerie V. Heintz. Alger, 1937, p22- 23.

(3) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 440.

المحرّكة للتصنيع والأداة الفعّالة لرواج التجارة ورأوا بأن يكون أحسنه من الورق[1].

وكان السانسيمونيون على قناعة راسخة بأن أَوْلى الدّول بممارسة الاحتلال هي تلك المالكة للركائز الثلاثة؛ القوة الدينية، والقوة العلمية، والقوة الصناعية. ولذا كانوا يرون أن أحق الدّول بالتوسّع الاستعماري هي على الترتيب السابق فرنسا وألمانيا وإنجلترا[2].

من خلال ذلك ندرك أن الناظر للفكر السياسي الاقتصادي السانسيموني قد لا يجد تأويلا لنشاطات الأشغال العمومية التي قاموا بها منذ مجيئهم إلى مصر والجزائر إلا حرصهم الشديد على أهمية بعث ثورة في الحياة الاقتصادية، من خلال العمل على استغلال كل الثروات المتاحة والبحث عن المجهول (اكتشاف الصحراء في الجزائر مثلا)، وتوفير الأسباب المتيحة لذلك، فساروا بأفواج من المهندسين والمتطوعين في مصر، وأسسوا فيلقا من الجيش خاصًا بالأشغال العمومية بالجزائر. وأنشأوا الشركات الكبرى، واستغلّوا الثروات فهيّأوا الجسور وعملوا على إنجاز القناة في مصر، وفتحوا الخط الاستراتيجي قسنطينة- تلمسان، بواسطة السكة الحديدية التي امتدّت إلى عنابة أيضا. وربطت الجزائر بوهران، فربطوا بذلك العمالات الثلاثة. ولم يكتف السانسيمونيون بذلك بل ربطوا الجزائر بفرنسا، حيث إنشأوا الخط البحري مرسيليا- الجزائر، وأعلنوا مبدأ الموانيء الحرّة، وتنظيم الجمركة بإلغاء الحواجز ومراقبة السلع الأجنبية[3].

ومن جانب آخر لاحظ السانسيمونيون أنه يستحيل على أي دولة أن تبني اقتصادا سياسيا ما لم يتم تأهيل المجتمع فيكون منتجا، تعتمد عليه كقاعدة

---

(1) كوردي. مصدر سابق. ص 25.

(2) إيميريت. مصدر سابق. ص 25.

(3) كوردي. مصدر سابق. ص215.

اجتماعية، ولذا عملوا على تكوين نخبة من المهندسين والإداريين والأطباء في مصر، وإنشاء مملكة جديدة، مبدؤها الأساسي احترام الكفاءة الفردية بالجزائر. وآمنوا بأن " كل إنسان ميسّر لما خلق له"، حيث يرون أن لكل إنسان كفاءاته وقدراته، ولكل كفاءة نشاطاتها. إلا أنهم يؤمنون بأن هذه الكفاءات تنتقل بذوبان الروح الفردية داخل الجماعة، وبالابتعاد عن الأنانية. وهكذا تتكوّن دولة بالجزائر (كما كان يطمح السانسيمونيون)، تختلف عن سابقاتها وتكون أيضا أرستقراطية لا إقطاعية عسكرية، حيث تشكل مجتمعا جديدا يقوده إداريون أكفاء؟، لا فرق للثروة فيه عند الفلاح أو العامل أو التاجر[1].

وبالنسبة لأوربان فبهذه الأيديولوجية لعبت السانسيمونية دورا كبيرا في صقل فكره وشخصيته، بعد أن اقتنع بأن مستقبله يكمن فيها، باعتبارها نادت بضرورة اختفاء مظاهر الرّق والعبودية، فرأى فيها ميدانا لتجسيد روح التضامن والحب، وهو ما افتقده منذ طفولته. واحترام الإنسانية وتشريفها، ونبذ الأنانية وتفضيل العام على الخاص. فحوّلته من مجرد عبد فاقد للهوية، ومن شاعر ينشد الحب والحنان إلى صاحب قضية ومشروع ناضل من أجله، فارتحل واكتشف، وصمّم على تحقيق قناعاته، وسخّر لها قلمه ونشاطاته، فدفعته للبحث عن الثروة بعد فقر، ونبذ الصّراع بين الشرق والغرب داعيا إلى حوار الحضارات، عاملا على محو العنصرية بين الأسود والأبيض، وبثّ الحب بعد صدام (بين العالَمين)، رافضا سياسة القهر والاضطهاد، إذ كان يرفض القوة كوسيلة للإخضاع، فدعا إلى إخضاع المجتمع الجزائري عن طريق الإدماج ليُمسخ آليا في مقومات المجتمع الفرنسي، محاولا تصحيح مفهوم التمدين الفرنسي للجزائريين ممّا جعله يرفض

---

(1) إيميريت. مصدر سابق. ص 26. ولدراسة ما يتعلق بالمملكة العربية بالجزائر يرجى الاطّلاع على :آني راي غولدزيغر. المملكة العربية

Annie REY-GOLDZEIGUER, Le Royaume Arabe. La Politique Algérienne de Napoléon III 1861 – 1870. SNED. alger. 1977

سيطرة المعمِّر على الأهلي، ويرفض لذلك تطبيق النظام المدني بالجزائر[1]، الذي يعني - عنده - سيطرة المعمِّرين على الأهالي، ولكنه خسر المعركة حين طبّق الفرنسيون النظام المدني فخسرت فرنسا الكثير من المواقع التي كسبتها في ظل تطبيق المشروع السانسيموني.

كما أن ميولاته الأدبية جعلته توّاقا إلى حرية أكبر من تلك التي كانت تحاصرها الرّهبانية المسيحية، فوجد في السانسيمونية خروجا عن تلك الرّهبنة إلى مسيحية حديثة تعمل على إعادة تشكيل العالم في ظل: العمل، الجماعة، الرّوعة، القدسيّة، الخلود، وهي المبادئ التي كان أوربان يحلم بها[2]. ولعله من أجل ذلك أيضا اعتنق الإسلام الذي يرفض الرّهبانية أصلا.

2. أهم قادة التيار السانسيموني:

أ. سان سيمون: 1760 - 1825:

هو كلود هنري دو روفرواي "*Claude-Henri de Rovroy*"، ينحدر من أسرة

---

(1) النظام المدني الفرنسي بالجزائر هو ذلك النظام الذي طبق في الجزائر بداية من 1870 كبديل عن النظام العسكري - الذي بقي سائدا في الجنوب الجزائري إلى غاية 1947 -. وجاءت فرنسا بالنظام المدني لضبط الآليات التي تسهل لها السيطرة على دواليب الحكم في الجزائر وتسييرها تبعا لما يخدم مصالحها بالاعتماد على الأجهزة التالية: المجلس الأعلى للحكومة، النيابات المالية، المجالس العامة، اللجان البلدية. ينظر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية. تاريخ الجزائر من 1830 إلى 1962. قرص مضغوط. 2002.

(2) من تصريح لديشتال أثناء محاكمته في إطار الأزمة السانسيمونية سنة 1832. بـ ميشال لوفالوا. مرجع سابق. ص34 هامش 12. وقد كانت هذه الأزمة حينما شددت السلطات الفرنسية الخناق على حركية السانسيمونيين الذين رأت فيهم الخطر الاشتراكي القادم بعدما دأبوا على نشر أفكارهم وكتبهم لا سيما في "*Le Globe*" وجريدتهم الأساسية آنذاك "المنتج" "*Le Producteur*"، ولعل أكبر المتضررين آنذاك هو أونفونتان الذي خلف سان سيمون على رأس الحركة بعد وفاته سنة 1825. المرجع نفسه.

نبيلة مكوّنة من ثمانية أبناء إضافة إلى الوالدين. ولد في 17 أكتوبر 1760، قضى طفولته في حيوية وعزم، وحاول تأسيس أول لبنة للمذهب الاشتراكي. ولكن أباه رفض ذلك لأنه لم يكن يريد لولده أن يكون بدعا من البشر. واضطر الأب – كعقاب للابن – أن يدخله سجن سان لازار "Saint-Lazare" إلا أن سان سيمون استطاع الفرار من السجن بعد أن انتزع مفاتيحه من الحارس. وظل لاجئا إلى أن احتضنه سقف الأبوة من جديد[1].

دخل سان سيمون سنة 1777، في خدمة الجيش الفرنسي وأصبح بذلك تابعا إلى القطاع العسكري برتبة ضابط، وتوجه سنة 1779 إلى الولايات المتحدة الأمريكية وشارك في حربها التحررية ضد الإنجليز. وذلك في إطار دفاعه عن المستضعفين من جهة، والصراع الفرنسي الإنجليزي من جهة ثانية. وبعد الاستقلال قام بجولة في دول أمريكا اللاتينية واقترح على نائب الملك المكسيكي شق قناة لربط البحرين عن طريق مياه نهر إنبارتيدو، وأطلق على هذه القناة اسم قناة إنبارتيدو. ولكن السلطات المكسيكية لم تأخذ المطلب والمشروع مأخذ الجد فعاد سان سيمون إلى فرنسا[2].

اتجه سان سيمون سنة 1785 إلى هولندا، وقد كان بها القنصل الفرنسي السيد دو لا فوغيون "*De la Vau Guyon*"، وحينها أعدت هولندا بالاشتراك مع فرنسا حملة ضد الهند للقضاء على النفوذ الإنجليزي بالمنطقة. وبفعل حزمه وصرامته جعل قائد الحملة السيد دو بويي "*De Bouillé*" سان سيمون فيها متابعا ومراقبا[3].

---

(1) أعضاء مجلس أونفونتان، أعمال سان سيمون وأونفونتان، *Membres du Conseil Enfantin, Œuvres de Saint-simon et d'Enfantin, 1Vol, E. Dentu, Paris, 1865, P 01 ,02.*

(2) المصدر نفسه، ص 03، 13.

(3) المصدر نفسه، ص 03، 13.

عاد سان سيمون إلى فرنسا سنة 1786 و في السنة الموالية اتجه إلى إسبانيا برفقة الكونت دو كاباروس " *De Cabarrus* " الذي كان آنذاك مديرا لبنك سان شارل، واقترحوا على السلطات الإسبانية شق قناة لربط مدريد بالبحر المتوسط. ولكن السلطات الفرنسية لم تأخذ هي الأخرى الطلب مأخذ الجد، كما أن أحداث الثورة الفرنسية سنة 1789 جعلت سان سيمون يعود إلى فرنسا، مشاركا في أحداث ثورتها. ليس كداع للعنف، وإنما بحكمة الفلاسفة وبنشر الأفكار المنظِّمة للسياسة والمجتمع. وعيّن في نوفمبر 1789 على رأس اللجنة الانتخابية لبلديته فالفي " *Falvy* " للسهر على الانتخابات البلدية[1].

وقد تعرض سان سيمون للسجن مرّة أخرى، وهذه المرة من طرف تيار اليعاقبة الذي مارس الإرهاب الأسود في فرنسا، وذلك نظرا لعلاقة سان سيمون مع سفير بروسيا في فرنسا السيد دو رودارن " *De Redern* ". مما جعل اليعاقبة ينظرون إليه بارتياب، فاعتقله أحد عشر شهرا في سجن سانت بيلاجي ثم باللكسمبورغ. وفي السجن وسّع سان سيمون من معارفه في الشؤون السياسية والعسكرية، والأفكار والنظريات التنظيمية. كما اطلع على الميتافيزيقا والتاريخ القديم للإغريق والرومان. ودرس المالية والاقتصاد وبرع فيهما إلى غاية 1797[2].

قال سان سيمون: "لقد أبعدت سنة 1801 عن المدرسة المتعددة التقنيات، فسجّلت في مدرسة الطب المجاورة لها، وربطت علاقات مع الفيزيولوجيين، ولم افترق معهم إلاّ بعد أن أخذت معرفة دقيقة عن أفكارهم العامة حول الفيزياء والأجسام المنظمة". كما نظم، على حسابه، دروسا لتدريس المواد والبرامج التي تدرّس في المدرسة المتعددة التقنيات من طرف شبان، قال سان سيمون عنهم،

---

(1) أعمال سان سيمون وأونفونتان، مصدر سابق، ص 14.

(2) المصدر نفسه، ص 18.

أنهم من خرّيجيها وأنهم أصبحوا علماء فيما بعد[1].

كان سان سيمون متعلّقا بالعلم والصناعة والتقنيات، ولذا ذهب إلى إنجلترا وألمانيا وربط علاقات مع رجال العلم والآداب والفنون، ولذا كان بحاجة إلى المال فعمل نسّاخا ودعّمه صديقه ديار" *Diard* " بالمال فألف كتابه " مقدمة للأعمال العلمية في القرن التاسع عشر". كما عمل مساعد أمين مكتبة الترسانة " *Arsenal*" لمدة قليلة. وأصدر خلال هذه الفترة وإلى غاية سنة وفاته 1825 مجلة "الصناعة". ومجلة "السياسة" بمعية أوغست كونت، وألف كتاب " المنظِّم " شرح فيه أفكاره في المجال الصناعي. هذا إضافة إلى كثير من المطبوعات بين سنتي 1823 – 1825 آخرها مطبوعة " المسيحية الجديدة " " *Le nouveau christianisme* " التي دعا فيها إلى ضرورة الاهتمام بالطبقة العاملة والقضاء على الملكية الخاصة، وتدخل الدولة في الاقتصاد[2].

ب. غوستاف ديشتال: Gaustave d'Eichthal [3]

يعد غوستاف ديشتال من أهم الشخصيات السانسيمونية الناشطة في الظل، فكان من الذين تعرّضوا للاضطهاد والسجن من الحكومة الفرنسية سنة 1832، ومن بين من فكروا في الالتحاق بمصر. وهو من اكتشف أوربان وأثّر عليه، حيث

---

(1) أعمال سان سيمون وأونفونتان، مصدر سابق، ص 20.

(2) محمود صالح منسي، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفرديناند دي لسيبس، دار الاتحاد العربي للطباعة، مصر، ص 03 وما بعدها.

(3) غوستاف ديشتال من مواليد 1804 من أبوين يهوديين كانا ينتميان إلى مجموعة صغيرة من اليهود القاطنين بباريس، وقد نجحوا في أعمال البنوك والمال. اعتنق الكاثوليكية مع عائلته وهو ابن 13 سنة ودخل مدرسة الصنائع متخصصا في علم الأجناس "الإثنيات". كما اعتنق المذهب السانسيموني على يد أستاذه للرياضيات أوغست كونت وصديقه أوليند رودريغز. ميشال لوفالوا، مرجع سابق، ص 33- 34.

اكتشفه أثناء الأمسية الشعرية في سبتمبر 1832، وتأثر بقوة أسلوبه، وبنظرته لمعالجة قضايا الشرق والغرب، وفيما يخص العرقين الأسود والأبيض. خاصة بعد أن سمع منه قصيدة "دعاء الإنسان الأسود" فطرح ديشتال على أونفونتان ضرورة اجتذابه[1]، وساعدته على ذلك الظروف القاهرة التي كان عليها أوربان، من حرمان وفقر وتشرّد. أما أوربان فقد وجد في ديشتال الأمل في الوصول إلى ما يفتقده، من خلال نفوذ هذا الأخير سواء من حيث العلاقات أو الثروة أو الأسرة.

وباعتبار أن ديشتال كان يهوديا، رأى في نجاح أوربان في مهمته بتقريب الشرق والغرب والقضاء على الرّوح العنصرية استفادة آلية لليهود، فأنزله منه منزلة الأخ، واقترح عليه العمل سويا من أجل الوصول إلى تنظيم المجتمع في ظل مسيحية حديثة تتماشى والمبادئ التي يعمل السانسيمونيون من أجلها، للقضاء على كل مظاهر التهميش أو العنصرية. وهي الحالة التي كان يعيشها أوربان الأسود وديشتال اليهودي، ولذا كان هذا الأخير يصف الاثنين بقوله: "اليهودي والأسود المحرومين"[2]. ووصف أوربان بقوله: "نصفه صديقي، ونصفه زبوني ومريدي"[3]. وكان ديشتال بمثابة الناصح لأوربان فهو مَن سعى له عن طريق الوساطة للتوظيف كمترجم بالجزائر في جيش إفريقيا عند كل من الكولونيل لامورسيير عن طريق أخيه العامل بوزارة الخارجية، وعند شارل بارافي رئيس مصلحة الشؤون الإفريقية بوزارة الحربية[4]، وحتى وإن لم يرض ديشتال باعتناق أوربان الإسلام إلا أنه ذكّره بضرورة حرصه – مع ذلك – على خدمة

---

(1) منسي، المرجع السابق نفسه. ص 33.

(2) رسالة ديشتال إلى أونفونتان. 08 نوفمبر 1832. بالمرجع نفسه. ص 34.

(3) ديشتال. نبذة عن حياتي. مخطوط. 1869. Gaustave d'Eichthal. Note sur ma vie.

(4) ميشال لوفالوا. مرجع سابق. ص 38.

السانسيمونية "إذا كنت قد أصبحت شخصية مشؤومة على قضايا الحياة التي لا تتلاءم مع معطياتك الجديدة (الإسلام)، فلا بد أن تكون مكافحا مثل سان سيمون، وتاجرا متنقلا مثل أونفونتان"[1]. كما أن رسالته التي بعثها إلى أوربان تبقى من أهم النصائح التي شقت الطريق أمام هذا الأخير[2]، وفي كل ذلك كان يذكّره دوما بأنه رجل مشروع وقضية، حينما كان يقول له: "إذا كنتُ أعتبرك رجلا مارقا (بعد إسلامه)، فإنني أعدُّك رجل تحرير"[3]. أما أوربان فقد وصف ديشتال بقوله: "سيبقى المسيطر على قلبي ما حييت". واستمرّت الرّسائل بينهما بصفة منتظمة إلى غاية وفاة ديشتال.

ت. شارل ديفييريي Charles Duveyrier

من مواليد 1805، انظم إلى السانسيمونية سنة 1828. أديب وشاعر وفنان. فرض نفسه في نادي مينيلمونتون حتى لقّب بـ"ملك الموسيقى" و"شاعر الإله". كتب في عدّة صحف من بينها جريدة "العالم" "*Le Monde*" وجريدة "مناقشات" "*Journal des Débats*" وجريدة "الفنان" "*L'Artiste*"[4]. اهتم بأوربان واعتبره "قوة في إحداث السرور والسعادة" شجعه على الذهاب إلى المشرق كسانسيموني مبشر بدين جديد، في إشارة إلى المبادئ السانسيمونية والابتعاد عن الرهبنة. ولكنه كان متخوفا من تأثر أوربان بالحضارة الشرقية ولذا حذّره من الدخول إلى الإسلام مثلما صرّح به: "يجب الانتباه إلى جريمة المروق"[5]. هذه المقولة التي

---

(1) رسالة ديشتال إلى أوربان. 15 أوت 1836. بـ المرجع نفسه. ص 38.

(2) يمكن الاطّلاع على نص الرسالة في مبحث "قدوم أوربان إلى الجزائر ونشاطاته بها" بهذا الفصل.

(3) رسالة ديشتال إلى أوربان. مصدر سابق.

(4) ميشال لوفالوا. مرجع سابق. ص 34 -35.

(5) رسالة ديفييريي الى أوربان. 02 مارس 1833. بـ لوفالوا. المرجع نفسه. ص 35.

ربما تكون قد دفعت بحرّية أوربان إلى المزيد من الاطّلاع على الممنوعات، على رواية كل ممنوع مرغوب. وبعد أن حكم على أوربان بالضلال سعى إلى إقناعه بالعودة إلى فرنسا والعمل معه في المسرح، إلا أن سعيه هذا باء بالفشل كما سبق.

ث. إيميل بارو: Emile Barrault

من مواليد 1788، متخصّص في علم البلاغة ومهتم بشؤون الآداب، انضم سنة 1828 إلى السانسيمونية بباريس. أسّس جمعية أصدقاء المرأة بـ"ليون"، وطلب من أوربان مرافقتهم في رحلتهم إلى الشرق، وهي الرحلة التي قادها في أول فوج من السانسيمونيين إلى مصر. فكان سببا في بث فكرة اكتشاف الشرق عند أوربان، انتقل معه إلى اسطنبول ثم إلى الإسكندرية. وقد عاد إلى باريس وترك صديقه أوربان في مصر مع الأب أونفونتان، فدخلها سنة 1835. لذلك ظل أوربان يعتبره معلّمه الأول، إلى أن اختفى صيته أمام التأثير البليغ لأونفونتان[1].

ج. أونفونتان: Barthélemy Prosper Enfantin[2]

يعتبر أونفونتان من أكبر الناس تأثيرا على السانسيمونين، وهذا ما أهله لخلافة سان سيمون على رأس التنظيم بعد وفاته سنة 1825. وهو مهندس خريج مدرسة الصنائع (المدرسة المتعددة التقنيات) بفرنسا. له قدرة كبيرة على التأثير في نفسيات أتباعه، ولذا نال لقب الأب الروحي للسانسيموني‍ين. كما له قدرات

---

(1) لوفالّوا. المرجع نفسه. ص 35.

(2) من مواليد 1796 دخل السانسيمونية على يد أوليند رودريغز وأصبح الأب الروحي للسانسيمونيين بعد وفاة سان سيمون في 19 ماي 1825، تعرّض للسجن سنة 1832 على إثر أزمة السانسيمونيين وقضى ستة بسجن القديسة بيلاجي "*Ste- Pélagie*". توفي سنة 1864. ينظر: لوفالّوا. المرجع نفسه. ص 35. الهامش 24.

وكفاءة عالية على التنظير والتخطيط. وهو الذي اقترح على أتباعه التوجّه إلى مصر بعد الاصطدام مع الحكومة الفرنسية الذي انتهى به إلى السجن. ولذا كان له تأثير كبير على شخصية أوربان، ويستحق منّا أن نجعله في المقام الأول أو الثاني رفقة ديشتال، ولكننا رأينا تأخير الحديث عنه حتى نحاول أن نلقي بعض الضوء عنه.

تعود معرفة أونفونتان بأوربان إلى الأمسية الشعرية المذكورة في سبتمبر 1832، حين طلب ديشتال من أونفونتان ضرورة التعرّف على الفتى الأسود؛ أوربان، أمّا هذا الأخير فقد أعجب كثيرا بشخصية أونفونتان حين رأى قدرته على إنشاء كنيسة وجذب أتباع لنشر الفهم الجديد للمسيحية وهو ابن السادسة والثلاثين من العمر. أما التعارف الجيّد الحاصل بينهما فكان في نوفمبر 1833 بالقاهرة بمصر، إثر انتقال أونفونتان إلى أتباعه هناك. ولكن هذه الروابط لم تدم على تلك المتانة بعد اعتناق أوربان الإسلام، حيث سخط عليه أونفونتان بالرغم من أن أوربان يعتبره معلمه الأول ولا يكتب اسمه إلا بوضع ثلاثة أسطر تحته[1]. ثم التقيا بقسنطينة في الجزائر سنة 1840، وساهم أوربان كثيرا في العمل الذي كان يعدّه معلمه، حين قدم له الكثير عن منطقة الشاوية وعمّا يتعلّق بالملكية في الجزائر.

وإذا كان ديشتال قد ساهم في توجيه فكر أوربان، وأخرجه من موقع المستضعفين إلى موقع المال والعلاقات والجاه والتمسك بالفكر السانسيموني، فإن أونفونتان كان الناطق الرسمي باسم أتباع سان سيمون، وبالتالي أصبح الأب الروحي لأوربان، كما أن كتابات أونفونتان كانت بمثابة تصورات مغذية لأفكار أوربان خاصة بعد أن التقيا بالجزائر.

---

(1) رسالة أوربان إلى أونفونتان. دمياط في 18 جوان 1835. مصدر سابق. وكذلك ميشال لوفالوا. مرجع سابق. ص 35.

وحريّ بنا أن نلقي بعض الضوء على شخصية أونفونتان، من حيث أثره البالغ وبصماته الواضحة على الوجود السانسيموني بمصر ومشروع الاحتلال الفرنسي للجزائر.

يعود تفكير أونفونتان في مصر بعد الأزمة التي حصلت بين السانسيمونيين والحكومة الفرنسية التي رأت أن تيار السانسيمونيين داعيا إلى الفوضى، وإلى تأليب الرأي العام الفرنسي ضد النظام الملكي، من خلال الأفكار الاشتراكية التي كان يدعو إليها، والتمسك بالحرية وبالاقتصاد الحر، وهو عكس ما كانت تصبو إليه السلطات الفرنسية. فهناك فكر أونفونتان في الالتحاق بمصر لتأكيد كفاءة السانسيمونيين من خلال النجاح في النشاطات الاقتصادية والاستثمارات التي كان محمد علي يريد إقامتها في مصر. كشق قناة السويس وبناء الجسور والسكك الحديدية. وبعد أن قضى عقوبة السجن في فرنسا التحق بأتباعه سنة 1833 الذين كان قد بعثهم إلى هناك سنة من قبل. وكان لأونفونتان في مصر الأثر البارز كما سيمر بنا.

أما معرفة أونفونتان بالجزائر فتعود إلى عهد سابق للاحتلال، إذ أنه التحق بالجزائر في مرحلة شبابه سنة 1816 وامتدت إلى غاية 1821 كمتنقل وكيل للخمر، حيث قام بزيارات ورحلات عديدة قادته إليها، كما دفعته الظروف إلى أن قطن بها، حيث نجده يؤكّد ذلك في رسالته إلى وزير الحربية سنة 1843 حين قال: " إنني أعرف الجزائر التي زرتها ورحلت إليها وقطنت بها خمس سنوات من شبابي "[1].

وكما ذكرنا، فقد التحق أونفونتان بمصر على رأس بعثة فرنسية سنة 1833 وحاول تجريب المشروع السانسيموني ولكنه فشل فيه. وفي هذه الظروف كان قد وقع احتلال الجزائر، وكان أونفونتان مهتما جدا بمشروع الاحتلال، خاصة وأنه

---

(1) إيفر. مصدر سابق. ص 258.

اطّلع على أوضاع الجزائر في فترة التحرّش الاستعماري بعد مؤتمر فيينا سنة 1815، هذا إلى جانب ثقافته باعتباره خرّيج مدرسة "الصنائع". وإذا ربطنا بينه كإنسان مثقّف وبين الأوضاع التي تميّز البحر الأبيض المتوسط وكذا تجربته بمصر ندرك جيدا السبب الذي جعله يعمل على تنفيذ مشروعه الاستعماري، رغم أنه لم يكن أكثر من عضو في اللجنة العلمية لاكتشاف الجزائر التي عيّنته الحكومة الفرنسية بها سنة 1839، من أجل دراسة الإثنيات الجزائرية بصفته مختصّا في هذا العلم.

كما أن تخصّصه هذا قد ساعده للغوص في المجتمع الجزائري خاصة بعد أن تجوّل في قسنطينة التي اهتم بها كثيرا إضافة إلى عنابة ومنطقة الشاوية[1]، وكذا الغرب الجزائري. فدرس -إضافة إلى مجال تخصصه- الأسباب التي يحملها الجزائريون وتجعل منهم عرضة للاستعمار، فتعمّق في دراسة العقار والملكية والعادات والتقاليد والدين بالجزائر، وفي كل ذلك كان يعقد مقارنة بمثيلاتها في فرنسا، مفتّشا عما يجده من ركائز لإرساء الاحتلال الفرنسي في الجزائر على النموذج السانسيموني. فمكث بالجزائر من أجل مهمته هذه حوالي سنتين 1839-1841، حتى اضطر إلى الخروج منها والعودة إلى باريس تحت تأثير الأزمة الصحّيّة التي أجبرته على الانتقال إلى ألمانيا في ربيع 1843.

وقد جمع أونفونتان أفكاره حول الاحتلال وبعث بها على شكل مذكرة إلى وزير الحربية بتاريخ 18 فيفري 1843، معتبرا إياه الشخصية الكفؤة لتحقيقها، وهي الأفكار نفسها التي طورها وجعل منها كتابا مهما سمّاه "استعمار الجزائر" "*Colonisation de l'Algérie*"[2].

---

(1) كان ذلك بقسنطينة التي مكث بها سنة 1840 والتقى بأوربان الذي زوّده بكثير من الألفاظ العربية وبما يستفيد به في إعداد دراسته فيما بعد.

(2) صدر كتاب "استعمار الجزائر" عن مطبعة بيرتراند في باريس سنة 1843 في خمسمائة واثنين وأربعين صفحة (542) من الحجم المتوسط.

جاء هذا الكتاب كله على شكل تنظير ليكون أساسا وقاعدة صلبة لإنشاء الملكية في الجزائر، إذ يَعتبر أن " الملكية في الجزائر هي القاعدة المادية للنمط الاجتماعي"[1]. والمراد منها إخضاع الأرض الجزائرية للاحتلال سواء بتنظيم المهاجرين الأوربيين أو من خلال التحكم في توزيع الأهالي، خاصة وأنه كان غير راض عن السياسة الاستعمارية في هذا المجال منذ الاحتلال وإلى غاية صدور الكتاب[2].

كما رأى أونفونتان أن المشروع الذي جاء به في كتابه هو مشرع بكر في ميدان التنظير الاستعماري، إذ يرى أن الملكية التي يراها، تعد سابقة في العالم أجمع بما فيها فرنسا، وهي موجهة للقضاء على الصنف القديم راجيا أن تكون مفيدة حيث يقول: "إن طريقنا للتملّك جد خاصة على مستوى الكرة الأرضية، وحتى على المستوى الأوربي بما فيه الفرنسي... وهي مفيدة لكل زمان ومكان، ولكل شعب وخاصة لفرنسا... من خلال تحقيق مصالحها، باعتبار أن هذه الملكية تجمع بين السيطرة على العقار والعمل على انتقاله"[3].

ورأى أن الجزائر تعد المكان الملائم لإجراء تجاربه إذ يقول: " الجزائر هي مكان تجربة هذا التنظيم الجديد الذي نريد تحقيقه هنا، ونعمل ما في وسعنا لتحقيقه باستبعاد العقبات التي تقضي على شركاتنا القديمة"[4].

من أجل ذلك، كان أونفونتان يرى أن الحفاظ على الجزائر يتطلب تمكين الإدارة الفرنسية من الحكم وتسيير العمل " ولا بد أن نعمل المستحيل من أجل

---

(1) أونفونتان. استعمار الجزائر. *Enfantin. Colonisation de L'Algérie. Bertrand. Paris. 1843. p43*

(2) المصدر نفسه. ص 75.

(3) المصدر نفسه. ص 109 – 110.

(4) المصدر نفسه. ص 116 – 117.

تأسيس قرى أوربية في الجزائر ونتولى نحن إدارتها"[1]. هذه الإدارة التي لا بد أن تتولى الهدم والبناء في آن واحد، من خلال الجمع بين عمليتي إنشاء المستوطنات العسكرية ومباشرتها بالمستوطنات المدنية، على أن يتم الاعتماد على عوامل مساعدة خاصة تلك المتعلّقة بتغيير عادات الأهالي، وتغيير القانون الفرنسي وتثقيف الأهالي والعمل على رفع مستوى تمدّنهم، أو التقدّم كما يسمّيه أونفونتان، بشرط أن تكون -حسبه- دائما هذه العوامل في خدمة المشروع الاستعماري الدّاعي إليه. هذا إضافة إلى لزوم الترخيص بإنشاء الملكية الفردية وإجراءات نقل الملكية التي يريدها لبناء مجتمع أوربي استيطاني دخيل تحت مظلة الاستعمار الفرنسي. هذا المجتمع الذي تمكّن له فرنسا عن طريق الهجرة، التي رأى أن تكون أوربية وخاصّة من الألمان والإيرلنديين، في حين لا بد أن يكون الاستعمار أوربيا.

كما رأى أونفونتان أن كل التضحيات المبذولة تسعى لتحقيق هدف سامٍ هو الاستعمار، خاصة وأن الجزائر قد عرفت شعوبا مختلفة من رومان ووندال وعرب. وكان يريد من خلال ذلك تبرير الوجود الفرنسي في الجزائر، خاصة حين يرى، زاعما، أن الوندال قد تركوا بصماتهم، وامتزجوا مع السكان الأصليين واندمجوا معهم مثلهم مثل العرب. وبالتالي فهو يبرر الاستيطان الذي يسعى لبسطه، خاصة حين يؤكّد ضرورة السير في الاحتلال من الشرق إلى الغرب أسوة بالسابقين[2]، ويعني بصفة خاصة العرب الفاتحين. ويجعل لذلك طريقا استراتيجيا على امتداد قسنطينة – تلمسان، الذي لا بد أن يحتل عسكريا مع فتح المجال للمستوطنات المدنية على الساحل.

هذه المستوطنات التي رأى أونفونتان أن تكون من الشعوب الأوروبية حيث

---

(1) المصدر نفسه، ص 133.

(2) المصدر نفسه، ص 199 - 206.

قال: "... في هذا الإطار، إن أحسن ما أجده هو تلك الفكرة الرائعة للسيد "سان مارك جيراردين" "*Saint-marc Girardin*"، في مجلة العالَمَيْن والقائلة أن احتلال الجزائر لابد أن يكون أوربيا، مسيحيا، وليس فرنسيا بالخصوص، على أن يتم ذلك كله تحت السيطرة الفرنسية"[1]. ومفاد فكرته هذه أن تكون الهجرة إلى الجزائر أوربية، بينما الاحتلال فرنسي.

وقد بيّن أوربان أن تنظيم المجتمع الأهلي لن يقتصر على الجزائريين، وإنما لابد أن يكون هجينا بين الأفارقة والمسلمين. وأن يكون الرأس فرنسيا وأطراف الجسد فرنسية، أما الاحتلال فلابد أن يكون برأس فرنسي وجسد أوربي[2]. في إشارة إلى أن تكون سيطرة فرنسا مطلقة من خلال التحكم في الاحتلال، سواء من خلال بناء المستوطنات (الأجساد الأوربية)، أو من خلال بث العملاء في الجسد الجزائري.

3. التواجد السانسيموني في مصر:

يعود تفكير السانسيمونيين في الالتحاق بمصر إلى سنة 1832 على إثر الأزمة السانسيمونية التي حلّت بهم خلال تلك السنة. والتي كانت بسبب تشديد السلطات الفرنسية الخناق على حركيتهم بعد أن رأت فيهم الخطر الاشتراكي القادم. سيما بعدما دأبوا على نشر كتبهم وأفكارهم في جرائدهم الأساسية آنذاك وعلى رأسها جريدتا "الكون" "*Le Globe*" و "المنتج" "*Le Producteur*"[3].

كان أونفونتان قد خلف سان سيمون على رأس الحركة على إثر وفاة الأخير

---

(1) المصدر نفسه. ص 370.

(2) المصدر نفسه. ص 370.

(3) ميشال لوفالّوا. مرجع سابق. ص34 هامش 12. للمزيد من التوسع حول الجريدتين وخاصة جريدة " المنتج" يرجى العودة إلى: أعضاء مجلس أونفونتان، أعمال سان سيمون وأونفونتان، *Membres du Conseil Enfantin, Œuvres de Saint-simon et d'Enfantin, 1Vol, E. Dentu, Paris, 1865, P 182 – 184.*

سنة 1825. ولذا كان رفقة كبار الحركة من أمثال ديشتال، وميشال شوفالييه، هم أكبر المتضررين من هذه المضايقات، حيث تعرضوا للمحاكمة، وسجنوا، وأهينوا، ووضعوا في موقف حرج أمام الشعب على أنهم دعاة فوضى. بل وحتى تيار اليعاقبة كان يترصّد نشاطهم بفرنسا ما بعد ثورة 1789.

قرر منظرو التيار السانسيموني الالتحاق بمصر " باعتبارها أهم أجزاء إفريقيا يمر بها المسلمون من مختلف أنحاء القارة في طريقهم إلى الأماكن المقدسة، كما تقع في أكثر الجهات ملاءمة لتسيير الحملات منها إلى مختلف الجهات ولدى أهلها استعداد لتذوق العلوم والمعارف"[1]. وكذلك لوجود الكثير من الفرنسيين على رؤوس إدارة المؤسسات المصرية خاصة على عهد محمد علي، الذي تعاون مع الفرنسيين والإنجليز على الخصوص. وبذلك ففي مصر المناخ الخصب لممارسة السانسيمونيين أفكارهم معتمدين على تدعيم الحكومة الفرنسية لهم، باعتبار أنهم آلية نفوذ فرنسي بمصر في مواجهة الإنجليز.

عملت الحكومة الفرنسية على تسهيل انتقال السانسيمونيين إلى مصر، وتكفلت بدفع ثمن السفن التي تنقلهم إذا عجز هؤلاء عن تسديد حقوق انتقالهم، وأمرت قنصلها بمصر السيد ميمو "*Mimaut*"، وكان مستشارا لدى السانسيمونيين، بالتدخل لدى محمد علي، للسماح للسانسيمونيين بالاستقرار بمصر. خاصة وأن محمد علي كان ينظر إليهم بعين الريبة، بفعل موقف الحكومة المصرية، وبفعل موقف السلطان العثماني، حين استقر الفوج الثاني منهم بالأستانة في أفريل 1833. فرغم الارتياح الذي أبداه تجاههم إلاّ أنه أشار عليهم بمواصلة مسيرتهم إلى مصر.

بعث أونفونتان الفوج الأول من أتباعه إلى مصر في 07 أفريل 1833 على سفينة نمساوية ودخلوا مصر مع نهاية الشهر. وضم هذا الفوج: السادة كايول

---

(1) منسي، مرجع سابق، ص 18.

"*Cayol*"، و بانتييه "*Pantier*"، وجيرمين "*Germain*"، وفليشي "*Flichy*"، واستقروا بادئ الأمر عند أحد الرعايا الفرنسيين وهو السيد كافيليا "*Caviglia*" قبل أن يكون لهم مقر للاجتماع ونشر أفكارهم.

أما الفوج الثاني فقد غادر فرنسا باتجاه مصر، على سفينة لاكلوريند "*La Clorinde*" ودخلها بتاريخ 24 ماي 1833، وقد ضم: بارو، أوربان، جرانال "*Granal*"، ريغو "*Rigaud*"، كونيا "*Cogniat*"، ديشارم "*Descharmes*"، براكس "*Prax*"، دافيد "*David*"، ألريك "*Alric*"، تورنو "*Tourneux*"، طوشيه "*Toché*"، كارولوس "*Carolus*"، جيستوس "*Justus*". أما أونفونتان فقد لحق بأتباعه بعد أن قضى عقوبة السجن، ونزل بمصر في 23 أكتوبر 1833.

4. قناة السويس على رأس مشاريع السانسيمونيين:

لم يكن مشروع شق قناة السويس آنذاك حديث الطرح، فقد طرحته الأسر الفرعونية الحاكمة في مصر منذ القدم، وحاولوا إيصال نهر النيل المقدس عندهم بالبحر. كما فكرت فرنسا في نهاية القرن السادس عشر في فتح ممر بحري (برزخا) يربط البحرين الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر من أجل اتخاذه طريقا لتجارتها إلى الهند والهند الشرقية، منافسة بذلك إنجلترا وإسبانيا وهولندا والبرتغال في الوصول إلى جزر المحيط الهندي[1]. وحاول علماء الحملة الفرنسية على مصر 1798-1801، شق القناة، ووضع لها السيد غراتيان لوبير الدراسات التي تمكنهم من ذلك[2]. كما أن سان سيمون اهتم بهذا الجانب من أجل توفير مجال الحركية التجارية، فطلب من الرئيس المكسيكي السماح له بشق قناة أنبارتيدو بالمكسيك، كما طلب من السلطات الإسبانية السماح له بشق قناة

---

(1) إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العيكان، ط1، 1997، ص187.

(2) جراتيان لوبير، دراسة موجزة عن الجزء الغربي من ولاية البحيرة والذي كان يعرف قديما باسم إقليم المريوطية. (جولة في إقليم المريوطية)، موسوعة وصف مصر، مج2. ص17-40.

تربط مدينة مدريد بالبحر المتوسط. كما فكر سان سيمون في شق قناة لربط نهر الدانوب بنهر الراين، وقناة أخرى لربط نهر الراين ببحر البلطيق. إضافة إلى التفكير في شق قناة لربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر. وهي قناة السويس التي التحق أتباعه - بعد وفاته - إلى تحقيقها وإهدائها لروحه[1].

وبذلك كان المشروع الأساسي للسانسيمونيين في مصر هو شق قناة السويس، بل ومن أجلها ذهبوا إلى هناك. حيث جعلوها على رأس اهتمامات سياستهم الاقتصادية، رغبة منهم في فتح المجال أمام التصنيع. باعتبار أهمية القناة للنشاط التجاري، والاحتياج إلى مراكز التموين والتسويق، مما يفتح المجال واسعا أمام حركة المواصلات وشق طرق السكة الحديدية.

كان السانسيمونيون يدركون جيدا نظرة الريبة التي ينظر بها إليهم محمد علي، ومصممين على تغيير النظرة الفرنسية الرسمية والشعبية إلى تيارهم، حتى يعودون إلى فرنسا مرفوعي الرؤوس. فربطوا علاقات طيبة مع كبار المسؤولين مثل القنصل ميمو، ونائبه ديلسبس، والسيد جيل "*Jule*"، وطمأنوا محمد علي، وأرضوا السلطات الإنجليزية بأن مشروع شق قناة السويس الذي جاءوا من أجله، لم يكن أبدا من أجل بسط النفوذ الفرنسي في مصر. ولذا دعوا إلى تدويل المشروع حتى لا تستفيد منه دولة واحدة، وهم متخوفون في ذلك من إنجلترا[2].

بعد تدخل القنصل الفرنسي ميمو لدى محمد علي، تدخل دي ليسبس - بصفته نائبا للقنصل الفرنسي بمصر، ولم يكن على صلة فكرية بالتيار السانسيموني - وأقنع محمد علي ببقاء السانسيمونيين بأرض مصر. متعهدا له بأنه

---

(1) منسي، مرجع سابق، ص 17.

(2) أوربان، رحلة الشرق،

Ismayl Urbain. Voyage d'Orient, suivi de Poèmes Ménilmontant et d'Egypte, l'Harmattan, 1993, p 57

في حالة تسببهم في أي مشكل فسيكون مصيرهم الطرد الرسمي. وقد استمرت هذه المحاولات إلى غاية 18 ديسمبر 1833[1].

كان لمحمد علي جملة مشاريع يريد المفاضلة بينها تبعا للأولويات من أجل إنجازها بمصر، حيث كان له مشروع لبناء الجسور، وآخر لشق سكة حديد القاهرة - السويس - الإسكندرية، ومشروع ثالث وهو الذي طرحه السانسيمونيون من أجل شق قناة السويس. وبعد أن اقتنع محمد علي ببقاء السانسيمونيين بمصر، جلس إليه القنصل ميمو والسانسيموني فورنال[2]، بتاريخ 13 جانفي 1834، فعرض عليهما المشروع الذي كان قد عرضه على إنجلترا طالبا منها تزويده بمهندس من أجل شق سكة حديد القاهرة -السويس- الإسكندرية[3]، مستفسرا عن احتياجات المشروع وعن مدة إنجازه. فرد فورنال بأنه هو من يقوم بذلك في مدة 24 ساعة. وفعلا عمل رفقة ألريك نموذجا للقطار وقدمه في اليوم الموالي لمحمد علي، الذي ورغم إعجابه بالنموذج، والمقترحات، إلاّ أنه لم يتخذ قرارا جديدا[4]. وذلك بفعل الضغوطات الكبيرة التي تعرض لها من طرف الإنجليز ممثلين في المهندسين غالواي "*Galloway*"، وكوكين "*Kekin*"، ووالاس "*Wallace*"[5]، حيث أبقى على مشروع السكة الحديدية للمهندس الإنجليزي غالواي، وقرر انطلاق الأشغال في مشروع بناء الجسور. وذلك رغم محاولات فورنال -كما جاء في مذكراته- أن: " يقنع الوالي بالبدء في مشروع القناة، ودعوة

---

(1) منسي، المرجع نفسه، ص 44 - 49.

(2) كان السيد فورنال من كبار السانسيمونيين، وكان مكلفا بالتمهيد للمشاريع السانسيمونية والتفاوض من أجل قبول محمد علي بتطبيق برنامجهم وإنجاحه.

(3) إيمبريت، السانسيمونيون في الجزائر، ص 53.

(4) أوربان، رحلة الشرق، مصدر سابق، ص 57. ومنسي، مرجع سابق، ص 52.

(5) إيمبريت، ص 54.

الدول التي يهمها الأمر للقيام بالأبحاث اللازمة، على أن يقدم محمد علي الأيدي العاملة التي تشتغل تحت إشراف مهندسين أوربيين"[1]. هذا القرار السلبي بالنسبة لفورنال جعله يفشل ويقرر العودة إلى فرنسا. لأنه لا بقاء للسانسيمونيين في مصر دون نجاح مشروع شق قناة السويس. مما جعل أونفونتان الواثق من أهمية بقاء فورنال بمصر وكذلك القنصل ميمو يتدخلان لدى محمد علي لمنح إدارة المناجم في سوريا لفورنال مقابل 1200 فرنك فرنسي سنويا، وهو المبلغ الذي رفضه المعني مشترطا مبلغا لا يقل عن 24 ألف فرنك فرنسي[2].

5. السانسيمونيون وبناء الجسور:

في إطار الإرادة والرغبة التي كانت تحذو السانسيمونيين في الوصول إلى مبتغاهم وهو الظفر بمشروع شق قناة السويس، قرروا المشاركة في المشاريع الأخرى، وكانت الانطلاقة من المشروع الذي قرر محمد علي الانطلاق فيه، وهو مشروع بناء الجسور، الذي كان منحه إلى المهندس الفرنسي لينان. محاولين جلب الانتباه إليهم من خلال إرضاء محمد علي بالمشاركة في المشاريع وجعل أنفسهم أداة لبناء الاقتصاد المصري، وعلى كفاءات مهندسيهم العالية، وهم خريجو المدرسة المتعددة التقنيات بفرنسا.

كانت البداية من المهندس أونفونتان الذي أعد خطوات العمل، والمهندس لومبير الذي جعل نفسه تحت التصرف، وأرسل أونفونتان عن طريق دوغي "*Duguet*" في جوان 1834 في طلب المدد من المهندسين للاشتراك بقوة في هذا المشروع، فوصل لاشيز "*La Chèze*" وهو طبيب، وديمولار "*Dumolard*" الحداد، والميكانيكي ألكسندر "*Alexandre*". فيما عاد براكس من الأستانة، وأوار وبرنو من فرنسا. كما وصلت في 14 ديسمبر 1834 الآنسة سوزان دي فوالكان

---

(1) منسي، مرجع سابق، ص 53.

(2) المرجع نفسه، ص 54.

"Suzanne de voilquin" برفقة المهندس دروّو "Drouot" المختص في المناجم، وغوندري " Gondriet " المختص في الكيمياء[1]، وقد كان السانسيمونيون في كل ذلك يعيشون معيشة البدو الرحل، على لسان أوربان، حيث كانوا يعيشون على قليل من الأموال، باعتبار أنهم متطوعون في مشروع بناء الجسور، وينامون داخل الخيام تأتيهم مؤونتهم وطعامهم[2].

قرر محمد علي سنة 1835 توقيف مشروع بناء الجسور بسبب نقص في خطط الإعداد وكذلك بسبب انتشار وباء الطاعون، وقد راح ضحية وباء الطاعون هذا، كثير من السانسيمونيين وأولهم الطبيب فورساد "Fourçade" في فيفري 1835، وكان يمارس مهامه بمستشفى أبي زعبل، وبسكو دي دومبال الذي أراد تطبيق المزرعة النموذجية والمثّال ألريك في 09 أفريل 1835، كما لحق بهم المهندس لامي في 10 ماي ، ثم مارشال و غوندري، وديمولار وآوار في 12 أكتوبر 1835 الذي ترك أثرا كبيرا في نفوس زملائه السانسيمونيين. وربما كان آخرهم أوليفيه في 09 ماي 1836. في حين غادر جول سونّيرا "Jules Sonnerat"، وماسول، ورروجيه، وأونفونتان، مصر سنة 1836، وكذلك توماس أوربان الذي عاد إلى فرنسا مسلما حاملا اسم "إسماعيل"، فيما أسلم ماشيرو وحول اسمه إلى محمد أفندي وتزوج من امرأة مسلمة أنجب منها أربع فتيات سمّاهنّ كلّهن بأسماء عربية[3].

وتشير المصادر إلى أن عدد السانسيمونيين الذين التحقوا بمصر بين 1833 – 1836، كان 55 شخصا، توفي منهم 15 شخصا، وعاد منهم 20 شخصا إلى فرنسا وبقي 05 منهم في مصر، فيما لم تذكر القائمة مصير الباقين.

---

(1) المرجع نفسه، ص 58 ، 59. ولسوزان كتاب تحت عنوان ذكريات فتاة شعبية، أو الفتاة السانسيمونية بمصر 1834 – 1836.

(2) أوربان، رحلة الشرق، مصدر سابق، ص 57.

(3) منسي، مرجع سابق، ص 70 – 72.

6. نشاط السانسيمونيين في التعليم:

آمن السانسيمونيون بالعلم والصناعة كما عرفنا، وكان أغلبهم مهندسون، من خريجي المدرسة المتعددة التقنيات بفرنسا. ولذلك جعلوا من أولوياتهم تكوين المهندسين بمصر، من أجل إقامة اقتصاد مصري أساسه الهندسة المدنية والعسكرية، والأشغال العمومية، والتصنيع. وما يتطلب ذلك من شق الطرق البرية، والسكك الحديدية، والملاحة البحرية. وتوفير المعادن بالتنقيب والمناجم... وكل ذلك لابد أن يكون لمصر متخصصون فيه.

من أجل ذلك اقترح أونفونتان على لينان في 09 مارس 1834 إنشاء مدرسة لتكوين المهندسين في منطقة القناطر (الجسور)، ونقل إليها تلاميذ القصر العيني (أبناء الأسرة الحاكمة) وعيّن محمد بيومي أفندي[1] مدرسا لهم، معوضا بذلك المهندس الإنجليزي الذي كان يدرس بها منذ تأسيسها[2].

بعد توقف مشروع لينان بسبب نقص التخطيط وانتشار مرض الطاعون، قرر محمد علي ضم مدرسة المهندسين هذه إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق سنة 1836.

أصبحت مدرسة المهندسخانة أو المدرسة المتعددة التقنيات هذه، مدرسة لتخريج الطبقة الحاكمة، فمن درس بها لابد أن يكون يوما حاكما لبلاد مصر، كما استنتج الشيخ علي مبارك، حين فرّ من الكتاتيب ليصبح كاتبا صغيرا في هرم السلطة عند المماليك في مكتب عنبر أفندي، وحين خبر الأمر، علم أن هؤلاء الحكام قد درسوا في مدرسة القصر العيني[3]. وهي المدرسة التي نقل محمد

---

(1) محمد بيومي أفندي هو السانسيموني الفرنسي ماشيرو بعد إسلامه. وهو مهندس خريج المدرسة المتعددة التقنيات بفرنسا.

(2) منسي، مرجع سابق، ص 64.

(3) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت. ص187.

علي تلاميذها إلى مدرسة المهندسخانة كما مرّ بنا.

كانت مدرسة المهندسين خلال فترتها الأولى ذات طبيعة عسكرية صارمة، لتكوين تلاميذها على التقشف والتمرّن على الصعاب، حيث كان المستوى التعليمي بها دون طموحات علي مبارك ابن الثانية عشر من عمره، وصاحب المستوى الدراسي البسيط. ففراش تلاميذها كان الحصير، وأكلها كان أدنى من الجبن والزيتون الذي كان علي مبارك يشتريهما من ماله الخاص مفضلا إياهما عن طعامها... ولذا تعرّض خلال فترة دراسته بها إلى مرض الجرب بسبب قلة النظافة.

كانت المدرسة تفرض على من دخلها عدم الخروج منها حتى يتمّ دراسته بها ثم تسعى إلى توظيفه في دواليب الحكم، وإلاّ فمصيره ومصير أسرته التنكيل والعقاب. ولكن علي مبارك استطاع الخروج منها إلى مدرسة أبي زعبل لتعلم الطب، وهو التخصص الذي تخلّت عنه مدرسة المهندسخانة. وهي في الحقيقة مجرد حيلة فقط استعملها علي مبارك للخروج من مدرسته تلك. لأنه واصل دراسة الهندسة في المدرسة الطبية. قبل أن يعود إلى المهندسخانة كمتفوق في الهندسة، ويرسله محمد علي إلى فرنسا في بعثة علمية[1].

كما أقدم أونفونتان على تنظيم التعليم في مصر – وفق ما يراه طبعا –، فقدم مقترحا إلى نائب محمد علي السيد سليمان باشا[2]، مقترحا إنشاء مجلس للتعليم العام، ولجنة استشارية للعلوم والفنون. وسار محمد علي في هذا المقترح و جعل على رأس المجلس العام السيد مصطفى مختار باشا، وعضوية كل من

---

(1) أحمد أمين، المرجع نفسه، ص 188. وما بعدها.

(2) سليمان باشا هو العقيد الفرنسي السيد ساف "*Sève*" تجنس بالجنسية التركية وتقلّد منصب نائب الباشا بمصر ثم أصبح هو نفسه الباشا إلى غاية 1850. ينظر، أوربان، رحلة الشرق، ص 45، هـ/24.

رفاعة الطهطاوي، ولامبير، وكلوت باشا، وحكيكيان أفندي، ومحمد بيومي أفندي... للنظر في أمور المدارس وتنظيمها. وبعد استكمال مهمته خلفه مجلس المدارس للبحث في المحتويات والمناهج[1].

كما أمر محمد علي بتأسيس مدرسة المعادن سنة 1834 وجعل على رأس إدارتها السيد لامبير المتخصص في التعدين والمناجم. قبل أن يأمر سنة 1836 بإلحاقها رفقة مدرسة المهندسين بمدرسة المهندسخانة أو المدرسة المتعددة التقنيات ببولاق، التي جعل على إدارتها السيد لامبير. كما أعدّ لامبير وأونفونتان مقترحات من أجل تطوير هذه المدرسة لتضاهي المدارس الأوربية وعلى رأسها المدرسة المتعددة التقنيات بفرنسا[2].

كما أن التعليم الذي أقامته مصر تحت صبغة سانسيمونية، وأشرف عليه محمد علي كان تعليما عسكريا في خدمة الجيش، " فالمدارس الحربية لتخريجه (الجيش)، ومدرسة الطب لتطبيبه، والهندسة لتصميماته، والمدارس الصناعية لإمداده، والبعثات لسد حاجاته، فإن جاءت من كل ذلك فائدة فبالتبع لا بالقصد، حتى إن المدارس كانت ثكنات عسكرية في نظامها ومأكلها وملبسها، ورتب المعلمين والنظّار والمديرين رتب عسكرية... وكل أنواع التعليم على هذا الوجه في القاهرة والإسكندرية فقط، أما المدن الأخرى والأرياف فليس لها حظ من هذا التعليم"[3].

ورغم عودة كبار السانسيمونيين إلى فرنسا ووفاة كثير ممن كانوا بمصر، إلا أن مشروعهم التعليمي بقي مستمرا عن طريق من بقوا هناك. فهذا توماس أوربان وغرانال يتوليان تعليم اللغة الفرنسية في مدرسة دمياط والخانكة الذين أسسهما

(1) منسي، مرجع سابق، ص 65.

(2) المرجع نفسه، ص 66.

(3) أحمد أمين، مرجع سابق، ص 193، 194.

السانسيمونيون، وهذا لامبير ، وهو على رأس إدارة المدرسة، يتولى تدريس أربعة تلاميذ عادوا من فرنسا دون إكمال دراستهم، فكان يدرّسهم ساعتين يوميا، ثم تم تعيينهم كمدرسين بنفس المدرسة[1].

كان لامبير إذا مديرا ومدرسا في الوقت نفسه، فقد كان يدرس مواد الطبيعيات، والكيمياء ورسم الخرائط، وتعريب كثير من كتب الرياضيات. أما الطلبة فقد اجتذبوا إلى هذه المدرسة لاتباع لامبير سياسة التوسط لهم من أجل توظيفهم في دواليب السلطة، وكان الهدف من ذلك هو تكوين فئة مصرية مثقفة على الطريقة الفرنسية تحكم البلاد وتكون قادرة على النهوض بالاقتصاد المصري. كما تولى تنظيم التعليم سنة 1841 بفعل نتائج العلاقات المصرية العثمانية، رفقة سليمان باشا، وبيرون "*Pirron*"، ورفاعة الطهطاوي، تلبية لمشروع إبراهيم باشا سنة 1848. وكان نشاطه هذا إلى غاية استقالته من على رأس المدرسة سنة 1849، وخلفه علي مبارك[2].

وفي النشاط التعليمي الفلاحي، حاول السانسيمونيون وعلى رأسهم، طوشي، وبوفور "*Beaufort*"، ولامي "*Lamy*"، والسيدة كلوريند " *Clorinde* "وأوليفييه " *Olivier* " سنة 1834، توجيه الفلاحة. وبعثوا بالسيدين دوغي " *Duguet* "، و بوتي " *Petit* " إلى فرنسا من أجل الترويج لهذه النشاطات واستقدام الراغبين فيها إلى مصر. كما دعوا إلى اتباع الطرق العلمية الحديثة، فأنشأوا المدرسة الزراعية بنبروة سنة 1836، ثم أمر محمد علي بنقلها سنة 1839 إلى مدينة شبرا. ودعا هؤلاء إلى متابعة النشاطات الفلاحية والمالية[3]. مقلّدين في ذلك مدرسة روفيل بفرنسا، ولذا أنشأوا المزرعة النموذجية ونادوا بتحسين

(1) منسي، مرجع سابق، ص66.
(2) المرجع نفسه، ص 66.
(3) أوربان، رحلة الشرق، مصدر سابق، ص 54.

سلالات الحيوانات، وتهجين أصناف أخرى، وتوجيه الحليب ومشتقاته إلى التصنيع، والاهتمام بدودة القز وإنتاج الحرير، وصناعة القطن[1] الذي تولاّه بصفة خاصة السيد هاردي " *Hardi* " مستفيدا من دعم محمد علي[2].

كما أسس السانسيمونيون مدرسة أبي زعبل للطبّ بمدينة قنقا بمصر، والتي تولى تأسيسها وإدارتها السيد كلو " *Clot* "، وهي المدرسة التي درس بها شيوخ من أبناء مصر مثل الشيخ علي مبارك[3]. ومدرسة البيطرة من طرف السيد آمون " *Hamont* "، الذي أسسها وأدارها هو الآخر[4].

(1) منسي، مرجع سابق، ص 69.

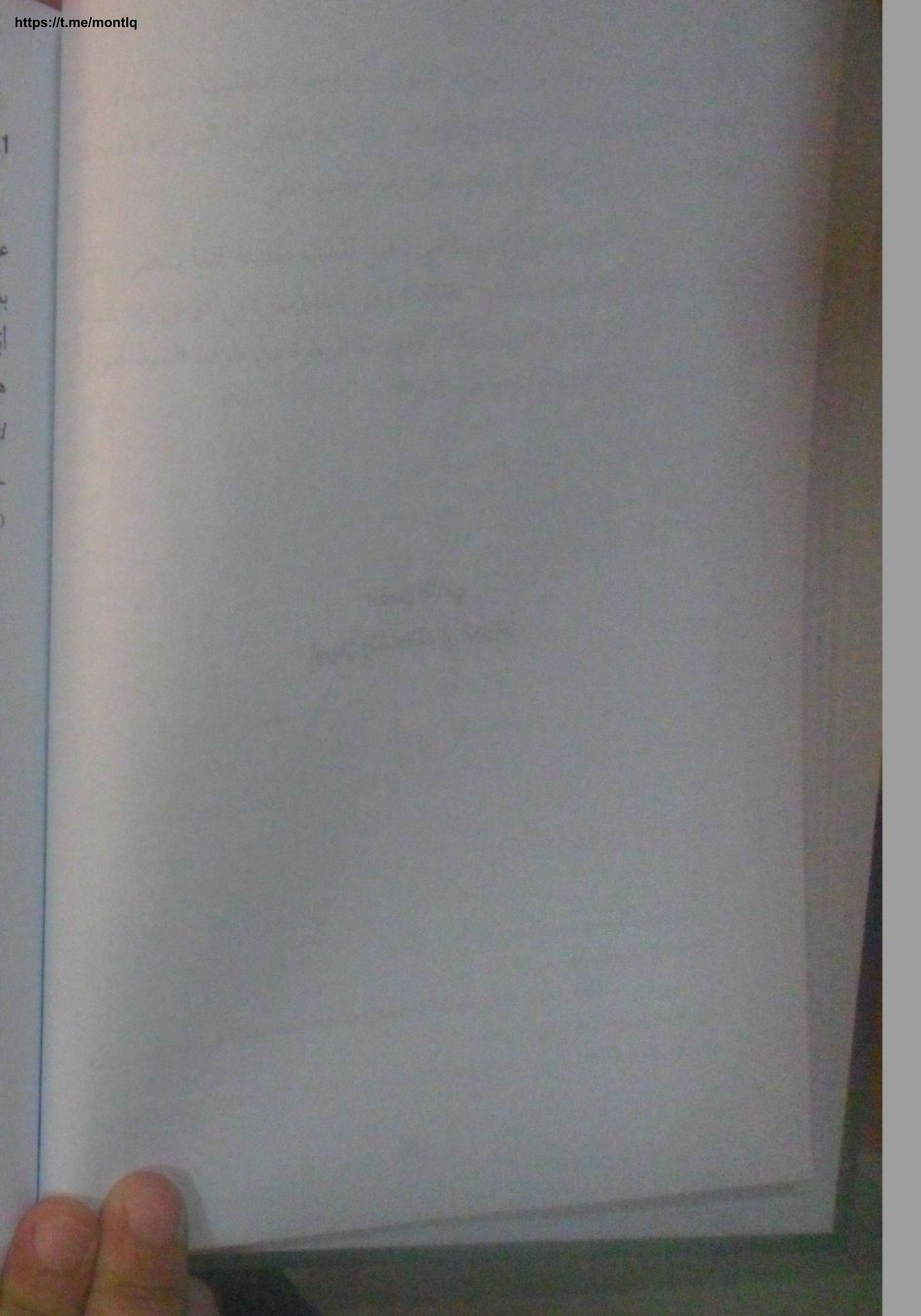
(2) *F. Ribourt , Le Gouvernement de l'Algérie 1852 – 1858, Paris, 1859.*

(3) أحمد أمين، مرجع سابق، ص 189.

(4) أوربان، رحلة الشرق، مصدر سابق، ص 67.

الفصل الثاني

أوربان ونشاطاته في الجزائر



1. النّشأة:

وُلد توماس (إسماعيل) أوربان *Thomas Ismayl Urbain*[1] بمدينة كايان عاصمة غويانا بتاريخ 31 ديسمبر 1812 م، من الأب أوربان برو *Urbain Brue*، بحّار وتاجر سمسار في تجارة الرّقيق ينحدر من مرسيليا، ومتزوّج بها، ومن الأم أبولين *Appoline* وهي أَمَةٌ بنت أَمَةٍ، حيث إن أمها لويز سيفرين *Louise Séverin* هي الأخرى مولّدة أعتقت سنة 1793 م من قبل زوجها فرانسوا لومون *François Lhomond*[2] [3]، على عادة النّاس آنذاك.

---

(1) يؤكّد أوربان ذلك حين يقول في بداية قصيدته : "في مرآة الأب" "*Au miroir du père*":

اسمي توماس أوربان

ولدت في كايان

لأب أبيض وفتاة ملوّنة.

ويقول في مقطع آخر من هذه القصيدة: أنا الابن الشرعي:

للسيد أوربان برو

يجب أن أكون طبيبا أو تاجرا.

للاطّلاع على القصيدة كاملة يُنظر : للاطلاع على القصيدة كاملة ينظر: توماس أوربان، رحلة الشرق، مصدر سابق، ص 245، 246.

كما يُراجع أيضا ما كتب احميدة عميراوي في المبحث الذي خصّصه لإسماعيل أوربان بكتابه : دراسات في تاريخ الجزائر الحديث. دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. ط2. 2004. تحت عنوان: " إسماعيل عربان والسياسة الفرنسية في الجزائر. ص 119- 134. ولمّا كنت قد تتلمذت على يد الأستاذ عميراوي حينما كنت طالبا بجامعة قسنطينة، ثم علم بأنني أشتغل حول إسماعيل أوربان أهدى لي الكتاب المذكور بتاريخ 05 ديسمبر 2004 بالأبيار. فجزاه الله خيرا ونفع بعلمه الأمّة.

(2) ميشال لوفالّوا. إسماعيل أوربان (1812 – 1884). احتلال آخر للجزائر.

Michel Levallois. Ismayl Urbain (1812 -1884) Une autre conquête de L'Algérie. Maisonneuve et Larose. Paris 2001. p 31 – 32.

(3) كان فرانسوا لومون مزارعا مقيما بكايان، عاش على الخياطة، إلى أن غادر غويانا سنة 1791، أنجب من لويز بنتين هما "مادلين" و" أبولين" والتي هي أم توماس. ينظر :المرجع نفسه. ص31-32.

عاش توماس حياة ملؤها الفقر والشقاء، وأوّل ما عاناه مشكلة النّسب، حيث كان عديم اللقب، إذ نُسب أول مرة لأمه، ولذا كانت وثائقه بالحالة المدنية تثبت توماس أبولين، باعتبار أن أباه عمل طول حياته لتبقى أبوّته مجهولة حتى من أقربائه. فعمل على تزوير وثائقه على أساس أنه ابن "جون بابتيست أوربان *Jean Baptiste Urbain*، زوج أبولّين سيفرين *Apolline Séverin*[1] الذي كان يعمل نجّارا.

هذه الوضعية تجاه الحالة المدنية جعلت توماس يعيش أزمة هوية حقيقية أدت به إلى إخفاء ذلك عن السلطات العسكرية، ولم يستعمل أوراقه في هذا الإطار أبدا[2]، إلى أن وصل إلى حل لها بشِقِّ النفس إثر عودته إلى مرسيليا من مصر سنة 1836 م، وهو يجسّد هذه الحسرة في زفراته حين قال: "لا أريد أن أحمل اسم برو"[3].

درس توماس بمرسيليا وحصل منها على شهادة الثانوية، والتحق بكلية الطب. وفي كل ذلك كان أبوه برو يرعاه ويتكفل بمصاريفه، إلا أن التحوّلات السياسية بفرنسا سنة 1830 وسقوط الملك شارل العاشر، جعلت والده يطلب منه العودة إلى كايان، فالتحق بها بسبب الظروف المذكورة، وبسبب عدم ارتياحه بالوسط الدراسي في ظل النظرة العنصرية الطاعنة في شخصه، إلا أن مكوثه بها لم يطل وسرعان ما عاد إلى مرسيليا في جويلية 1831، وهو يروي السبب

---

(1) المرجع نفسه. ص 31.

(2) المرجع نفسه. ص 31.

(3) يلاحظ بين مقولته هذه وبين انتسابه إلى أمه " توماس أبولّين "، إلا أن الأرجح هو أن " توماس " عاش هاجسا حقيقيا، فالوثائق التي زورها له أبوه تنسبه إلى البنّاء " جون بابتيست أوربان "، والوثائق المسجّلة بالحالة المدنية تنسبه إلى أمه أبولين، فيما أن انتماء لأسرة " أوربان برو " وهو الذي كان في أعين الناس يكفله، منحه الاسم الشخصي لا العائلي، وهو ما رفضه توماس وأصرّ على ألاّ ينتسب إلا للاسم العائلي لأبيه، وفرض اسم " إسماعيل أوربان" سنة 1836 حين أسلم.

الأساسي لهذه العودة المبكرة وغير المنتظرة فيقول: "واحسرتاه، هذه المدينة (كابان) مليئة بآبائي، وتنحدر منها أصولي، ولكنني لا أعرف بها أحدا ولم يسمحوا لي بمعرفتهم"[(1)].

وبمرسيليا ازدادت وحشته وفقره، فأما الفقر فاضطره إلى الاشتغال عند بائع صابون[(2)] لعلّه يقبض ما يسد به رمقه، وأما الوحشة –وخاصة بعد أن تبرأت منه أمه كذلك-[(3)] فوجد الأنس في العائلة السانسيمونية التي كان قد سمع عنها الكثير عن طريق زملائه، وتأثّر بأفكارها بعد أن أطلعوه على "*Le Globe*"[(4)] في العدد الصادر بتاريخ 20 أفريل 1832، والتي قرأ بها نداء سان سيمون" *Saint-simon*": "... اهتزت العروش، تمزّقت الأسر، اختفى الحب والملوك، دين جديد، سياسة جديدة، أدب جديد، هذا ما أحمله إليكم، وأنا الوحيد الذي يمكن أن يقدّم لكم، لأنكم أحببتموني وأنا أحبكم... هذا أعظم يوم منذ 18 قرنا، هذا اليوم الذي توفي فيه محرر العبيد الخالد، ولكي نحتفل بهذا اليوم المجيد سنبدأ عملنا المقدّس وليختف من بيننا آخر أثر من الرّق والعبودية..."[(5)].

إن هذا النداء يعكس وضعا متدنيا كانت تعيشه أوربا، من انحطاط للقيم وتفتت للأسر واختفاء للمودة، وكذا المؤامرات على العرش الملكي التي انتهت إلى التنافر بين الملوك وشعوبهم، وإلى ظهور الاستعباد. وهي الظروف التي

---

(1) دومينيك شاتيون. الحلم العربي لنابليون الثالث.
Dominique Chathiuant. Le rève arabe du Napoléon III . in Wanadoo. fr/Yekrik

(2) المرجع نفسه.

(3) لوفالّوا. مرجع سابق. ص 33.

(4) مجلة "*Le Globe*" أو "الكرة الأرضية" تصدر على شكل نداءات تقدّم بها الأب "القديس سيمون"، تحوي الأسس والمبادئ التي ينبني عليها مذهبه الجديد، ثم جمعت في كتاب شكّل مرجعية فكرية لأتباعه.

(5) لوفالّوا. المرجع السابق. ص 33.

ورثتها فرنسا والدول الأوربية عن العصور الوسطى كالرق والاستعباد أو بفعل حكوماتها الرجعية، ويمكن أن نضيف إليها النتائج السلبية للنظام الرأسمالي كاستغلال الإنسان للإنسان.

ويمكن القول إن توماس وجد توافقا كبيرا بين ما يعانيه وبين ما جاء في هذا النداء، فقرر - على الفور - الانضمام إلى السانسيمونية فالتحق بباريس في الفاتح من جوان استجابة لنداء الأب الأعلى الموجّه إلى " كل الرجال والنساء الذين يحبوننا ويعتبروننا أملهم"[1]. وانخرط في مينيلمونتون " *Ménilmontant*" بتاريخ 15 جويلية 1832، وفي ذلك يقول:"استقطبتني قراءة كتب السانسيمونيين، فهذا بكفاءاته وقدراته، وذاك بمؤلفاته، فأعطتني -كمحروم- الإرادة لبعث الحماس في مجتمع يزخر بإمكانيات النهضة المعطلة"[2]. ودخل بذلك عهدا جديدا مؤمنا فيه بالفكر السانسيموني، ثائرا على الجمهوريين والإقطاعيين من الأسرة المالكة. وباشر مشروعه الجديد من جنوب فرنسا وكورسيكا، وكله عزم وأمل على أن تختفي مظاهر العبودية، وأن يتعايش كل من على المعمورة شرقا وغربا في حب وسلام.

وتميز توماس بقريحة شعرية فذّة، استطاع أن يجذب بها من حوله، وفي مينيلمونتون وأثناء أمسية شعرية في سبتمبر 1832 أنشد قصيدة دعاء الإنسان الأسود " *Prière du Noir* " في نغمة وصورة مأساويتين، حيث كان يلتحف غطاء كبيرا، فاندهش أحد كبار المذهب السانسيموني وهو غوستاف ديشتال " *Gaustave d'Eichthal*" لقوة الإنشاد ومأساوية المظهر، فعمل مع أونفونتان "*Enfantin*" على

---

(1) المرجع نفسه. ص 33.

(2) أوربان. السيرة الذاتية. نشر آن لوفالوا.
Anne Levallois. Les écrits autobiographiques d'Ismayl Urbain. Maisonneuve et Larose. Paris. 2005. p30.

التعرف عليه واجتذابه لخدمة مشروعهم الكبير[1].

ونتيجة لفعاليته وحماسه في العمل اقترح عليه إيميل بارو "*Emile Barrault*" فكرة اكتشاف الشرق، فالتحق – من أجل ذلك - بإسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية التي يبدو أنه تعلم بها اللغة التركية، وبدأ بمساعدة ديشتال بفونتان بلو في ترجمة كتاب صادر بإنجلترا سنة 1832 يدعو إلى التقارب بين الشرق والغرب. ومن تركيا التحق بمصر سنة 1833[2].

2. اكتشاف أوربان الشرق وإقامته في مصر

اتجه أوربان رفقة مجموعة من السانسيمونيين بقيادة إيميل بارو إلى تركيا لاكتشاف الشرق الذي حلم طويلا بتحقيق التعايش بينه وبين الغرب، ومن خلال هذه الرحلة اطّلع أوربان على كثير من عادات الشرق وعلى تأثير القرآن الكريم[3].

كانت مدينة إزمير أول محطة شرقية لأوربان، نزل بها وقارن بينها وبين المدن الأوربية، فوصل إلى قناعة مفادها أن هذه المدينة لم تستيقظ بعد على أسباب الحياة، وأنه من الواجب نشر تلك الأسباب على أرض الشرق، وذلك لمّا رأى بساطة المساكن وانخفاضها، والطابع الريفي للمجتمع، وصعوبة العيش وما أحاط بكل ذلك من بؤس وشقاء[4]، وهو التّصور نفسه الذي كان الغربيون يتصورونه عن أهل الشرق.

---

(1) ديشتال إلى أوربان. رسالة 08 سبتمبر 1838 بـ لوفالّوا. مرجع سابق. ص 34.

(2) لوفالّوا. مرجع سابق. ص 37.

(3) فيليب رينيي. مصدر سابق. ص 11- 13. اطّلع أوربان على كل ذلك حينما كان إيميل بارو يشرح لمرافقيه عادات الشرق ويستدل على ما يقول ببعض الآيات القرآنية.

(4) المصدر نفسه. ص 14- 15.

وإذا كان أوربان قد وقف على هذه السلبيات فإنه اقتنع أيضا أن " المسلمين هم أكثر الناس احتراما للمقدسات"[1]. كما أعجب بأخلاق المسلمين حين استضافهم السلطان العثماني بالباب العالي، فوصف أوربان تلك الجلسة بقوله:"... تجاذبنا أطراف الحديث، ولم يلتفت بوجهه عنا"[2]. فكانت هذه الملاحظات هي الإرهاصات الأولى لإعجاب أوربان بالإسلام والمسلمين.

غادر أوربان تركيا يوم 14 ماي 1833 باتجاه مصر التي دخلها في التاسع والعشرين من الشهر نفسه، ونزل أول مرة بالإسكندرية، ومنها إلى سوريا ولبنان وقبرص، قبل أن يعود إليها (الإسكندرية) يوم 24 أوت من السنة نفسها.

استقر أوربان بالإسكندرية، ولكنه كان دؤوبا إذ جاب مختلف أرجاء مصر من القاهرة والنيل والصعيد ودمنهور والسويس...[3]، وتعلم اللغة العربية وخاصة اللهجة المصرية. وعمل في مختلف النشاطات السانسيمونية، وخاصة في مشروع بناء الجسور الذي لم يكتمل.

بدأ أوربان نشاطه الثقافي بتعليم اللغة الفرنسية حيث كان يلقي درسين يتقاضى مقابلهما أجرة شهرية مقدرة بستين (60) قرشا، ثم ثلاثة دروس مقابل (80) قرشا. وبذلك تحسنت أوضاعه المادية، فأخذ يفكر في أناقة المظهر ورغد العيش، فبعد أن كانت أنواع المأكولات التي يقتات منها لا تتعدى الجبن والعصير والحلويات وقلّما نجد ذكرا لأكلة الأرز، مع تأكيده في كتاباته على الفقر والحاجة التي كان عليها، تحولت أنواع أكلاته إلى لحوم وخمور... بل وأكثر من ذلك وصل به الأمر إلى شراء بذلة متكاملة بثمن ستمائة (600) قرش،

---

(1) فيليب ريني. المصدر نفسه. ص 19.

(2) المصدر نفسه. ص 20. والسلطان العثماني آنذاك هو السلطان محمود الثاني الذي تولى مقاليد الخلافة العثمانية من 1808 وإلى غاية وفاته سنة 1839.

(3) المصدر نفسه. ص 29.

إخاطتها له إحدى السيدات مع أمها، هذه السيدة التي كبت تعلّقه بها وقد كانت مطلّقة. كما ارتبط بعلاقة غير شرعية بإحدى الإثيوبيات وأنجب منها بنتا[1].

ويشير أوربان إلى أنه تلقى تعيينا رسميا فيما بين 20 و 25 جوان 1834 كأستاذ للغة الفرنسية بمدرسة المشاة بدمياط من طرف المقدم – *Lieutenant colonel*– خليل أفندي، الذي وعده بأن ينقله في غضون شهر إلى المدرسة العسكرية التي أسسها بالمدينة نفسها، مقابل أجرة شهرية مقدّرة بألف (1000) قرش، هذه المدرسة التي افتتح نشاطه الرسمي بها بتاريخ 07 أوت 1834.

وهناك، في دمياط، وصلت أوربان رسالة تعزية من أخيه ينبئه فيها بوفاة والده برو الذي وافته المنية في 20 مارس 1834. رسالة جعلت أوربان طريح الفراش وهو الذي عاش محروما من عائلته جميعا.

نهل أوربان بمصر من التاريخ العربي والإسلامي، وأعجب به، خاصة في مقارناته بين الفتوحات الإسلامية والموجات الاستعمارية، فتعلق بالحضارة الإسلامية وبتقاليد وعادات العرب والمسلمين بعد معاشرته إياهم، وخاصة تضامنهم في حالات الجوائح، وهو الذي عانى ظروفا مأساوية منذ الصغر.

كما نوى أوربان الزواج من السيدة (الهانم) السابقة فربط معها علاقات مودة خالصة، إلا أن الوفاة أخذتها منه في 14 أفريل 1835 فعاش بعد وفاتها مأساة حقيقية أخرى انتهت به إلى الدخول إلى الإسلام، الذي وجد فيه وبين أهله الرّاحة والاطمئنان[2] والمخرج من المنابزة بعدم شرعية الميلاد. فاعتنقه وحاول الالتزام به قدر الإمكان. وكان إيميل بارو قد نصحه بأن يعمل في مصر

---

(1) دومينيك. مرجع سابق. توفيت هذه المرأة الإثيوبية وكذلك ابنتها، وعلمنا الآن أن الأم توفيت بالمرض الذي قد يكون الطاعون الذي ضرب مصر إذ ذاك، في حين أننا لا ندري لا تاريخ ولا سبب وفاة البنت، إلا أن الراجح أنها توفيت قبل والدها (1884) كما يشير المرجع

(2) مقال أوربان بجريدة الزمن "*Le temps*" بتاريخ 05 جوان 1837. ب لوفالوا. مرجع سابق. ص49.

كاتسيموني مبشّر بدين جديد وحذره من اعتناق الإسلام[1].

أعلن أوربان إسلامه في 29 أفريل 1835 ونطق بالشهادتين أمام إمام مسجد مدرسة المشاة بدمياط الشيخ "علي خفاجة" بحضور نحو عشرين إماما، شرحوا له أركان الإسلام[2]. وغيّر اسمه من توماس إلى إسماعيل تأسّيا بالنبي إسماعيل (عليه السلام) حيث يرى نفسه شبيها به، حين يرى أن إسماعيل عليه السلام مولّدا من الأب إبراهيم والأم هاجر (عليهما السلام)، ويراه قد فقد أباه مثله، وهو يشير بذلك إلى قصة إبراهيم (عليه السلام) حين تركه الزوجة والولد بحثا عن الرزق. كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[3]. ويركّز على اختيار اسم إسماعيل بالنطق والحرف العربيين لا على الصيغة اليهودية، ولذلك كان يصرّ على كتابة اسمه *Ismayl* أو *Ismail* ولم يرض بكتابته *Ismaël* لما يوحي به ذلك من ارتباط باليهودية[4].

وكثيرا ما طُرحت قضية إسلام أوربان بين إخلاصه في ذلك وبين تضليله للناس، وبعد البحث وصلنا إلى أن أوربان قد أسلم اقتناعا منه بالدين الإسلامي الذي فضّله في كثير من المناسبات عن الديانة المسيحية ومات على إسلامه بالجزائر. وقال في ذلك: "لقد كنت أول مسيحي (؟) يعتنق الإسلام، ليس من أجل إبعاد خطر ولا من أجل استفادة مادّية وإنّما عن طموح وشغف، لقد اعتنقت الإسلام دون المروق عن المسيحية بأمل تحقيق التصالح بين الشرق والغرب

---

(1) رسالتا ديفيريي *Duveyrier* إلى أوربان بتاريخ 02 مارس 1833 و 16 أكتوبر 1835، بـ لوفالّوا. المرجع نفسه. ص 35.

(2) ريني. مصدر سابق. ص 91- 92.

(3) سورة إبراهيم. الآية: 37.

(4) ريني. المصدر السابق. ص 91

والتوفيق بينهما "[1]. فمن خلال هذا القول ومما انتهى إليه البحث نقول إن أوربان أسلم عن قناعة راسخة ولكنه كان بسيطا في تكوينه العقائدي وبسيط الاطلاع على أحكام الإسلام في هذا الشأن.

كما التقى أوربان أونفونتان بالقاهرة في نوفمبر 1833 حين زار هذا الأخير أتباعه هناك، وتعارفا جيدا، خاصة وأن أونفونتان قد أعجب بأوربان منذ الأمسية الشعرية بمينيلمونتون، في حين أن أوربان قد أعجب بأونفونتان وتأثر تأثرا شديدا بفكره، واعتبره شيخه الذي استطاع أن يعوض صورة إيميل بارو، وبقي على هذا الشعور رغم سخط أونفونتان عليه حين أسلم[2].

ورغم عودة أونفونتان يائسا من نجاح مهمته في مصر سنة 1833، إلا أن أوربان لم يفقد الأمل، وواصل جهوده من أجل وحدة العالم الذي يراه منحدرا من أب وأم (في إشارة إلى آدم وحواء عليهما السلام)، ولم يعد إلى فرنسا إلا بتاريخ 18 ماي 1836 مفتخرا بإسلامه مدافعا عن خروجه من المسيحية دون تنكر لأصوله الفرنسية قائلا: "أحببت كثيرا الأجواء هناك (الشرق)، واللغة و عادات شعوب الشرق، ففي القاهرة لم أكن أعيش إلا مع المسلمين، بهذه الطريقة اكتشفت الشرق بكل جماله، والذين زاروه وتعرّفوا عليه سيعذرونني على

---

(1) أوربان. السيرة... مصدر سابق. ص 104.

(2) رسالة أوربان إلى أونفونتان. دمياط في 18 جوان 1835. بـ ميشال لوفالوا. المرجع السابق. ص35- 36. كما نشير هنا إلى أن السانسيمونيين كانوا قد جربوا أفكارهم في مصر، إثر البعثة التي قادها أونفونتان سنة 1833 ولكن النجاح لم يحالفهم. وسنعود إلى بعض أفكار السانسيمونية في العامل الثاني من العوامل المؤثرة في التكوين الثقافي لأوربان. ولمزيد من التوسع حول تجربة السانسيمونيين هذه، يرجى العودة إلى كتاب: إيميريت. <u>السانسيمونيون في الجزائر</u>، مصدر سابق. وكذلك أبو القاسم سعد الله. <u>تاريخ الجزائر الثقافي: 1830 – 1854</u>. ج6. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 1998. ص 438 وما بعدها.

شرقيني"[1]، بل يرى ذلك الدليل القطعي على إمكانية التقارب بين العالمين فهو يقول: "أنا مسيحي ومسلم لأنني فرنسي"[2].

3. نبذة حول الأوضاع العامة بالجزائر 1830 – 1870:

إننا نشير إلى ملاحظة هامة هنا وهي أن هذه الفقرات ليس الغرض منها الإلمام بأوضاع الجزائر خلال الفترة المحددة لأن ذلك يتطلّب منا كتابة المجلّدات ثم إنها مدروسة كما هو معلوم، وإنما الغاية منها هي أخذ نظرة سريعة تجعل القارئ يرسم لنفسه تصوّرا أوليا يساعده في فهم محتويات هذه المذكرة، أما إذا أراد التوسّع فما عليه إلاّ العودة إلى المصادر والمراجع المتخصّصة.

حينما جندت فرنسا قواتها لغزو الجزائر جندت معها إعلامها لتبرير الحملة على أنها تأديب للداي الذي أهان شرف فرنسا فيما عرف تاريخيا بحادثة المروحة في 29 أفريل 1827[3] وتخليص للشعب الجزائري من الحكم العثماني الذي وصفته الإدارة الفرنسية بأنه حكم تركي أي قومي متسلط ورجعي بعيدا عن خصائص الحضارة والتقدم والرّقي... وفي المقابل قدمت نفسها على أنها محررة للجزائر من هذا الاستعباد طامحة إلى بناء حضارة ترتقي بالإنسان الجزائري إلى

---

(1) مقال نشره أوربان بجريدة الزمن. 05 جويلية 1837. مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه

(3) كان الداي حسين قد تناول في حديثه إلى القنصل الفرنسي بالجزائر السيد بيير دوفال "*P Duval*" بمناسبة تهاني عيد الأضحى المبارك بتاريخ 29 أفريل 1827 قضية الديون المترتّبة للجزائر على فرنسا منذ حصار أوربا لها. ونظرا لسوء تصرّف القنصل أمام أنظار السلك الديبلوماسي المهنّي، أشار عليه الداي بمروحته طالبا منه الخروج وقد يكون لمسه بها. فرفع القنصل تقريره على أساس أنه ضرب ثلاث ضربات بالمروحة، مما دفع فرنسا الباحثة عن حجة لتنفيذ مشروعها الهادف إلى احتلال الجزائر منذ مؤتمر فيينا 1815 إلى تضخيم الأمر وفرض حصار على الجزائر بداية من 12 جوان 1827 انتهى بالاحتلال على إثر حملة 1830. ينظر: أبو القاسم سعد الله. محاضرات في تاريخ الجزائر. بداية الاحتلال. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط3. 1982. ص 22 وما بعدها.

قمة التمدن والحرية، وهو ما حاولت نشره من خلال بيان الحملة الموزّع على السكان عشية الغزو. إلا أنه ومع مرور فترة وجيزة لم تتجاوز الثلاث سنوات حتى تعالت صيحات الجزائريين الذين شعروا بأنهم قد أصبحوا مستضعفين في ديارهم من أمثال حمدان خوجة وإبراهيم بن مصطفى باشا وغيرهما... مما دفع بحكومة باريس إلى إرسال لجنة لتقصي الحقائق وهي اللجنة التي عرفت تاريخيا باسم (اللجنة الإفريقية) والتي أقامت بالجزائر من 28 أوت إلى 19 نوفمبر 1833 والتي ما فتئت أن كشفت عن تجاوزات جيش الاحتلال الذي استحل مدينة الجزائر والمناطق الساحلية التي وقعت تحت سيطرته حين صرحت بمايلي: "لقد حطمنا... ممتلكات المؤسسات الدينية وجردنا السكان الذين وعدناهم بالاحترام وأخذنا الممتلكات الخاصة بدون أي تعويض... وذبحنا أناسا كانوا يحملون عهد الأمان... وحاكمنا رجالا كانوا يتمتعون بسمعة القدّيسين في بلادهم... لأنهم كانوا شجعانا في بلدانهم لدرجة أنهم صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين"[1].

ورغم اعترافات اللجنة الإفريقية إلا أن حكومة باريس قررت دعم الاحتلال بل وانتهت إلى إصدار قرار 22 جويلية 1834 الذي يلحق الجزائر بفرنسا أو كما سماها القرار " ممتلكات فرنسا في شمال إفريقيا"

ومن أجل التمكين لبسط الاحتلال الفرنسي بالجزائر أرضا وشعبا، ماديا ومعنويا أقبلت إدارة الاحتلال على هدم مختلف البنى التحتية لجميع الميادين بالجزائر وهو ما نحاول إجماله في الآتي من القول:

من الناحية الإدارية:

رغم صراحة اتفاق الداي – بورمون المؤرخ في 05 جويلية 1830 الذي يلزم

---

(1) أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية. ج2. 1900 – 1930 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط3. الجزائر. 1983. ص 18.

به فرنسا باحترام الشعب الجزائري احتراما كاملا سواء من حيث الأرض أو العرض أو المتاع إلا أن فرنسا تنكرت لذلك وسرعان ما ناقضت ذلك حين استحلّت مدينة الجزائر لمدة ثلاثة أيام نهبا وسلبا... حتى يستكين الشعب الجزائري لسلطة الاحتلال بعد أن يرى بأم عينه مغبّة بقاء كرسي الحكم شاغرا، كما أرادت من خلاله الترويع والتخويف باتّباع أساليب وحشية.

ورغم أن المؤرخين يكادون يجمعون على أن فترة 1830- 1834 هي فترة التردّد في العهد الاستعماري بالجزائر استنادا إلى الأدبيات الفرنسية، وإذ نؤيّد ذلك، نضيف أيضا أن أرجع الآراء هو أن مصطلح التردد هذا ما هو إلاّ مجرد تكتيك سياسي فرنسي لامتصاص غضب الغاضبين من المنافسين الاستعماريين في الخارج ولرؤوس الوطنيين والحركيين بالداخل، وذلك ما نستنتجه من المخططات الفرنسية السابقة والقديمة نوعا ما في محاولة احتلال الجزائر، إضافة إلى مكانة الموقع الاستراتيجي للجزائر وما يمكن أن تجنيه فرنسا استعماريا من بقاء الجزائر ضمن مستعمراتها. ولعلّ أبرز ما يؤكد ذلك أنه: " خلال 1833 كُلّفت لجنة فرنسية (اللجنة الإفريقية) بالإجابة عن الأسئلة التالية: هل يجب الاحتفاظ بالأراضي المحتلة؟، إذا كان الاحتلال مفيدا فما هو النظام الذي ينبغي اعتماده؟، هل يجب الاقتصار على إخضاع الأهالي؟، هل يجب تدعيم الاحتلال بالاستعمار؟، ما هو أكثر النظم الإدارية ملاءمة؟، ماهي الحالات العامة لهذه البلاد من جميع النواحي؟"[1]. وكذلك إذا أضفنا إليها مخططات بوتين" *Boutin* " الاستخباراتية في 1808.

وعلى كل فإن الفترة الممتدة بين 1830 – 1834 كانت فترة عصيبة على الجزائر بالنظر إلى التطورات الحاصلة بها من استكانة النظام الحاكم نوعا ما إلى

---

(1) محمد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية 1830 – 1954، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص 30.

تكميم الأصوات الثائرة إلى انفلات الأمر والمقاومات الشعبية التي أربكت فرنسا وكسرت من جبروتها وأرغمتها على الاعتراف بالأمر الواقع كفشل الحملة الأولى على المدية والاضطرار إلى إمضاء معاهدة دي ميشيل مع الأمير عبد القادر.

ومن بين تجاربها أعلنت فرنسا النظام العسكري نظاما رسميا ساد الفترة الممتدة بين 1830 – 1870 باستثناء تجربة الحكم المدني فيما بين 1858 – 1860 تحت حكم وزارة الجزائر والمستعمرات، هذا النظام العسكري الذي أنشأ الحكومة العامة بالجزائر وتكفّل بإدارة المستعمرات من قبل قائد عسكري بداية من سبتمبر 1834 من خلال شخص الحاكم العام الأول الجنرال " درويت ديرلون" الذي يتبع مباشرة وزارة الحربية في باريس وتم تقسيم الجزائر إداريا إلى ثلاث ولايات وكل ولاية إلى دوائر وكل دائرة إلى بلديات. وهو نفسه النظام الإداري العثماني للجزائر تقريبا.

وتمثلت هذه الولايات الثلاثة (الأقاليم) في ولاية العاصمة بالوسط وإقليم قسنطينة بالشرق في حين كانت وهران عاصمة لإقليم الغرب.

واعتمدت فرنسا في تسيير حكمها على المركزية والعسكرية في آن واحد بالاعتماد على المساعدة التي يمكن أن يقدمها زعماء البلاد خاصة من القبائل المطعون في كبريائها من أمثال المخزن والزمالة بعد سقوط الحكم العثماني الذي كانت تستمد منه قوتها وكبرياءها. أما العسكريون فإن أهم تنظيم مارسوا من خلاله الحكم وتنفيذ سياساتهم هو تنظيم المكاتب العربية المؤسسة ابتداء من سنة 1833، كما كانت الحكومة العامة تظم " عدة وزارات تتوزع الصلاحيات والمسؤوليات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والتعليمية ومنها إدارة الشؤون الأهلية التي تتولى شؤون المسلمين(الجزائريين)، ومن ثمة نلاحظ أن مصالح الجزائريين كانت جزءا فقط من اهتمامات الحكومة العامة". كما " عوّض الفرنسيون البلديات التي وجدوها في المدن الرئيسية والجماعات بإدارة مختلطة

تألف منهم ومن بعض أعيان الجزائر مثلما وقع في العاصمة في المرحلة الأولى وقسنطينة بعد احتلالها[1].

والمتتبع للسياسة الفرنسية بالجزائر في تلك الفترة يلاحظ جيدا كيف أدت إلى تعفن الأوضاع حيث كان الصراع على أشده بين وزارة الجزائر والمستعمرات والمدنيين من جهة وبين العسكريين من جهة ثانية، أما على المستوى الشعبي فإن الجزائريين كانوا قد شكوا اضطهادهم من ممارسات وزارة الجزائر والمستعمرات وكذا سياسات راندون "*Randon*" التي تبحث عن مزيد من الإذلال والإخضاع للشعب الجزائري، أما المعمرون فكانوا يبحثون عن مزيد من الأراضي حين ضغطوا على الحاكم العام راندون وهو الموالي لهم في ذلك لمزيد من انتزاع أراضي الجزائريين بحجة أن الجزائريين عاجزون عن استغلال الأرض وفلحها، ولذا لابد أن يترك لهم ما يكفيهم فقط وتشترى منهم الأراضي الأخرى بطرق تسمى قانونية(؟). ولذلك سارع راندون إلى حشد الجزائريين وازداد التأييد من المعمرين لفكرة إقامة الملكية الفردية بدلا عن الملكية الجماعية. هذه الأوضاع جعلت الإمبراطور يقرر زيارة الجزائر للاطّلاع بنفسه على ما يدور بها[2].

وباعتبار أننا سنتناول الحديث – فيما بعد – عن رسالتي الإمبراطور لسنتي 1863 و 1865 فإننا نرى من المفيد أن نشير إلى فترة حكم بيليسي الذي ارتبط

---

(1) أبو القاسم سعد الله. خلاصة تاريخ الجزائر. المقاومة والتحرير. 1830 – 1962. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. ط1. 2007. ص 67.

(2) زار نابليون الجزائر مرتين كانت هذه الزيارة المشار إليها هي الأولى وتمت في سبتمبر 1860 بعد تعفّن الأوضاع بالجزائر على الشكل الذي ذكرنا. ورغم أن الإمبراطور لم يطل المكوث بالجزائر إلا أنه أخذ نظرة وافية عنها، وتجسّدت رؤيته، خلافا لمطامع المعمرين، في رسالة 1863 التي سنتناول أفكارها في الفصل الثاني من هذه المذكرة. أما الزيارة الثانية فكانت زيارة مطوّلة حيث مكث نابليون بالجزائر من ماي إلى 05 جوان 1865 وجاب مختلف أرجائها، ويبدو أنه كان يريد المكوث مدة أطول. فقد أشار أورليان دون تفصيل إلى ذلك فكتب: "في الطريق إلى بسكرة".

بالرسالة الأولى وإلى ماكماهون الذي أُرسلت إليه الرسالة الثانية.

المعروف عن بيليسيي أنه رجل حرب وبطش وهو صاحب مجزرة غار الفراشيش بجبال الظهرة التي راح ضحيتها ما يربو عن الألف شخص من النساء والولدان صبرا حين جمع الحطب وأضرم النار في مدخل الغار حتى وُجدت الأمهات مختنقات وهن يحتضنّ أبناءهن ومات الجميع على ذلك. ولكنه حين عينه نابليون حاكما عاما على الجزائر[1] كان قد بلغ من الكبر عتيا فهو آنذاك ابن السبعة والستين سنة ولم يعد له اهتمام بالشؤون الإدارية ولا بتنفيذ أفكار نابليون. وكان تعيينه هذا عودة إلى الحكم العسكري بالجزائر بعد تجربة وزارة الجزائر والمستعمرات من 1858 إلى 1860 والتي نادت بالتمكين للمعمرين وإرساء حكم مدني بالجزائر فأنشأت خلال هذه الفترة الوجيزة سبع عشرة قرية فلاحية للكولون وتنازلات مجانية عن الأرض بلغت 4600 تنازلا من أراضي الجزائريين.

وشهد عهد بيليسيي صعوبة في تطبيق الأفكار التي أراد الإمبراطور وأوربان تطبيقها، ذلك لأنه لم يعد له كبير اهتمام بالشؤون الإدارية كما ذكرنا، ولما تميزت به فترة حكمه من صراع بين العسكريين والمدنيين، فهذا مدير الشؤون الأهلية السيد "ميرسي لاكومب" كان عازما على مواصلة عمليات حشد الأهالي[2] التي كان قد انتهجها راندون، وهي السياسة (حشد الأهالي أو الكانتونات) التي تعني إبعاد الجزائريين عن أراضيهم في الوقت الذي تنص فيه رسالة 1863 على التخفيف على الأهالي باسترجاع بعض الحقوق كما سنرى. وهذا وارني يدعو إلى العودة إلى الإدارة المدنية بدلا عن العسكرية التي هاجمها بقوة لا سيما المكاتب العربية التي اتهم العاملين بها " بالحرص على خدمة

(1) عيّن الإمبراطور بيليسي حاكما عاما على الجزائر بتاريخ 24 نوفمبر 1860 فكان بذلك أول حاكم عام بعد إعادة تأسيس الحكومة العامة.

(2) سعد الله. الحركة. ج1 ق1. مرجع سابق. ص 17.

مصالحهم الخاصة بدلا عن خدمة المصلحة الفرنسية"[1] بل قال عن ضباطها: "إن ضباط المكاتب العربية يعملون على نشر المحسوبية من أجل حفظ النفس"[2]. واصفا المروجين لأفكار نابليون وأوربان شخصيا دون أن يسميه بقوله: "لذلك يصدر كتاب مجهول المؤلف لا أقول عنه إنه من ضباط المكاتب العربية وإنما من الكتاب الأكثر عدائية للاحتلال"[3]. لأنه كان يرى أن الاحتلال لابد أن يقتصر على خدمة مصالح فرنسا والمعمرين فقط حتى ولو أدى ذلك إلى إبادة الجزائريين، على عكس ما كان ينادي به أوربان من اهتمام بالأهالي في إطار التمكين للاحتلال الفرنسي. وفي إطار هذا الصراع دائما ينبغي أن نشير إلى أن أوربان كان ناقدا لوزارة الجزائر المنتهية عهدتها وللحكومة العامة معا، فبعد أن رأينا رأيه فيما يخص سياسة الحكومة العامة نعرض رأيه فيما يتعلق بوزارة الجزائر والمستعمرات حيث قال: "إن ما قامت به الوزارة من السماح للأوربيين من شراء بعض الممتلكات من الأهالي بالمناطق العسكرية والعكس بالمناطق المدنية هو أول تقدم خطر على المصالح الفرنسية وعلى مصالح المعمرين بالجزائر، وهو أوضح أسلوب على أن أولئك هم أعداء الاستعمار"، كما أشار أيضا إلى أن الطريقة التي تتبعها الحكومة العامة في التسيير تعيق المعمرين "عن الدخول إلى عالم الحياة المعاصرة والتمدن" مشيرا إلى أن "أغلبية المعمرين يأتون إلى الجزائر من أجل الثروة"[4].

أما ماكماهون وعلى العكس من بيليسي كان لا يزال في قوة العطاء السياسي حين عُيّن حاكما عاما للجزائر في 01 سبتمبر 1864 وكان من أكفأ

---

(1) وارني. الجزائر أمام مجلس الشيوخ

Warnier. L'Algérie devant le Sénat. Imprimerie de dubuisson. Paris. 1863. p22.

(2) المصدر نفسه ص 25.

(3) المصدر نفسه ص 25.

(4) أوربان. الجزائر للجزائريين. مصدر سابق. ص 142.

الضباط الفرنسيين، إذ أنه خرّيج مدرسة " سان سير" العسكرية، ومن بين أهم الجنرالات الذين دخلوا مع الحملة سنة 1830 ولم يخرج من الجزائر إلا مع سقوط الإمبراطورية الثانية سنة 1870. وكان ماكماهون من مؤيدي المدنيين في الجزائر ولذا كان ضد أفكار أوربان بل وصل به الأمر إلى محاولة إبعاده عن الجزائر، وكان قد أخفى عن الإمبراطور امتعاض الجزائريين من سوء الأحوال التي لحقت بهم حين زيارة الإمبراطور الثانية إلى الجزائر سنة 1865 والتي أهمها الحشد والفقر وتدهور الأسر الكبرى كما سيمرّ بنا. كما أخفى أيضا الرسالة (الكتيب) التي بعث بها الإمبراطور في 20 جوان 1865. بغية منه في الحيلولة دون تطبيق أفكارها متذرّعا بثورة الرأي العام، ووصل به الأمر إلى عدم نشرها على جريدة المبشّر المخوّلة لنشر كل ما يتعلّق بالأهالي[1].

من الناحية الثقافية

لعل من أهم الجوانب التي يبرز من خلالها الوضع الثقافي هي جوانب التعليم والقضاء والدين، ولذا حاولنا أن نتطرق إليها بما يفي المبحث حقّه دون استرسال.

تركت فرنسا قطاع التعليم بالجزائر قطاعا تقليديا رغم ادعائها أنها تهدف الى سياسة تعليمية تساعد الأهالي على التمدّن. إذ إن سياستها هذه كانت في حقيقة الأمر وسيلة من الوسائل الفعّالة للتمكين لأهداف سياستها الاستعمارية، ولذا رأت" أن المدرسة الفرنسية لن تقوم إلا على أنقاض المدرسة العربية التقليدية، التي كانت في نظر هؤلاء (الفرنسيين) تشكّل حاجزا، وتحول دون قيام مدرسة استعمارية في الجزائر، ومن ثم استهدف النظام الاستعماري القضاء على

---

(1) ماكماهون. مذكرات الماريشال ماكماهون (الدوق دو ماجينطا).
Mac Mahon. Mémoires du Maréchal de Mac Mahon. Duc de Magenta. Librairie plon. Paris. p212 213.

التعليم العربي ومؤسساته في البلاد"[1]. فعملت، من أجل ذلك، بحزم على إفراغ التعليم من محتواه، وصادرت الأوقاف التي كانت في العهد العثماني تمثّل القلب النابض له، وحطّمت المدارس والمساجد وحولت بعضها عن مهامها الأصلية، وقلّصت دور العلم، وحرمت الجزائريين من اعتماد المدارس الحرة.

أما فيما يتعلّق بمداخيل الأوقاف، وهي التابعة للمؤسسات الدينية، فقد اعتبرت فرنسا قطع سيولتها عن التعليم بمثابة قطع حبل الوريد عن الإنسان، فأقدمت على مصادرتها مبكرا بقرار من كلوزيل في 07 ديسمبر 1830 ولم تستثن منها نوعا سواء ما تعلّق بأوقاف مكة والمدينة أو أوقاف المساجد أو الزوايا أو سبل الخيرات أو الجامع الكبير أو الأندلس أو الإنكشارية أو المياه، أو الطرق والتي تجاوزت ملكياتها 2600 ملكية سنة 1830[2].

هذا من حيث الموارد الدينية للتعليم، أما ما يتعلّق بالمجال الديني فيمكن استخلاصه من تصريح الجنرال دي لامورسيير حين قال: "حللنا بمدينة الجزائر

---

(1) عمار هلال. أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830 – 1962). ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1995. ص 104.

(2) خديجة بقطاش. الحركة التبشيرية الفرنسية بالجزائر 1830 – 1871. (دبلوم دراسات عليا تحت إشراف الدكتور سعد الله). مطبوعة بالجزائر 1992. ص 23. ويفيدنا هذا المرجع ببعض الشروحات الهامة لأنواع الأوقاف المذكورة، فتشير الأستاذة بقطاش إلى أن أوقاف مكة والمدينة هي أهم الأوقاف على الإطلاق لأن دخلها يساوي ثلاثة أرباع كل مؤسسات الحبس. جزء منها يبعث إلى فقراء مكة والمدينة وجزء آخر يوزع على شكل صدقات لفقراء مدينة الجزائر صباح كل خميس. أما سبل الخيرات فتأسست سنة 1584 وهي عبارة عن هيئة دينية تشرف على ثمانية مساجد بمدينة الجزائر تابعة للمذهب الحنفي. أما أوقاف المسجد الكبير فيشرف عليها المفتي المالكي بمساعدة ثلاثة وكلاء. أما أوقاف الزوايا فهي كثيرة بمدينة الجزائر، وكل زاوية تحتضن ضريح ولي صالح ويأتيها الزوار من كل الجهات ليتبركوا بدفينها ويقدّموا لها الهبات المختلفة، وعددها 19 زاوية لكل منها ملكيات مختلفة في حين تأسست أوقاف الأندلس سنة 1601 لفائدة النازحين من الأندلس أيام ظهور حركة الاسترداد المسيحي بإسبانيا، وقد ساهم في تكوينها

فاتخذنا من المدارس مخازن وثكنات وإسطبلات، واستحوذنا على أملاك المساجد والمدارس، وكنّا نظن أننا سنعلّم الشعب العربي مبادئ الثورة الفرنسية، ولكن مع الأسف أن المسلمين رأوا في ذلك ضربة للدّين والعقيدة"[1].

وعملت فرنسا على تبرئة حملتها على الجزائر من أي سبب ديني أو هدف لتنصير الجزائريين، إذ كان العسكريون هم من يتولّون تنفيذ هذه المهام إلى غاية تأسيس أسقفية الجزائر سنة 1838 وتعيين الأسقف دوبوش على رأسها الذي قام بعمل كبير نذكر منه إنشاء 60 كنيسة ومعبدا و16 مؤسسة دينية ووضع الحجر الأساس لدير الإخوة "لاتراب" قرب سيدي فرج واسطاوالي قبل أن يخلفه بافي إلى غاية 1866 الذي واصل ما بدأه سلفه وزاد عليه بأن افتتح معبد سيدة الخلاص "حصن سانتا كروز" بوهران سنة 1850 ووضع الحجر الأساس لبناء كنيسة السيدة الإفريقية سنة 1854 وجعل أسقفية الجزائر على نفس المكانة مع نظيرتها بباريس وعمل على إنجاز أسقفية بوهران.

أما ثالثة الأثافي على الجانب الديني في الجزائر فكان الكاردينال لافيجري الذي جاء مع سنة 1867 متسائلا " كيف تظل فرنسا في الجزائر قرابة أربعين سنة دون أن تنجح في تنصير المسلمين؟". وهو الشيء الذي عمل من أجله طول حياته بالجزائر وأسس من أجله مؤسسة الآباء والأخوات البيض، وجمع ما وصلت إليه يداه من اليتامى الجزائريين وعمّدهم وأقام حفلات زواج على شرف إقامة أسر من ذكور وإناث أولئك اليتامى مريدا إنشاء فئة سكانية صنعت على طريقته لتحفظ أهدافه بالجزائر[2].

---

(1) إيفون تورين. الصراعات الثقافية بالجزائر المستعمرة.
Yvonne Turin. Affrontements culturelles dans L'Algérie coloniale. 1830 – 1880. ENAL. 2eme édition. 1971. p 119.

(2) للتوسع أكثر حول مضمون هذه الفقرة يرجى العودة إلى: سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج 6. مرجع سابق. ص 106 وما بعدها. وكذلك كتابه: الحركة الوطنية الجزائرية. ج1. ق2. مرجع سابق. ص 400 وما بعدها.

أما ما يخص القضاء فلم تكن هناك "سياسة قانونية رسمية فرنسية واحدة في الجزائر خلال الفترة الأولى من الاحتلال (إلى غاية 1834) حيث كانت الجزائر تحت سيطرة القائد العام الذي يسيرها وفقا لقناعاته وأهوائه من دون الرجوع إلى النصوص القانونية سواء الجزائرية أم الفرنسية"[1]. زاعمة أنها تركت للقضاة المسلمين حرية معالجة كل القضايا وإصدار الأحكام، ولكنها كانت في إطار التوجه الذي ترسمه لهم، خلال العشرية الأولى من الاحتلال[2]، فلم يكن ذلك إنصافا للجزائريين واحتراما للاتفاق مادام القضاة الجزائريون ملتزمين بما تريده الإدارة الاستعمارية، بقدر ما كان تجنّبا لصدام مع الأهالي فيما يتعلّق بمعتقداتهم خوفا من إصرارهم على التمسّك بخيار المقاومة.

ونشير هنا إلى أنه في هذه الفترات أنشأت إدارة الاحتلال ثلاث محاكم في عواصم الأقاليم الثلاثة إثر صدور قرار الإلحاق في 22 جويلية 1834 والذي لم يلغ المحاكم الإسلامية[3].

ولكن المتتبع للمراسيم والقرارات القضائية الصّادرة فيما بين 1830 و 1870 يلاحظ وبوضوح التخوف الفرنسي من جهة، و العزم على تحقيق الوثبة القانونية التي تسيطر من خلالها فرنسا على المحاكم من جهة أخرى فتخضع بذلك الجزائر بلدا وشعبا. وهذا ما يفسّر تغلغل القضاء الفرنسي" حتى زعزع مكانة القضاء الإسلامي الذي لم يبق له إلاّ الأحوال الشخصية مع شروط"[4].

---

(1) احميدة عميراوي. أبحاث في الفكر والتاريخ (الجزائر وفلسطين)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2003. ص 17.

(2) سعد الله. خلاصة.... مرجع سابق. ص 75.

(3) عميراوي. أبحاث.... مرجع سابق. ص 18 – 19.

(4) سعد الله. خلاصة.... مرجع سابق. ص 76.

الوضع الاجتماعي والاقتصادي:

إن الوضع الاجتماعي الجزائري مع نهاية الحكم العثماني وبداية عهد الاحتلال لم يكن يختلف عن باقي الأوضاع، فالمجتمع ذو طابع ريفي في الغالب حيث يستقر أهل البلد (الجزائريون) وهم الأغلبية الساحقة التي تتجاوز الـ 95 % من إجمالي عدد السكان، أما الفئة الحضرية فقد تمثّلت في الأتراك والكراغلة وقبائل المخزن إضافة إلى أهل الأندلس وأهل الذمة. ولكن الجانب الذي يهمنا الآن هو الوضع الذي آلت إليه الحالة الاجتماعية مع بداية عهد الاحتلال. وفي ذلك نقول إن فئة الأتراك ومن سار في فلكهم من رجال المخزن كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة إذ سخّر الحكام العثمانيون " قوادا وشيوخا بعيّنهم الباي مباشرة ويخضعون لإرادته. وعلى أكبر مستوى أي البايلك اعتمد الباي على قبائل المخزن المتحالفة مع الحكم المركزي مقابل حصولها على امتيازات مالية وسياسية لقمع كل ثائر ضد الحكم العثماني في الجزائر". أما أهل الريف فكان عليهم السمع والطاعة للداي متأثرين بالمرابطين الذين مثّلوا لهم النزاهة والصدق والجهاد ومُتَّحِدِين فيما بينهم بالأعراف والتقاليد والاحتكام إلى الجماعة التي تستمد سلطانها من الدين الإسلامي الحنيف ومن العرف المحلي.

ونظرا لرد فعل الشعب الجزائري – بعد سقوط النظام العثماني- وتصاعد المقاومة سارعت الإدارة الاستعمارية إلى سياسة الترويع والإبادة فأبادت قبيلة العوفية في متيجة عن آخرها كما أبادت قبيلة أولاد رياح في الظهرة، وسلك قادة الاستعمار سياسة الأرض المحروقة.

ولاشك أن تنظيما اجتماعيا كهذا لا يخدم المصلحة الاستعمارية في شيء ولا يساعد على بناء الحاميات الاستعمارية الممهدة لبناء المستوطنات الأوروبية على أرض الجزائر، فسارعت فرنسا إلى تشجيع الهجرة الأوروبية تحت شعار " لابد أن تكون الهجرة أوربية فيما يكون الاستعمار فرنسيا" كما سيمر معنا في موضعه. ووصفت الكتابات الفرنسية تلك الأعداد المعتبرة من المهاجرين

بـ"النسبة الكافية لإحداث تغييرات عميقة على المجتمع الجزائري"[1] حسب ما تمليه إدارة الاحتلال طبعا. وبالتالي يبدو رهان الإدارة الاستعمارية كبيرا على تأثيرات العنصر الأوربي وما يمكن أن يغرسه من خصوصيات الحضارة الغربية بالجزائر لطمس هوية الشعب التي كانت متأصلة. وقد صرّح أحد رجال البرلمان الفرنسي وهو السيد ديفيفي "*Duvivier*" في إحدى الجلسات قائلا: " لقد ضحينا في الجزائر بنحو 100 ألف رجل فيما بين 1831 و 1848... قد نقول إننا ضحينا بهذا العدد الهائل دون تحقيق نتيجة هامة للاحتلال، ولكننا نقول إن هؤلاء الرجال استطاعوا أن يفتحوا بشمال إفريقيا فضاء فرنسيا... وهي قضية أساسية جدا... إن الأوربيين(يقصد المعمرين) مقبلون على جعل المنطقة منطقة أوربية"[2].

ولقد كان من نتائج سياسة تشجيع الهجرة والاستيطان التي انتهجتها فرنسا أن ارتفع عدد المعمرين بالجزائر فبلغوا سنة 1863 200 ألف أوربي منهم 120 ألف فرنسي، خاصة بعد أن وجدوا مختلف" التسهيلات لإقامة وبناء حياة جديدة في الجزائر، وجدوا الأرض والأمن والمعدّات، وكانت السلطة توفر لهم كل أسباب العمل في أول الأمر بأسلوب مغرٍ، فلمدة ثلاث سنوات لا يدفع المهاجر الضرائب ولا يردّ سُلفة نقدية، كما كان يجد الطرقات ممهدة والحماية من الاعتداءات عليه"[3].

ونظرا للرغبة الفرنسية في الاستيطان فقد سارعت إدارة الاحتلال منذ 1830 إلى توطين المعمرين على الأراضي الخصبة التي تصادرها من ملاّكها القانونيين بطرق تسمّيها قانونية مستغلة اختلاف أنماط الإرث بين فرنسا والجزائر، حيث

---

(1) أ. مينيي: تهدئة الصحراء 1852 – 1930، بكراسات الاحتفال المئوي، الكتاب الثاني: **La pacification du sahara, 1852 – 1930**. O. Meynier.

(2) المصدر نفسه.

(3) سعد الله: خلاصة ... مرجع سابق، ص 80.

كان يكفي الفرد الجزائري انتقال الملكية إليه أبا عن جد. وباعتبار أن الملكية كانت في غالبيتها المطلقة ذات طابع جماعي فقد نصت القوانين الفرنسية على مصادرتها من أصحابها إن هم لم يسوّوا وضعيتها القانونية في ظرف ثلاثة أشهر، في ظروف في غير صالح الجزائريين، فمنهم من لم يكن يدري أصلا ما الوثائق الإدارية والتسوية القانونية التي تطلبها فرنسا لجدّة الأمر عنه، ومنهم من لم يكن باستطاعته استحضار الوثائق المطلوبة في ظل البيروقراطية الإدارية المتعقدة في ذلك، ومنهم من كان في حكم الغائب من المهاجرين أو الذين التحقوا بصفوف المقاومة... وكان أول قرار سنّته الإدارة الفرنسية للتمكن من الاستحواذ على أراضي الجزائريين هو قرار سبتمبر 1830 الذي ينتزع الأرض من أصحابها، وقرار الفاتح من أكتوبر 1844 الذي تولى الأوقاف والعقار، حيث اعتبر أن الأراضي غير المزروعة أو التي هي غير مسجلة في المصالح العقارية الفرنسية بعقد صريح تتحول مباشرة إلى مصلحة أملاك الدولة (الدومين) التي تصبح سيّدة في التصرف فيها. ولعل أخطر هذه القوانين جميعا هو ذلك القانون الذي أصدره الحاكم العام راندون في 16 جوان 1851، والذي يخوّل لفرنسا حق السيطرة وملكية أراضي العرش. وإذا كان راندون يتلذّذ بمحاصرة الجزائريين وحشدهم بالمحتشدات وإرغامهم على ترك الأرض، فإنه هذه المرة استجاب أيضا لمطالب المعمرين الذين قد طلبوا المحال من الطلب حين ضغطوا على الحكومة للتحديد للأعراش الأرض التي تكفيهم(؟) ثم جبرهم على التنازل عن الباقي ومحاصرتهم ودفعهم إلى التخلّي عن أراضيهم[1]. وهكذا صادرت الإدارة الفرنسية الأراضي الخصبة من أصحابها وألحقتها بمصالح الدومين أو وزعتها على المعمرين المستقدمين، كما رخّصت لمصالح الدومين أن تضم أملاك الأوقاف في سابقة خطرة "بدعوى أن الإسلام دين ودولة، وأن الدولة (فرنسا) هي التي لها حق صيانة وتسيير شؤون

---

(1) أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية. ج1 ق2. 1860 – 1900. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 2000. ص 26 – 28.

الوقف". وأصبح الجزائريون تبعا لهذه السياسة أجراء لدى المعمرين أو خماسين وحتى بطالين أيضا".

ولذا كان هذا هو مجمل ما يتعلق بالأرض والوقف فإن الإدارة الاستعمارية، وبعد أن جعلت الفرد الجزائري غريبا على أرضه حينما حظرت عليه الرعي واستغلال الغابات، أرهقت أيضا كاهله بأنواع كثيرة من الضرائب، كان أبرزها الضريبة العربية وهي التي يدفعها الجزائريون دون غيرهم من المعمرين، وكانت الغاية منها إرهاق كاهل الجزائريين وتجريدهم من ثرواتهم بأساليب قانونية، فأضحوا يدفعون الضريبة الدينية من زكاة وعشور، ويزيدون عنها الضريبة عن الحيوانات التي تختلف حسب النوع وحسب ما تقدره مصالح المكاتب العربية فالجمل مثلا ضريبته أربع فرنكات وثلاثة عن البقر و0.15 فرنكا عن الماعز أما الخراف فالضريبة عنها 0.20 فرنكا. هذا إضافة إلى ضرائب الحكور (وهو العشر من مدخول الكراء من أرض الدولة (البايلك) بعد أن كانت أراضي عرشية تحت السيطرة عليها)، كل ذلك مع ضريبة اللّزمة المطبقة في منطقة القبائل كضريبة على الرأس، وفي الجنوب كضريبة عن كل نخلة بدلا عن كل رأس. مما اضطر الجزائريين إلى دفع أكثر من 18 مليون فرنك سنويا خلال الفترة الممتدة بين 1851 و 1866 مثلا(1).

4. قدوم أوربان إلى الجزائر:

في شهر ماي 1836 عاد أوربان خائبا من تجربته في مصر، ولكنه كان مغرما بحب الشرق وكيفية الوصول إلى تحقيق التقارب بينه وبين الغرب. إلا أن قدرات أوربان كانت دون ذلك بكثير، ولذا فكر بأن يعود إلى أجواء التشرّد الأدبي من جديد، وأن يمتهن التجارة أو المسرح أو الصحافة أو الرواية، فطلب من صديقه ديشتال أن يعينه في ذلك فجمعه بإحدى كبيرات المسرح آنذاك وهي "ماري

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع نفسه، ص 76.

دورفال" *"Marie Dorval"*، لكن هذا المشروع سرعان ما تبخّر[1]، فعاد أوربان من جديد إلى الكتابة في صحيفة "الزمن" *"Le Temps"* و"مجلة القرن 19" *"La revue de 19 siècle"* وصحيفة "العالم" *"Le Monde"* إضافة إلى صحيفة "القانون" *"La Loi"* وصحيفة "دستور 1830" *"La Charte de 1830"* وصحيفة "المخزن العجيب" *"Le Magazin pittoresque"*[2].

وفي إطار التهيئة للمشروع الكبير "المشروع السانسيموني" وبتأثير من الصديق ديشتال الذي يرى في أوربان الشخصية المؤهلة للقيام بهذا الدور في الشرق، طلب أوربان من ديشتال أن يتوسّط له للتوظيف بالشؤون الخارجية للعمل ككاتب عند ديفييري إلا أنه أجابه بأن مكانته كبائس فقير عجز عن تجديد القبعة أو الحذاء، لا يتناسب مع الطموح الذي يصبو إليه في عالم الرفاهية والغنى، ونصحه بأن يتوجّه إلى الجزائر التي سوف يحقق حلمه بها، خاصة وأن أوربان كان يتطلّع إلى اكتشاف الشرق انطلاقا من الجزائر. فكانت الجزائر إذا طموحا لدى أوربان ووجد من يدعّمه في ذلك "ديشتال" في الرسالة الهامة التي بعثها له[3]، والتي نبّهه فيها بألا يقبل الذهاب إلى الجزائر فحسب، وإنما لابد من العمل في الجيش، ومن اعتماده على حماية الوزراء له، لأن المستقبل بالجزائر للضباط الشباب من أمثاله، كما هو الشأن بالنسبة للاموريسيير، وبذلك يستطيع أن يفرض وجوده ويمكّن لنفسه ويمحو عقدة ميلاده التي يعاني منها.

استغل السانسيمونيون تعيين الجنرال "بيجو"[4] بوهران سنة 1837 فتوسطوا

---

(1) رسائل ديفييري إلى أوربان في 03، 28 أفريل، 04 ماي 1836. ـ ميشال لوفالوا. مرجع سابق، ص 39.

(2) المرجع نفسه. ص39 .

(3) رسالة ديشتال إلى أوربان في 15 أوت 1836. ـ ميشال لوفالوا، مرجع سابق. ص 34.

(4) رقّي إلى رتبة ماريشال فرنسا في 310جويلية 1843، حارب قبل مجيئه إلى الجزائر في إسبانيا

لأوربان عنده، وعند وزير الحربية "البارون برنارد" *Baron Bernard*"، الذي قدّم له أوربان نفسه كـاسبموني يعرف الشرق جيدا، من خلال تجربته في مصر، ومخالطته العرب والمسلمين، واطّلاعه على الكثير من عاداتهم وتقاليدهم، وأنّه يفهم اللغة العربية جيدا وخاصة اللهجة المصرية التي لا تختلف كثيرا عن اللهجة الجزائرية. ويبّن له أنه امتلك الشجاعة الكافية حين اعتنق الإسلام من أجل كسب ثقة العرب واكتشاف أسرارهم وحتى لا يخفوا عنه شيئا. فأعجب به بيجو وتمسّك به ليعضده في مهمّته بوهران، خاصّة وأن الجيش الفرنسي مقبل على استراتيجية جديدة وهي تعويض المترجمين الشرقيين بالمترجمين ذوي الأصل الفرنسي[1]، كما لعب البرلمان دورا مهما في تدعيم المرشح أوربان لتولي دور الترجمة، وخاصة عن طريق "واران" "*Warein*" و"بييرون" "*Piéron*" و إيميل بارو بتوسّط من" شارل بليشون" "*Charles Plichon*" الذي كتب أيضا إلى الوزير تأييده لأوربان على أساس الصفات المذكورة سابقا. أما بارو فقد كتب رسالة مطوّلة – على شكل تزكية شخصية – يدعّم فيها أوربان، ومما جاء فيها: " هيئة مشرّفة وقلب طيب مع ذكاء متّقد، إنه جذاب لكل شيء"[2].

وبفعل هذه المحاولات كتبت الوزارة بتاريخ 18 مارس 1837 إلى المعنيين الثلاثة: أوربان والحاكم العام وبيجو رسالة جاء فيها: "إن أوربان قد تم تعيينه كمترجم لجيش إفريقيا"[3].

---

(1) ميشال لوفالوا، المرجع السابق، ص 40. ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن فرنسا اعتمدت في بداية احتلالها للجزائر على مترجمين من الشرق من أمثال "بنيامين فانسين" "*Benjamin Vincent*" و"براهام دانينوس" "*Abraham Daninos*" و الدمشقي " شارل زكّار" "*Charles Zeccar*"... لمزيد من المعلومات حول المترجمين وتعليم اللغة الأوروبية للأوروبيين يراجع: هنري ماتي، مصدر سابق، ص 02.

(2) رسالة أوربان إلى وزير الحربية، مصدر سابق.

(3) ميشال لوفالوا، المرجع السابق، 40. أما الحاكم العام الثالث فهو شارل ماري دونيس دامريمون

ويبدو أن أول رد فعل لأوربان حول هذا التعيين هو قوله: "يجب أن تكون الجزائر المدرسة التي تحضّر فيها فرنسا تدخّلها الواسع في الشرق، وأن الرجال الجدد سيتكونون في الجزائر وأنا مسرور باعتباري واحدا منهم"[1].

وفي إطار التحضيرات لالتحاقه بمهمته الجديدة بالجزائر، استُدعي إلى الوزارة بتاريخ 04 أفريل 1837 حيث تلقى الأمر بالذهاب مع الجنرال بيجو إلى وهران، فأبحر من مرسيليا إلى تولون يوم 15 أفريل، ثم انتقل على متن الباخرة "النسر" "*Le Vautour*" إلى ماهون" ومنها إلى الجزائر التي دخلها صباح يوم 22 أفريل 1837 حاملا أمر تعيينه في رسالة من "لامورسيير" إلى مدير المكاتب العربية "بيليسي"، ومما جاء فيها: "... عزيزي بيليسي، شاب سانسيموني سابق يسمى أوربان أُرسل كمترجم من قبل الجنرال بيجو، قضى عدة سنوات بمصر، إنه لا يتقن اللغة العربية فحسب ولكنه مسلم أيضا، شارك العرب والمسلمين ما عاشوه، وهذا ما جعله يتناول فكرة الصراع المسيحي - الإسلامي ويطرحها طرحا فلسفيا، وهو مثلك في فهمك لقضية الشرق والغرب ومستقبلهما، لقد قرر أن يسخّر حياته لإنجاز الاتحاد الذي أعلنته أنت، سيكون مفيدا لك في إفريقيا. إنه يسعى لأن يحافظ على وضعه كمسلم، يلبس اللباس ويمارس الشعائر حتى يبيّن للعرب أنه بالإمكان أن يكون فرنسيا ومسلما في آن واحد... . وهو من أحسن ما أنجبت الحركة السانسيمونية من أمثال ميشال شوفالييه وديشتال... إنه يريد التعرّف عليك والتقرّب منك. متعوّد على الكتابة، حاول أن تتعرّف عليه وتسمع

- "*Damrémont*" من مواليد 1783 بفرنسا خرّيج مدرسة فونتان بلو. تولّى القيادة في جيش إفريقيا منذ 1830 وأصبح جنرالا ثم عيّن حاكما عاما لممتلكات فرنسا في شمال إفريقيا. قاد الحملة الفرنسية الثانية على قسنطينة في أكتوبر 1837 وحينما كان واقفا يعاين الأمور بواسطة منظار أصيب إصابة بليغة بطلقة مدفع فسقط ولفظ أنفاسه. ينظر: المركز الوطني للدراسات والبحث. مرجع سابق.

(1) رسالة أوربان إلى أونفونتان بتاريخ 01 أفريل 1837 . ميشال لوفالوا. مرجع سابق. ص 41.

ما فيما يخص القضايا المصيرية.. تحياتي الخالصة". لاموريسير[1].

وجدير بالذكر هنا التذكير بأن لاموريسير لم يكن غريبا عن الفكر السانسيموني، بل كان أحد رواده في الجزائر، ومن أوائل من حاول تطبيق هذا الفكر كمشروع استعماري يربط الجزائر بفرنسا ويربط الشرق بالغرب. وكان قد رأى في أوربان الشخصية الملائمة لتحقيق هذا الهدف من خلال فهم أوربان للغة العربية عامية وفصحى، واقتناعه بالمنهج السانسيموني في بسط الاستيطان واعتناقه الإسلام ورفض التمييز بين أسود وأبيض، إلى جانب ثقافته الواسعة حيال قضايا الشرق عموما.

وبالتالي من الأصوب ألا نرى هذه الرسالة فقط على أنها رسالة حكومية تحمل تعيين المترجم أوربان بالجيش الفرنسي في الجزائر، وإنما لابد أن نراها أيضا على أنها وسيلة لبث الفكر السانسيموني في أوساط الأهالي والمعمرين من خلال التمكين لشخصية أوربان[2].

5. نشاطات أوربان بالجزائر

الترجمة: أفريل 1837 – جانفي 1845

أول ما التحق أوربان بالجزائر عين مترجما في اللغة العربية بجيش إفريقيا في فيفري 1837 كما مر بنا، ومن أجل ذلك حط الرحال بالجزائر في شهر أفريل الموالي، وتقلد منصبه بصفة رسمية في الثاني والعشرين منه إلى جانب الجنرال بيجو الذي كان آنذاك يقود سياسة الأرض المحروقة. ومن الأحداث الهامة التي حضرها أوربان وهو في بداية عهده توقيع معاهدة التافنة في 30 ماي 1837 وقد

---

(1) رسالة لاموريسير إلى [illegible] بتاريخ 07 أفريل 1837، ميشال لوفالوا، المرجع نفسه، ص 29.

(2) للمزيد من المعلومات حول منهج السانسيمونيين في الجزائر، ينظر كتاب: إيميريت. مصدر سابق، ص 135 وما بعدها.

يكون هو من تولّى عملية الترجمة، لأنه يعترف بأنه كان يكتب رسائل الجنرال بيجو وغالبا ما يبقى في المعسكر حين يخرج الجنرال على رأس كتائب جيشه[1].

ولكنه لم يطل المكوث بوهران التي غادرها باتجاه العاصمة في فيفري 1838 رفقة الجنرال أوفراي "Auvray" ومن ثم إلى تونس في مهمة لشراء أنواع من الخيول الجيدة مرورا بعنابة التي قطن بها مدة قبل أن يعيّن رسميا بقسنطينة.

وخلال الفترة الممتدة بين فيفري 1838 و جوان 1842 مارس أوربان مهام الترجمة لدى جنرالات آخرين وهم أوفراي 1838 وأورليان "Orléans" 1839 وروميني جانفي 1842، وقد يكونون هم الآخرون استفادوا من أفكاره، خاصة وأن أوربان بنباهته قد أصبح على دراية كبيرة بشؤون الأهالي وأصبح مترجما ومستشارا لمسؤوليه، هذا إضافة إلى خوضه ميدان الحروب رغم قناعته بعدم جدوى سياسة السيف ورفضه لها علانية. ورغم اهتمامه بمهمته الأساسية المتمثلة في الترجمة إلا أنه شارك في بعض المعارك في كتائب الجنرال بيجو ضد الأمير عبد القادر، وربما قام بذلك ليحافظ على مكانته وهو حديث عهد بالجزائر لأنه يؤمن أن المكانة بالجزائر للعسكريين. كما عاد أيضا لتدبير الحروب مع الدوق دورليان في سبتمبر 1839 ضد جيش الأمير مما يؤكد لنا أن الأمير لم ينقض معاهدة التافنة وإنما فرنسا هي التي نقضتها بتدبير من أوربان، مما نتج عنه استئناف الأمير الجهاد في 28 أكتوبر 1839. قبل أن يعود إلى قسنطينة في 20 نوفمبر من السنة نفسها، إلا أن قيادة الأركان العامة بقيادة الدوق دورليان أمرته أن يغادر قسنطينة فورا للالتحاق بالحملة التي بعدها أورليان نفسه على المدية، ورغم تنفيذ أوربان الأمر إلا أنه تعذر عليه المشاركة في أحداثها، إذ أنه لم يتمكن من إدراك الغزاة فانتظر عودتهم وشرح للدوق أسباب التأخر فقبل عذره وعزّفه

---

(1) أوربان، السيرة الذاتية، مصدر سابق، ص 105. ومفيد أن نذكر هنا أن بيجو قد استخدم في مفاوضاته مع الأمير كلاً من المترجمين علي القنا والسوري إبراهيم السغل حسب ما ذكره أوربان نفسه في هذا الموضع من الكتاب.

بالدوق دومال "Aumale" ثم سمح له بالعودة إلى قسنطينة بتاريخ 29 ماي 1840.

واصل أوربان حملاته وهو بقسنطينة فشارك مع الجنرال (غالبوا) في إخضاع القبائل الثائرة في منطقة سطيف والحراكتة واستكمل مهمته هذه مع خلفاء غالبوا وهما الجنرال نيغريي ومن بعده الجنرال رومينيي، قبل أن يكفّ عن المشاركة في العمليات العسكرية ويلتزم مهمة الترجمة حين عُيّن إلى جانب الجنرال شانغارني بالبليدة.

بعد فترة 1840-1843 التي اضطر فيها أوربان إلى التنقل بين المدية والبليدة ووهران عاد من جديد إلى قسنطينة في مهمة الترجمة لدى الماريشال فالي الذي كان قد عيّن لتوه واليا عليها من أجل تنظيم الإدارة بها وهو العمل الذي شاركه فيه أوربان، وواصله مع الجنرال غالبوا من بعده كما رأينا منذ قليل.

ويتضح لنا من خلال هذه التنقلات أن الأوامر الكثيرة التي كان أوربان يتلقاها والتي جعلته في هذا التنقل الدؤوب من إقليم إلى آخر، ماهي إلا دليل على أن أوربان لم يكن مجرّد مترجم بل مستشارا أيضا وخبيرا بطرق إخضاع الشعب الجزائري، وهذا ربما دليل أيضا على دهائه السياسي الذي جعل مسؤوليه يرتاحون للدور الذي كان يقوم به، ولذا كتب يقول عن تعيينه إلى جانب الدوق دومال بقسنطينة في نوفمبر 1843 ما يلي: "عيّنت مترجما لديه (أومال) وأنبأني بحماس شديد عن رغبته في تنظيم وتهدئة الإقليم" ثم أضاف "... وأصبح يستشيرني ويأخذ برأيي"[1]. ولاشك في أن هذه الاستشارة هي دليل على رغبة الدوق في الاستفادة من آراء مترجمه التي رآها تخدم مشروع الاحتلال وتسهّل عملية تنفيذه خاصة وأن الأنظار متجهة إلى الحملة على بسكرة والعمل على فتح جبهة الصحراء، كيف لا ودور أوربان في الحملة على زمالة الأمير قبل نحو ثلاثة أسابيع وتخطيطه لإخضاع منطقة سطيف والحراكتة غير بعيد، وذلك ما أهّله لينال

---

(1) أوربان، السيرة الذاتية، المصدر نفسه، ص 11.

رتبة مترجم رئيسي مكافأة له[1].

ترقى أوربان إذا في مهنة الترجمة هذه فبعد أن دخل الجزائر مترجما من الدرجة الثانية نال الدرجة الأولى بعد نجاح العمليات العسكرية سنة 1839 ثم مترجما رئيسيا سنة 1843 بعد الحملة على الزمالة ممّا يوحي أن هذه التتويجات ليست عفوية ولا بمحض الصدفة وإنما نظير دور خطير قام به لإنجاح هذه الحملات الإبادية حتى ولو عمل أوربان على تبرئة ساحته من المجازر التي ارتكبتها فرنسا في حق الأبرياء خلال حملات جيشها على المدية والبليدة... والتي كان بيجو ودينيغريي أبطالا لها ضد العزّل والنساء والولدان. ويبدو تبرير أوربان حين يخبر على استحياء أنه أخذ عطلة نقاهة مع نهاية سنة 1838 كما أخذ عطلة طويلة المدى على مدار سنة 1841. ولم تتوقف تتويجات أوربان فقد نال أيضا وسام الشرف في 30 جوان 1844 بعد احتلال بسكرة ومنطقة الزيبان[2].

ولا يمكن أن نتكلم عن الترجمة دون الإشارة إلى علاقتها في ربط الصلة بين أوربان والمجتمع الجزائري، إذ إن هذه المهنة مكّنته من التعرّف على السّيّدة المطلّقة جرمونة بنت مسعود الزبيري ليربط معها ميثاقا غليظا حين اتخذها زوجة له، ولعل ذلك يدلّنا على أن أسرة جرمونة كانت، على الأقل، تعرف شيئا ما عن شخص أوربان، ولا نظن أن عائلة محترمة ترضى بتزويج ابنتها من " كافر" مراعاة لعدة اعتبارات دينية وحضارية ووطنية واجتماعية، ممّا يرجح فرضية علم عائلة جرمونة بإسلام أوربان، خاصة وأنه رجل اجتماعي نشيط لتحقيق فكرة التقارب بين الشرق والغرب ومرتدٍ اللباس العربي الإسلامي[3].

---

(1) أوربان. السيرة الذاتية. المصدر نفسه. ص 111.

(2) المصدر نفسه. ص 36 – 37.

(3) تزوج أوربان من جرمونة زواجا إسلاميا أبرم عقده القاضي المسلم بقسنطينة في 28 مارس 1840 وأنجبا بنتا سمّاها بابة، ولدت أثناء عمليات إخضاع متيجة وضواحيها ولذا كان مسقط رأسها =

الشؤون الأهلية: مارس 1845 – ديسمبر 1860

توطدت العلاقات بين أوربان والأسرة الحاكمة بفرنسا منذ 1843 حتى
تناول أوربان وجبة غداء في البلاط الملكي، ففتح له ذلك مجال توسيع علاقا
أكثر مع كبار العسكريين خاصة بعد أن أصبح على دراية كبيرة بشؤون الجزا
المستعمرة، وعرف مفاصل تمرير المشروع الاستيطاني الذي كان يشترك فيه مع
الإدارة حتى ولو اختلفت الأساليب في كيفية التعامل مع الجزائريين، وكان تمكّ
هذا قد جعله محل استشارة مسؤوليه، كما مرّ بنا، وها هو الجنرال يبدو يستفيد
من خبرة أوربان الذي كان من مقربي الدوق دومال ومترجمه بل مستشاره غير
الرسمي، فكتب أوربان حول الحملة على بسكرة مايلي: "وقد كنت أشرح له
(يقصد) الأفكار التي تحدد السياسة العامة للدوق دومال (حاكم قسنطينة والقائد
العام للحملة) لتنظيم القبائل الأهلية" مع العلم أن هذه الأفكار كانت وليدة
اقتراحات أوربان باعتبار أن أومال كان يستشير مترجمه في كيفية إخضاع

مالطية بتاريخ 19 جانفي 1843 أصيبت الزوجة بمرض جلدي عضال انتهى بها إلى الوفاة بعد
ذلك في 30 جانفي 1864. أما بابة فتزوجت من السيد إيفس شاريي "Yves Charrier" ابن
رئيس بلدية سكيكدة آنذاك الذي كان صديقا لأوربان في 27 سبتمبر 1866 وأنجبت منه هي
الأخرى بنتا في 06 جويلية 1867. ويبدو أنها عاشت مسيحية وعاقة لوالديها اللذين يريدانها
حنيفية مسلمة لأن أوربان أبدى اشمئزازه منها في بعض كتاباته بالسيرة الذاتية بسبب صدامها
معه حول تلك النصائح التي كان يقدمها لها. وبعد وفاة جرمونة تزوج أوربان ثانية من الآنسة
لويز لوراس "Louise Lauras" المسيحية في 08 أوت 1867 وهي أستاذة ابنته بابة ولا تكبرها
إلا بسنة واحدة والزم منها زواجا مدنيا ببلدية باريس ثم عقدا بالكنيسة الكاثوليكية بتاريخ 28
كثيرا، عندما قال عنه أوربان إنه تعبير منه على التسامح بين الأديان، وأن ذلك لا يمس إسلامه
شيء. وثانية أرغمته زوجته المسيحية وإسكاتا لأصوات ماكماهون المتحرشة به لكونه مسلما
أنجب أوربان من لوراس هذه ولدا سماه "لوسيد" في 17 فيفري 1871 لم يعمر طويلا حيث
توفي بعد مرض في 15 نوفمبر 1882 فترك جرحا كبيرا لم يلتئم والذي معه إلا إيمانه بالله كما جاء
على لسان أوربان نفسه هذه المعلومات استخلصناها من مضمون كتاب السيرة الذاتية وكذا
الأحداث الكرونولوجية التي سجلتها آني بوفاتو في نهاية كتابها المذكور.

الأعراش (القبائل الأهلية)[1].

ونظرا لحاجة العسكريين الفرنسيين والحكومة العامة إلى أفكار أوربان ذات الأثر الفعّال في التمكين للاحتلال أسندوا له في جانفي 1845 مهمة العمل بمديرية الشؤون الأهلية بوزارة الحربية بباريس، وباشر مهامه بها رسميا في 18 مارس من السنة نفسها، وكتب أوربان عن ذلك فقال: "... ولذا (الدراية الكبيرة بشؤون الأهالي) تبوّأت فيما بعد مكانة هامّة في إدارة الشؤون الأهلية إذ لم أكن مجرد مترجم كبقية زملائي وإنّما عُيّنت رسميا مع نهاية شهر جانفي 1845 بمديرية الشؤون الأهلية بباريس"[2].

وخلال هذه المرحلة أصبح أوربان ذا نشاط ميداني محتك بالشؤون الأهلية مباشرة، وبأمر من وزارة الحربية قام أوربان بزيارات تفقّدية لمعاينة أوضاع الأسرى الجزائريين والعرب بصفة عامة، الذين كانت قد حكمت عليهم إدارة الاحتلال، طغيانا وظلما، بالنفي والتشريد، فزار مركزي سان مارغريت وحصن بريسكو خلال سبتمبر 1846، كما عاود زيارة سان مارغريت في جوان 1847 بأمر من الدوق دومال، وأخرى ثالثة في 19 أوت 1853. وممّا لاشك فيه أن غايات أوربان من وراء الاحتلال تجد في مهمته في إدارة شؤون الأهالي فرصة أكبر لتجسيدها مقارنة بمهمة الترجمة التي تحدّ من دوره في تحقيق طموحاته هذه. ولذا يشير أوربان إلى أن نجاح الجمهورية الثانية سنة 1848 كان صدمة لآماله وهو (أوربان) الذي يمقت النزعة الليبرالية للجمهوريين والمتخوف قطعا من انفلات الأمور من أيدي العسكريين فتضيع مكانته بالخصوص. ولكننا ننبه إلى أن أوربان لم يتخذ موقف معارضة من الجمهوريين في وقت كان يستطيع ذلك حينما انقسم تيار السانسيمونيين على نفسه إلى تيارين أحدهما يريد السلطة

---

(1) أوربان، السيرة الذاتية، المصدر نفسه ص 111 – 112.
(2) المصدر نفسه ص 112.

بالتمكين للعنف والقوة بفرنسا، والثاني يطمح إلى التركيز على العمل القاعدي واحترام الحرية والسلم والهدوء مع تشجيع الكفاءات على العطاء ودعم مبادراتها الفردية وتوظيفها، وهو التيار الذي التزمه أوربان[1].

و إذا كان أوربان قد اهتم بالمنافي والمنفيين فإن زيارة كبير المنفيين الجزائريين آنذاك الأمير عبد القادر كان من أوجب الواجبات عليه، ولذا تكررت زياراته إليه بداية من جوان 1849 وتبادل معه الرسائل، بل وأصبح على قسط من المودة خاصة وأن الضابط المكلّف بحراسة الأمير وهو النقيب بواصّونيه "*Boissonnet*"[2] كان صديقا لأوربان.

أشار أوربان إلى بعض زياراته إلى الأمير (يطلق عليه اسم الحاج عبد القادر) ولكن دون أن يطلعنا على محتوى المحادثات، ومنها زيارة تمت خلال شهر ماي 1850 وأخرى في شهر أوت من السنة نفسها[3]. ولكننا إذا عدنا إلى ظروف الحكم في فرنسا مع بداية الخمسينات نجد أن الجمهورية الفرنسية كانت قاب قوسين أو أدنى من التحوّل إلى الإمبراطورية (التي أُعلن عنها في ديسمبر 1851)، ولذا يمكن أن نستنتج أن اتصالات أوربان بالأمير لعل الهدف من ورائها كان العمل على إقامة مملكة عربية بالجزائر يحكمها الأمير عبد القادر تحت سلطة الإمبراطور نابليون الثالث، وهي الفكرة التي أثيرت فيما بعد من طرف غلاة المعمرين رابطين ذلك بقرار الإمبراطور إطلاق سراح الأمير عبد القادر في 16 أكتوبر 1852، وما لذلك من علاقة بالزيارة التي قام بها أوربان رفقة الجنرال دوماس "*Daumas*" إلى الجزائر للاطّلاع على أوضاع الشؤون الأهلية بها في 09

---

(1) ميشال لوفالوا، مرجع سابق، ص 45 – 46.

(2) لمزيد من الاطّلاع على هذه الشخصية ينظر لاحقا.

(3) أوربان، السيرة الذاتية، مصدر سابق، ص 113.

و10 سبتمبر 1851، ثم العودة بعدها مباشرة لزيارة الأمير بأمبواز[1].

ومع تأسيس وزارة الجزائر والمستعمرات في جوان 1858 واصل أوربان مهامه المتعلقة بالشؤون الأهلية، إذ عُيّن في الفاتح من سبتمبر رئيسا لمكتب الشؤون الأهلية مقابل أجرة قُدّرت بـ 6000 فرنك فرنسي، تحت الإدارة المباشرة للكولونيل فرانكونيار" *Franconière*"الذي تربطه بأوربان علاقات حميمية"[2]، انتهت إلى رفع قيمة الأجرة إلى 6500 فرنك مع غرّة سنة 1860. وقد وصفه أوربان بقوله: "كنت معجبا بالكولونيل فرانكونيار فهو قائد محترم، اتخذ منّي صديقا وعملت معه من كل أعماق قلبي". وذلك على عكس علاقاته مع الجنرال دوماس الذي كان من المفروض أن يكون على علاقات طيبة معه لضمان السير الحسن لشؤون الأهلية، فقد وصفه أوربان بقوله: "عملت مدة سبع سنوات تحت إمرته (دوماس) ولم تجمعني به صداقة ولم يكافئني يوما"[3]. ولعل ذلك ما جعلنا لا نرى كبير أثر لأوربان في فترة إدارة دوماس للشؤون الأهلية، فربما كان أوربان فاعلا بينما كان دوماس مستأثرا بكل ما نُسب إليه تاريخيا من أعمال خلال إدارته تلك، ولكننا لم نتمكّن من إثبات رأينا هذا لعدم إشارة أوربان إليها في كتاباته. وقد استمرّ أوربان في مهمته هذه إلى غاية حلّ وزارة الجزائر والمستعمرات رسميا وإعادة تأسيس الحكومة العامة في 24 نوفمبر 1860.

وفي هذه المرحلة الأخيرة، وهو رئيس لمكتب الشؤون الأهلية أخذ أوربان عطلة قضاها في نويي " *Neuilly*" بضواحي باريس، وهناك ألّف كتابه الهام "الجزائر للجزائريين" وهو الكتاب الذي خرج إلى السوق في نوفمبر 1860 وتلاه مباشرة نهاية عهد وزارة الجزائر والمستعمرات ونهاية مهمة أوربان بها، وتحوّله

---

(1) أوربان. السيرة الذاتية. المصدر نفسه. ص 47- 48.

(2) المصدر نفسه. ص 54.

(3) المصدر نفسه. ص 116.

إلى الاستشارة بالحكومة العامة مكلّفا بالشؤون الأهلية. وقد يجعلنا هذا نستنتج أن كتاب الجزائر للجزائريين قد يكون أثر على الإمبراطور فأصدر قرار حل الوزارة، وهي التي كانت تمكّن للمدنيين الذين هم خصوم أوربان وأطروحات نابليون في سياسة المملكة العربية، وهذا ما ذهب إليه أوربان نفسه حين كتب: "حصل لي شرف الالتقاء بالأمير جيروم مرة أو مرّتين حين كان مسؤولا عن وزارة الجزائر، وقد تميّز بفتح الحرية أمام الجميع، فكنت أدلي برأيي بحرية تامة ولكن سرعان ما أنفذ قراراته بوفاء كبير، وهي القرارات التي كانت تتناقض مع أفكاري الشخصية"[1]. ولعلّه مما يبيّن دور كتاب أوربان في إنهاء وزارة الجزائر والمستعمرات وعودة الحكومة العامة، إضافة إلى ما ذكرنا، هي قناعة الإمبراطور بالأفكار التي جاء بها والتي هي متناقضة مع أطروحات الوزارة، ثم تقريبه لأوربان منه شخصيا واعتماد أفكاره في مراسلاته الرّسمية إلى حكام الجزائر كما حصل في رسالتي 1863 و 1865، بل والدفاع عن بقاء أوربان بالجزائر.

الاستشارة بالحكومة العامة : ديسمبر 1860 – أكتوبر 1870

ربما نرى أنه من المفيد الإشارة إلى أن عهد أوربان بالاستشارة بهرم السلطة ولو بصفة غير رسمية لم يكن وليد أواخر 1860، وإنما كان بتاريخ 28 سبتمبر 1847 على إثر تعيين الدوق دومال حاكما عاما للجزائر، وهو الذي استعان بأوربان وجعله من مقرّبيه، والهدف واضح وهو الترجمة والاستشارة، خاصة وأن الرجلين يعرفان بعضهما بعضا من خلال المهام التي مارساها معا حينما كان أومال على رأس ولاية قسنطينة بداية الأربعينيات، وكان قد استفاد من آراء مترجمه المستشار، ولذا كافأ أومال مترجمه في الفاتح من سنة 1847

---

(1) أوربان، السيرة الثانية، المصدر نفسه، ص 60. وتشير آن لوفالوا إلى أن أوربان التقى الأمير جيروم مرّتين كانت الأولى في جوان 1858، أما الثانية فكانت في 07 مارس 1859 أي قبل أن يعوّض جيروم بشاسلو لوبا. المصدر نفسه، ص 59، الهامش 109.

https://t.me/montlq

بالتوسط له لنيل وسام الشرف التونسي وهو ما تم فعلا[1].

ولعل أول حدث هام شهده أوربان وهو بالقرب من الحاكم العام أومال هو استسلام الأمير عبد القادر في 24 ديسمبر 1847، وربما كان أوربان فاعلا في العملية، أو على الأقل كان مترجما لأنه كان حاضرا أثناء عملية الاستسلام.

وكان التعيين الرّسمي لأوربان في مهمة الاستشارة بتاريخ 16 ديسمبر 1860، حين عُيّن مستشارا مقرّرا بمجلس الحكومة العامة، التي عادت من جديد لتعلن تمكّن العسكريين من زمام الحكم في الجزائر وتحت حاكم جديد هو الماريشال بيليسي المعيّن بتاريخ 24 نوفمبر 1860. وقد قال أوربان عن ذلك: "قضيت مع السيد مارسي (مدير الشؤون الأهلية بالحكومة العامة) وقتا طويلا في مناقشة كيفية تمدين الأهالي، وطلبت منه تعييني مستشارا بالحكومة العامة فأنشأ لي مديرية الشؤون الأهلية تلبية لطلبي وذلك بقرار 16 ديسمبر 1860، وبأجرة 1200 فرنك مع التنقلات المجانية[2].

وإذا كان أوربان قد أدار مكتب الشؤون الأهلية بمقر وزارة الحربية بباريس، فإن مهمته الجديدة بالحكومة العامة فرضت عليه الدخول إلى الجزائر والاستقرار بها بداية من 28 جانفي 1861، ففتح بذلك عهدا جديدا كله حيوية وعزم على ضرورة تحقيق أهدافه بتنفيذ ما رآه مشروع الاحتلال، فسعى جاهدا لبث أفكاره من خلال الرسالتين اللتين بعث بهما الإمبراطور سنتي 1863 و 1865 ومن خلال الأفكار التي قدّمها كمستشار ومن خلال الكتابين الهامّين اللذين ألفهما أو التقارير التي كتبها لكبار المسؤولين العسكريين في كيفية إدارة الحكم بالجزائر.

وكشف أوربان عن اختلاف كان قائما بين الإمبراطور نابليون الثالث وبين الحاكم العام راندون حول كيفية تسيير الشؤون الأهلية، كما كشف عن انسداد

---

(1) أوربان. السيرة الذاتية. المصدر نفسه. ص 43.

(2) المصدر نفسه. ص 56.

كان حاصلا في مجلس الحكومة بالجزائر، فأما الاختلاف فكان حول فكرة حشد الجزائريين (القبائل العربية) وتفتيت ممتلكاتهم وهي السياسة التي طرحها راندون فيما رفضها الإمبراطور، وأما الانسداد فكان نتيجة لهذا الاختلاف. وقد ساهم أوربان كمقرر للمجلس في الوصول إلى فكرة معتدلة تحول دون تطبيق أفكار غير راض عنها شخصيا ولم يكن ليرضى عنها الإمبراطور، وتجنبا في الوقت نفسه، لأي تصادم قد يحدث مع الحاكم العام نفسه، وتمثّلت هذه الفكرة في إصدار إجراءات تقتصر على تسهيل انتقال ملكية الغابات من الأهالي إلى المعمرين دون تعميمها على مختلف الأملاك كما كان يريد راندون.

لعبت هذه الاختلافات دورا كبيرا، فيما يبدو، في التأثير على أوربان فجعلته يبحث عن أسباب لعدم حضور اجتماعات المجلس، كما كانت له دافعا قويا للإقبال على تأليف كتابه الثاني " الجزائر الفرنسية"، ونترك القارئ أمام صورة بليغة من تعبير أوربان شخصيا حين قال: "أثناء انعقاد المجلس الحكومي طلبت فترة للراحة لنقل بابة (ابنته) إلى أمها بقسنطينة، وهناك حررت كتابي " الأهالي والمعمرون""[1]. ويبدو واضحا أن الأسباب التي قدّمها تبريرا لغيابه غير مقنعة أصلا، ثم ارتبطت بالمبادرة إلى تأليف كتابه" الجزائر الفرنسية" الذي اعتبره وسيلة لتوضيح الرؤية وإزالة الغموض بشأن الوضع الجزائري.

وتتويجا لنضال أوربان في ميدان الشؤون الأهلية جاءت قرارات الإمبراطور في رسالة 1863 التي تدعو إلى تشارك الأهالي والمعمرين من أجل بناء الجزائر وهي من أفكار أوربان شخصيا. كما قرر الإمبراطور أيضا الإعلان عن المملكة العربية بالجزائر بغية حفظ بعض حقوق الجزائريين على الطريقة التي يراها أوربان واقتنع بها الإمبراطور[2].

(1) أوربان. السيرة الذاتية. المصدر نفسه. ص 64 – 65.

(2) المصدر نفسه. ص 67. أما مصطلح المملكة العربية فقد استعمله الإمبراطور أول مرة في رسالته

وإذا كان الإمبراطور قد أجزل العطاء لأوربان مكافأة له عن تضلّعه في معالجة شؤون الأهالي فيما يخدم المصلحة الفرنسية بسديد رأي وتفانٍ كبير، فإن أوربان كان قد عانى كثيرا من تهجّمات منتقديه على شخصه بسبب آرائه تلك لأنهم اعتبروها " ضجّة ضد الاستعمار الأوربي، خاصة بعد أن ساندهم بعض ضباط المكاتب العربية خدمة لمصالحهم، وهم الذين كان الواجب عليهم الوقوف إلى جانب صف أوربان باعتبارهم في نفس السبيل"[1].

هذه الضجّة جعلت الحاكم العام بيليسيي يطلب من أوربان الاستجابة لآراء غلاة المدنيين ويغادر الجزائر، هذا ظاهريا، أما الأصل فإن بيليسيي هو الآخر كان يرى أن أوربان شخص غير مرغوب فيه، ولا يشاطره أفكاره. إلا أن تدخّل الإمبراطور شخصيا حال دون التحاق أوربان بفرنسا، فراجع بيليسيي نفسه وطلب من الإمبراطور تعيين أوربان قنصلا بإحدى الدول الإسلامية، فرفض الإمبراطور ذلك بشدّة وأجابه: "أن تطلب أن يكون أوربان واليا على إحدى ولايات الجزائر فلا، كُفّ عن مزيد من التهجّم على أوربان. إن أوربان لابد أن يكون على الأقل إلى جانب جنرالاتنا بالجزائر وبصفة دائمة"[2].

-التي وجهها إلى الماريشال بيليسيي نفسه بتاريخ 01 نوفمبر 1861، وتعني المملكة العربية سياسة نابليون الثالث في الجزائر بدعم من أوربان والمدافعين عن بعض مصالح الأهالي. وقد أطلق هذا المصطلح غلاة المعمرين بقيادة الدكتور وارني للطعن في سياسة واستراتيجية الإمبراطور وأفكار مستشاره أوربان، رابطين العلاقة بين رسالة الإمبراطور هذه وبين ما كان يتردد من عودة الأمير عبد القادر إلى الجزائر وإمكانية إدارته لها تحت سلطة الإمبراطور. ينظر: مؤسسة أصدقاء إسماعيل أوربان والدراسات السانسيمونية. السانسيمونيون والجزائر. يوم دراسي. ميشال لوفالوا. الجزائر الفرنسية كما يراها إسماعيل أوربان وبعض المعرّبين.

Société des amis d'Ismayl Urbain et d'études Saint- Simoniennes. Les Saint-Simoniens et L'Algérie. Journée d'études du 25 janvier 2003. Michel Levallois. L'Algérie française d'Ismayl Urbain et des arabophiles. P 63 – 65.

(1) أوربان. السيرة الذاتية. مصدر سابق. ص 67.

(2) المصدر نفسه. ص 67 – 68.

وإذا كانت هذه التهجّمات كلها لم تصدّ أوربان عن عزمه في مواصلة التمكين لأفكاره التي آمن بها، إلاّ أن مجيء ماكماهون على رأس الحكومة العامة ورانلدون وزيرا للحربية قد أثرا على الإمبراطور من خلال فكرتهما القائلة بضرورة تجنّب الصّدام مع الرّأي العام للمعمرين وتجنّب حالات الغضب التي تثيرها أفكار أوربان الذي قال بهذا الصّدد: " حاولت أن أقوم بشيء يخدم الأهالي ويقرّبهم من نيل حقوقهم" ثم أضاف: "... وفي ظل ذلك (التأثير على الإمبراطور) لم أستطع فعل أي شيء"(1).

ولم يكن أوربان يعلم أن هذه هي آخر محطّة له مع الإمبراطور ونظامه على حدّ سواء، حيث استمر في مهمة الاستشارة هذه إلى غاية هزيمة فرنسا أمام بروسيا التي أدّت إلى حل مجلس الحكومة الذي كان أوربان يعمل مستشارا به وذلك في 30 أكتوبر 1870. الشيء الذي جعل أوربان يغادر الجزائر في 08 نوفمبر الموالي باتجاه فرنسا. ولم يعد إلى الجزائر إلا في 17 ديسمبر 1882 رفقة زوجته الثانية (لويز) وقد استقرّ فيها إلى غاية وفاته بها في 28 جانفي 1884. كما أن هزيمة فرنسا أمام بروسيا أدّت إلى سقوط الإمبراطورية الثانية وقيام الجمهورية الثالثة سنة 1871.

6. وفاة أوربان:

من الأحداث الهامّة التي أفادتنا بها لوفالوا في تحقيقها لكتاب السيرة الذاتية إلقاء الضوء على وفاة أوربان. فقد علمنا أن نهاية المسؤوليات الإدارية لأوربان بالجزائر إنما كانت مع سقوط الإمبراطورية سنة 1870 فغادر الجزائر كما سبقت الإشارة. وقد بقي أوربان يكتب في الصحف الفرنسية التي كان يكتب لها من قبل ردحا من الزمن إلى أن اشتدّ عليه الحزن وضاق عليه العالم بما رحب بعد أن فقد ابنه (أوفيد)، فرجع إلى الجزائر في ديسمبر من سنة 1882 أي بعد حوالي شهر من

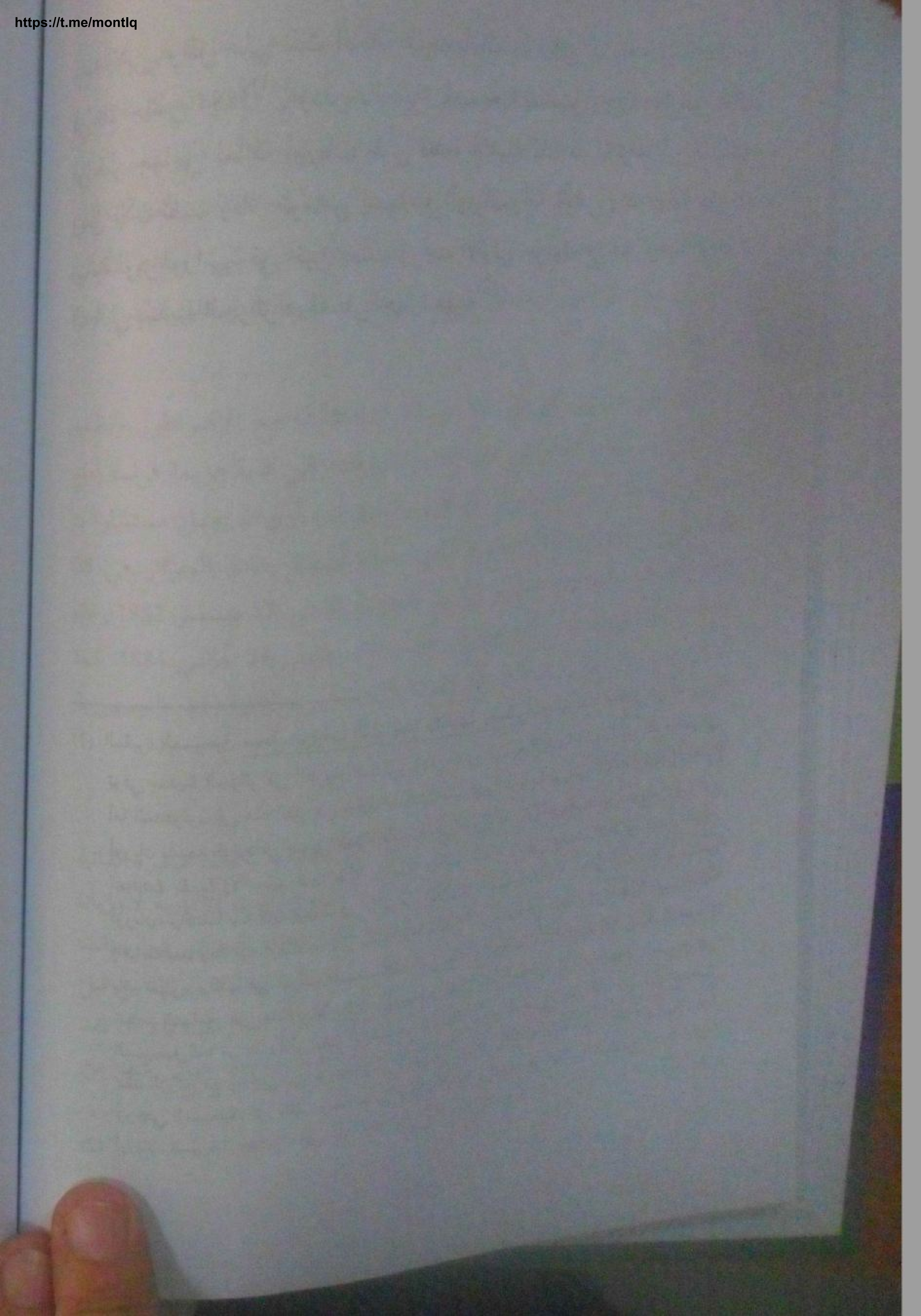
(1) أوربان، السيرة الذاتية، المصدر نفسه، ص 72.

وفاة الابن. وظل على تلك الحالة المعنوية المنهارة إلى أن وافته المنية بالجزائر في 28 جانفي 1884[1]. ودفن بالمقبرة المسيحية بسانت أوجان (بولوغين حاليا) في قبر جماعي لعائلة أوربان، على قطعة أرضية كان قد اشتراها أوربان نفسه، وهي الآن تضم رفاة توماس إسماعيل أوربان وأمه أبولين وابنه أوفيد وزوجته الثانية لويز لوراس. في حين دفنت زوجته الأولى جرمونة في مقبرة عبد الرحمان الثعالبي بمدينة الجزائر دوما. في جنازة مهيبة[2].

---

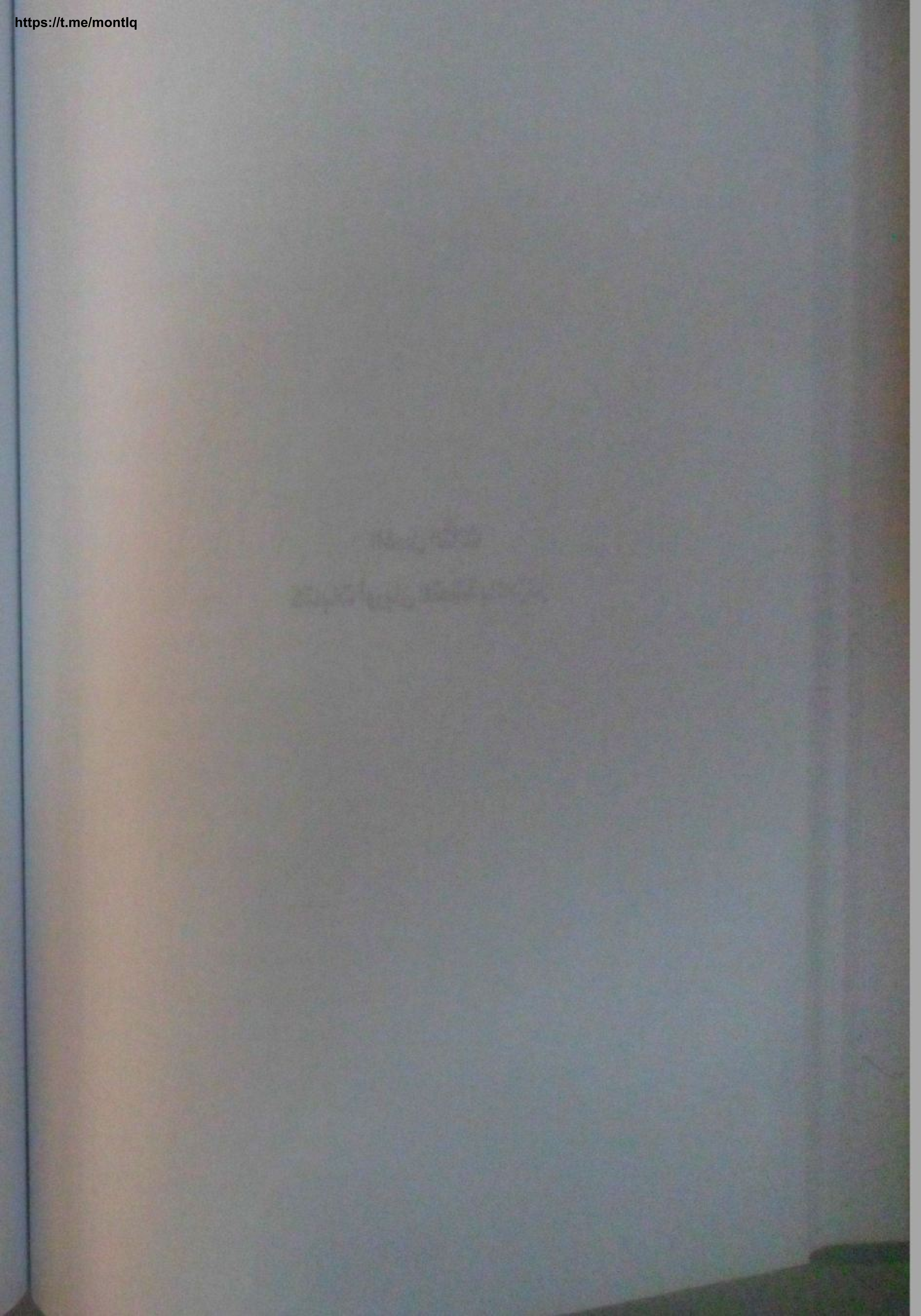
(1) المقبرة المسيحية. سجل الوفيات المتواجدة جثامينهم بالمقبرة. ويشير هذا السجل إلى أن أوربان توفي بمدينة الجزائر في التاريخ المذكور ودفن على الساعة التاسعة صباحا من اليوم الموالي. أما المدفونون في هذا القبر من خلال ما كُتب عليه فهم: الزوجة لوراس، الابن أوفيد، إسماعيل أوربان باسمه الوارد في سجل الحالة المدنية: أوربان أبولين توماس إسماعيل، لوراس لويز لود "*L. L. Laure*"(لا نعلم عنها شيئا حاليا). ولكننا عملنا ما في وسعنا لنتحرى صدق إسلام أوربان، واقتنعنا بأنه كان صادقا في ذلك من خلال ما حملته كتاباته إلى آخر أيامه مثلا يقول عن إحباطه بعد وفاة ابنه أوفيد أنه تأثر تأثرا بليغا ولكن كان سنده في ذلك وعونه على الصبر إيمانه بالله تعالى. ولكننا في الوقت نفسه سجلنا، من خلال البحث، أن أوربان كان بسيط العقيدة و شديد التسامح في علاقة الإسلام بالمسيحية فقال لقد اعتنقت الإسلام دون الخروج عن المسيحية كما مر بنا وقال أيضا أنا مسيحي ومسلم لأنني فرنسي، وقال لقد سمحت بتسجيل عقد الزواج مع زوجتي لوراس بالكنيسة لأنني لا أرى في ذلك تعارضا مع الإسلام وتلبية لرغبة زوجتي المسيحية. كل ذلك، ربما، جعل أوربان لا يوصي بدفنه في مقابر المسلمين.

(2) أوربان. السيرة... مصدر سابق. ص 69.



الفصل الثّالث

كتابات أوربان المتعلّقة بالجزائر



1. الكتب:

1-1- الجزائر للجزائريين L'Algérie pour Les Algériens

صدر كتاب الجزائر لجزائريين سنة 1861[1] تحت اسم مستعار هو جورج فوازين "*Georges Voisin*"، وقد تناول أوربان فيه نظرته الخاصة لمختلف ميادين الواقع الجزائري الحضارية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. فقسّم كتابه هذا إلى مقدمة ومدخل (بين يدي الموضوع) وأربعة فصول تميّزت بالاختصار مقارنة بثراء التاريخ الجزائري سواء قبل الاحتلال أو بما أبداه الشعب الجزائري من مقاومة للاحتلال الذي تميّزت إدارته بسعة وعمق برنامجها الاستيطاني.

خصص أوربان المقدمة لإبراز أهداف الاحتلال، وتناول في المدخل لمحة عن الواقع الجزائر من جميع الجوانب المذكورة آنفا، أما الفصل الأول فخصصه للناحيتين الاجتماعية والثقافية قبل وأثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى غاية صدور الكتاب سنة 1861. في حين خصص الفصل الثاني للواقع الإداري والعسكري بالجزائر، أما الفصل الثالث فتناول فيه التطور الاقتصادي والصحّي ودور فرنسا في ذلك. أما الفصل الرابع فاختار أوربان أن يكون على شكل خاتمة للكتاب مبديا فيه خلاصة عن واقع السكان الأهالي والمعمرين، مسديا بنظرته في كيفية التسيير مبرزا إياها في شكل نقد بنّاء لمراجعة النفس واستدراك الأخطاء.

أما المقدمة فقد أراد أن يقنع من خلالها قرّاء كتابه أن الاحتلال الفرنسي للجزائر قضاء وقدر، وهو تنفيذ للإرادة الإلهية التي اختارت فرنسا لتحضير

---

(1) صدر الكتاب عن مطبعة الإخوة ليفي في 163 صفحة من الحجم الصغير 19 × 14 سم بخط متوسط. وأعاد ميشال لوفالوا طبعه سنة 2000 بنفس المقاييس. جورج فوازين. **الجزائر للجزائريين**.

Georges Voisin. *L'Algérie pour les Algériens*. Michel Lévy frères. Paris. 1861.

الشعب الجزائري المتخلّف(؟) في إعادة لفكرة ممضوغة طالما رفضها أحرار الجزائر وحرائرها. وقد بين أورېان في ذلك معنى الحضارة التي يسعى لنشرها بقوله: "هي العمل على رفع المستوى المعنوي إلى أقصى حد ممكن مع غرس الكرامة (؟) في أوساط العرب (الأهالي) عن طريق التعليم، واحترام عقيدتهم وتوحيد قدراتهم على العمل لاستخراج كنوز هذه الأرض التي خبأتها لنا العناية الإلهية، بعد أن تركتها الحكومة (يقصد الحكومات السابقة) جدباء قاحلة. هذه هي مهمتنا، ونحن لسنا مفلسين"[1].

كما أشار أورېان في مقدمته هذه إلى قضية هامة حين قال بصريح العبارة "إن هذه الأرض الجزائرية لم تكن يوما أرضا فرنسية"[2]، ولا أريد الإطالة في التعليق على هذه الفكرة، وإنما أكتفي بالقول إن الادعاء الفرنسي بفرنسية الجزائر قد أبطله شاهد من أهلها، بل من كبار مستشاريها ومنظري سياستها الاستعمارية. ولكن أورېان أراد احتفاظ فرنسا بالجزائر في إطار مشروع منظّم، وهو المشروع الذي سنبين أهم أفكاره في هذه الدراسة. إذ أنه دعا إلى ذلك بوضوح حين كتب: " فهل أنا بحاجة إلى القول أن حماية الوطن الأم (فرنسا) تقتضي عدم التفريط في الجزائر إلى الأبد؟"[3].

أما المدخل أو بين يدي الموضوع كما سمّاه، فقد بيّن أسس فلسفة أورېان وتنظيره لإقامة سياسة الدولة وأهمها مايلي:

1- التأكيد على التنافر الحاصل بين الأهالي والمعمرين، وعلى الإدارة الاستعمارية السّعي إلى إقامة التجانس بينهما لتجنب المقاومة والثورات لأن الأمن ركن من أركان توطين المستعمرات وتثبيت الاستعمار.

---

(1) جورج فوازين، المصدر نفسه، ص 01 – 02.

(2) المصدر نفسه، ص 02.

(3) المصدر نفسه، ص 02.

2- من أكبر مصالح فرنسا كسب ود الأهالي وثقتهم والعمل على استبدال شعورهم بالكراهية والعداء لكل ماهو فرنسي إلى شعور بالوحدة والتعايش بين الأهالي والمعمرين مع احترام عادات الأهالي وتقاليدهم.

3- إشارة أوربان إلى أنه لا يدعو إلى تمسيح الجزائريين، ولا يرى ذلك من الأولويات. ويمكن اعتبار ذلك صحيحا حين تأليف الكتاب سنة 1861 إذا اعتبرنا أن أخطر حملات التنصير كانت مع الكاردينال لافيجري بداية من 1868 إذا قارناها بسابقاتها. بل ويعتبر أنه من بين أكبر الأخطاء الاستراتيجية أن تتوجه فرنسا إلى التنصير (التبشير كما يسمّيه) لأن القضية قضية سياسية، ولابد أن يتوجّه الفرنسي إلى أداء دوره كل من موقعه لإنجاح مشروع الاحتلال في إطار مضمون الشراكة التي تعني عنده "التعايش والتعاون بين الأهالي والمعمرين في ظل اختلاف العادات والتقاليد والدين". والتي يحدد هدفها الأسمى في "التقدم والازدهار، وأن تحقيق هذا الهدف لا يعني دمج أحد في الآخر، وإنما يتحقق بتنمية القدرات المادية والمعنوية للجميع من أجل وحدة المبادئ والأهداف وليس وحدة الأجساد"[1].

4- يعتبر أوربان التقدم مطمح الإنسانية جميعا شرقها وغربها، وأن الإنسان الأهلي يحمل أسباب التقدم وخاصة الجودة والإتقان، إلا أن ظروفه حالت دون ذلك، في إشارة منه إلى الوهن الذي ضرب الأمة الإسلامية بما فيها الجزائر مثلما نعلّم ذلك من تجربته في المشرق.

5- دعوة فرنسا إلى تفعيل حركية الأهالي وتثمين مجهوداتهم للمضي قدما بعد فترة الفراغ والتخلف التي مر بها العالم الإسلامي. وأن تستفيد من تجارب الأهالي بدلا عن النظرة الاستعلائية الاحتقارية لهم، مذكرا إياها أن التطورات التي حصلت على أرض الجزائر المسلمة لم تحصل على أرض فرنسا ذاتها.

---

(1) جورج فوازين. المصدر نفسه. ص 12.

6- يحذر أوربان الفرنسيين خصوصا والمعمرين عموما من التقاعس عن القيام بواجب نشر الحضارة والعمل بين الأهالي، ويدعوهم إلى الظهور بمظهر القدوة من حيث التطور والازدهار أمام الأهالي، لأن الفشل في ذلك يعني تمرّد الأهالي عن التشبه بالمعمرين بالتشبث بخصائص آبائهم وأجدادهم وعاداتهم وتقاليدهم. وهو يعلن ذلك صراحة على لسان الإنسان الأهلي: "لن أتبع هذه الوجهة"، الوجهة التي تريدها له فرنسا. ويواصل على لسان الأهلي دوما: "إنني أريد أن أكون في الجماعة كتلميذ متمسّك بمعلّمه، على شرط الاحتفاظ بماضيّ، ولن أخالف نمط حياتي"[1].

7- إن أكبر غايات فرنسا هي الوصول إلى تكوين شعب متقن ومتقدم، ولا يكفي الاعتماد على إصلاح الأفراد فحسب، بل إصلاح الجماهير والحياة السياسية للوصول إلى قمة الفعالية من أجل تحقيق الغاية الكبرى التي هي التقدم والازدهار.

أما الفصل الأول فتناول فيه إطلالة على المجتمع والثقافة في الجزائر قبل وأثناء الاحتلال الفرنسي، استهلّه بالتأريخ للمجتمع الجزائري وتشكّله بإفريقيا الشمالية. فرأى أن تواجد العرب بالمنطقة يعود إلى القرن السابع الميلادي قادمين من مصر في مهمة نشر الإسلام، أما الغاية فيتمثلها جمع الغنائم، مشيرا إلى أن هؤلاء الفاتحين وجدوا الاحتلال البيزنطي بالمنطقة وقد لاقوا مقاومة شديدة[2].

(1) جورج فوازين، المصدر نفسه، ص 16.

(2) المصدر نفسه، ص 20. من المفيد هنا أن نشير إلى أن الحقيقة مجانبة لما ذكر أوربان تحت تأثير النظرة الصليبية سواء بقصد أو بغير قصد، وهو الرجل الذي اعتنق الإسلام، لأن السيطرة الرومانية قد اهتزت أركانها، وأن نوميديا التي هي الجزائر حاليا كانت آنذاك مستقلة. ينظر: موسى لقبال، تاريخ المغرب الإسلامي، دار هومة الجزائر، 2002، بد ط. (يشير إلى أنها منقحة)، ص16. كما أن تصريحا كهذا من طرف مستشار في هرم سلطة الإمبراطورية الفرنسية هو تصريح في غاية الخطورة لأنه لا يشير إلى أن السكان الأوائل للمنطقة هم من الأصل الأمازيغي كما

والمتتبع لكتاب الجزائر للجزائريين يتبيّن له أن أوربان أرّخ للجزائر تاريخا عاما منذ القديم، ولكنه متأثر بالنظرة الاستعمارية المتعالية والمجانبة للحقيقة في كثير من طرحها فهو يقول: " يجب أن نعرف أن القبائل الأهلية (الأمازيغ) لم تقبل أبدا بالدخول تحت راية الإسلام عن طواعية، وانتصرت في كثير من الأحيان على الغزاة"[1]، قبل أن يعود ويشير إلى تمكن العرب من المنطقة في غضون عشرين سنة واعتناق الأمازيغ الدين الإسلامي فرارا من أوامر الوندال والبيزنطيين مشكلين بذلك كيانا عربيا أسّسه بداية عقبة بن نافع ومن بعده حسان بن النعمان.

ويشير أوربان باهتمام إلى مرحلة الاستنجاد الجزائري بالإخوة بربروس،

=تتفق في ذلك الدراسات المتعددة، وإنما يركز على التواجد البيزنطي، وأن المقاومة تمت تحت شعار بيزنطة مما يعني أن المنطقة كانت مسيحية، وأن الإسلام دخيل عليها وأن الإسلام دخيل عليها، وأنّ المسيحيين أولى بها، إلى غير ذلك من المخططات الرامية إلى سلخ الجزائر من هويتها الحضارية التي لا تزال بعض الأصوات متمسكة بها إلى غاية اليوم. رغم أن أوربان يصرّح في نهاية المطاف أن المنطقة كانت موطنا للقبائل البربرية (الأمازيغية) التي شكلت الجزائر منذ القرن السادس عشر الميلادي على الحدود التي ورثتها فرنسا. وأن القبائل البربرية رفضت الدخول طواعية تحت راية الإسلام. وحجته في ذلك هي المقاومة التي أبدوها ضد العرب الفاتحين. ولكن يبدو أن أوربان كان يريد، من خلال هذا الطرح، تمهيد الشرعية للوجود الفرنسي كما تواجد غيره من قبل، تماما مثلما أراد أونفونتان قبله كما مر معنا.

(1) أوربان. الجزائر للجزائريين. مصدر سابق. ص 22. إضافة إلى تأثر أوربان بالنظرة الاستعمارية في كتابة تاريخ الجزائر وفهم أحداثه، نجده يستعمل عبارات منافية له كمسلم حين يصف المجاهدين الفاتحين بالغزاة وأن هدفهم هو جمع الغنائم (؟). وقد يكون السبب الذي جعل أوربان يكتب بهذه العبارات (الغزاة، جمع الغنائم) هو أنه لم يتعمق في دراسة التاريخ الإسلامي، وربما كان سبب أحكامه هذه هي حملة الفتح المعروفة باسم " حملة العبادلة" التي انطلقت من مصر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي قضى على البطريق جرجير الثاني قائد جيوش الروم، الذي كان ثائرا ضد الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، ثم سرعان ما استبدل ابن أبي سرح انتصاراته المحققة بالغنائم والمال المعروض عليه وعلى جنده.

معتبرا أن منطقة شمال إفريقيا كانت صعبة بفعل التّشتت ووجود الأسر الثلاثة الحاكمة وهي الحفصية والزيانية والمرينية مذكّرا بالاعتداءات الصليبية الإسبانية والبرتغالية التي جعلت سكان الساحل الجزائري يجدون الحل في الاستنجاد بالإخوة بربروس وفي الأخير بالسلطان العثماني.

ويعتبر أوربان أن الوجود العثماني بالجزائر كان سلبيا في عمومه لمساهمته في تخلّف العالم الإسلامي مع وجود نتائج إيجابية، أهمها أن العثمانيين تمكنوا من القضاء على كثير من أسباب الفرقة بين العرب والبربر على الرغم من أنهم عجزوا، حسبه، عن القضاء عليها، مما جعلهم يعجزون عن تكوين أمة موحّدة مختلفة الأعراق[1].

ويصل أوربان إلى مرحلة الاحتلال الفرنسي الذي يعتبره انتصارا أنه جعل الجزائر ملكا لفرنسا وأصبح العنصران العربي والأمازيغي خلاله على مكانة هامة في تاريخ البلد (؟). وهو في ذلك يأتي بعكس الحقيقة، لأن الكل يعلم تلك الجهود الجبارة التي بذلتها فرنسا من أجل إنجاح سياسة فرّق تسد بين العرب والأمازيغ في الجزائر خدمة لمشروعها الاستيطاني.

ويأتي أوربان إلى ما يتعلق بالمجتمع الجزائري، ففي دراسته للسكان رأى أن الأمازيغ مربو مواش، متمسكون بالسكن بالجبال، هزيلو الثقافة، وليس لهم باع في الصناعة، إلا أنه بالإمكان الوصول بهم إلى حضارة راقية. أما العرب فوصفهم بالرحل والتجار ومربي المواشي خصوصا الإبل، مبينا اهتمامه بهذا الجانب من الدراسة لأنها ذات قيمة في التمكين لدراسة المجتمع الجزائري من أجل إخضاعه، خاصة وأن الطرق المتبعة في الإخضاع لابد أن تختلف من عرق لأخر، حسب خصائص كل عرق. وفي ذلك قال: " إن النظام الذي نتبعه يختلف من عرق لأخر، لأن عملنا من أجل الوصول إلى مستقبل مشترك (بين الأهالي

(1) المصدر نفسه، ص 23 – 24.

والمعمرين) يتطلّب منا تطبيق استراتيجية مختلفة باختلاف العرقين، مع مراعاة درجة التقوى والورع المختلف بينهما، فالبربر أكثر تعصبا للدين من العرب، وأهل الريف وسكان الجبال أشدّ تمسّكا بالملكية الفردية وبمصالحهم المرتبطة بالأرض وأقل تقوى وورع"[1].

كتب أوربان عن الأسرة الجزائرية أيضا ونالت حظها من انتقاداته، فثار على النمط الأسري بالجزائر، واعتبر الأسرة الجزائرية أسرة أبوية بعيدة عن التفتح والاستقلالية الفردية، مفتقدة للحالة المدنية الأساس سواء لما تعلق بالمواليد والوفيات أو الزواج والطلاق، واعتبر ذلك عاملا مساعدا على الانحلال والمشاكل الأسرية خاصة في ظل تعدد الزوجات، وانعدام الألقاب العائلية[2]. ولكنه، في المقابل، سجل إيجابيات لهذه الأسرة حين اعتبرها أسرة متلاحمة الروابط وشديدة الاحترام للوالدين، كما تتمتع بمزايا أخرى كتوقير الكبير والتضامن مع المريض وزيارته والتصدّق على المحتاجين، وخلق الإحسان الذي يطبع المعاملات... . إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة التي جعلت أوربان يخلص إلى أن الكرامة الإنسانية محترمة إلى أقصى حد حتى أنها مست الفقراء والمساكين، ما دفعه إلى مدح الديانة الإسلامية على حساب المسيحية التي قال عنها إنها أهملت كل هذه الجوانب.

ولم يمدح أوربان العقيدة الإسلامية فحسب وإنما مدح أيضا تمسّك الأهالي بها ووصفهم بأنهم "متمسكون بدينهم إلى درجة الاستشهاد من أجله"[3]. معتبرا ذلك عائقا أمام إدماجهم في المجتمع الأوربي. ولذلك دعا إلى ضرورة العمل بسرعة، مستغلا درايته بالتنظيم الاجتماعي وبنية الجزائريين، من أجل

---

(1) المصدر نفسه. ص 27.

(2) المصدر نفسه. ص 32 – 33.

(3) المصدر نفسه. ص 36.

تجسيد مهمة فرنسا التمدينية للجزائر، التي عليها أن تهتم بالتالي:

1- ترويض كل القوى الأهلية الحية وخاصة رجال الدين والقضاة لتقبل السيطرة الفرنسية شاءوا أم أبوا باعتبارهم قادة للمقاومة وأشد الحاقدين على فرنسا بالجزائر.

2- فصل الدين عن الدولة بفصل الشؤون الدينية عن العدالة الفرنسية

3- القضاء على التكامل بين المدرسة والمسجد، والعمل على تحرير التعليم من التأثير الديني، في رفضه للطابع الديني للتعليم الابتدائي.

4- تحرير المرأة والخروج بها إلى العمل معتبرا إياها مستعدّة لأعمال كثيرة كالدراسة والخياطة.

أما القضاء الإسلامي فلم يسلم هو الآخر من انتقادات أوربان، فحكم عليه بالبساطة، داعيا إلى إصلاحه فأسند للمخابرات العامة والعدالة والقضاة الفرنسيين مدنيين وعسكريين مسؤولية مكافحة الجريمة، وعلى رأس الجرائم طبعا تهديد المقاومين لأمن المستوطنات، داعيا إلى ضرورة عدم التسامح مع كل الأفكار الداعية إلى الجريمة. أما القضايا المدنية فأسندها للقاضي المسلم لارتباطها بالأحوال الشخصية للأهالي ودعا إلى احترامها.

وفي الفصل الثاني من الكتاب تطرق أوربان للتنظيم الإداري القائم على ثلاث إيالات: وهران وقسنطينة والتيطري وإسناد كل إيالة إلى باي يقيم في عاصمة الإقليم.

ويرى أوربان أن البايلك مكوّن من قبائل عربية (Tribus)، تنقسم كل قبيلة إلى فرق، جمع فرقة (Fraction)، وكل فرقة إلى دواوير، جمع دوار (Cercle , Rond)، ويتكون الدوار من حوالي 20 خيمة، وهي السكن الغالب على القبائل الرّحّل آنذاك، أما (البربر) فكانوا يسكنون الأكواخ.

وإذا كان أوربان قد حكم ببعد الدوار عن التنظيم على عكس القرى أو

https://t.me/montlq

البلديات بفرنسا، فإنه حكم في الوقت نفسه، بتميّز كل فرقة عن الفرق الأخرى منوّها بطاعتها لقائدها أو لشيخها. مستدلا بالأمير عبد القادر حين بايعه قومه بالسمع والطاعة وهو ابن الأربعة والعشرين سنة، مبديا انبهاره بتنظيمات الأمير فقال: " لقّب نفسه بأمير المؤمنين، وحكم طبقا لتعاليم الشريعة الإسلامية وسخّر رجالا للإدارة والقضاء ونظّم كتائب الجيش من فرسان ومشاة، وأقام ترسانة قوية، فأنشأ بذلك حكومة منظّمة وأحيى الوطنية الجزائرية"[1]. مشيدا بطولات الأمير رغم الحصار الذي كانت تفرضه عليه فرنسا.

أما مع العهد الاستعماري فقد أبقت فرنسا على الولايات الثلاث أيضا وجعلت على رأس كل ولاية حاكما عسكريا وقسّمت الولاية إلى مقاطعات (*Subdivisions*) وكل مقاطعة إلى دواوير.

وأشار أوربان إلى عزم الإدارة الاستعمارية على إنجاز مشاريعها المسطّرة من أجل تحقيق التقدّم المرجو. فمن أجل التحسين والتنظيم صدر منشور 30 جويلية 1855 معلنا ميلاد صندوق هام للاشتراك الإرادي للجزائريين توفيرا لمناصب الشغل لهم وحفظا لكرامتهم سمّي بـ"صندوق ميزانية السنتيمات الإضافية" (*Budget du Centimes additionnelles*). ونظرا لأهدافه المذكورة حاربه المعمرون وخاصة من أصحاب النفوذ، من خلال تقديم القروض المعتبرة التي كانت تعود بالفائدة المباشرة على الأوربيين والأهالي المستفيدين على حد سواء. أما أموال الصندوق المذكور فكانوا يعملون على تبذيرها والحيلولة دون وصولها إلى مستحقّيها[2].

وخصص أوربان الفصل الثالث من كتابه هذا إلى موضوعين هامين وهما الصحة والفلاحة. فرأى أن الوضع الصحي للأهالي ومحيطهم الحضري كانا

---

(1) المصدر نفسه. ص 70.

(2) المصدر نفسه. ص 38.

بعيدين عن طابع التمدن. ولإضفاء هذا الطابع حسّنت الإدارة من تعاملها مع الأهالي ووفرت لهم شروط المعالجة الصحية، فأنشأت المستوصفات في كثير من الدواوير وربطت عملها بالمكاتب العربية وفتحت المستشفيات العسكرية بمناطق الحكم العسكري لتقديم الفحوصات الطّبيّة المجّانية للأهالي. ووصل الأمر بتجول الأطباء الفرنسيين في الأسواق لمعالجة المرضى الذين لم يتقدّموا لإجراء الفحوصات الطّبيّة.

وفي كل ذلك بين أوريان أن الأهالي كانوا يعاملون باحترام حيث تخصص لهم القاعات ويقدّم لهم العلاج الضروري. وأن الأهالي كانوا يكنون للأطباء الفرنسيين كل الاحترام ويلقبونهم بالحكماء، جمع حكيم[1]، بل "كان الجزائريون يرون أن كل فرنسيّ طبيب"[2].

أما من حيث المحيط الحضري الذي كان يعيش به الأهالي، فرأى أوريان أنه لم يكن صحيا لافتقاده الشروط الضرورية. ووضّح جهود الحكومة الفرنسية في ذلك فقال: " ففي المدن أقيمت قنوات الصرف الصّحّي التي لم تكن موجودة مع احتلالنا للجزائر، وأنشأنا الحنفيات والإضاءة العمومية وآلات رصف الشوارع وكنسها مع مراقبة الأسواق والمحلاّت التجارية وإبعاد المقابر عن المدن، بعد أن كانت المدن غير منظّفة ومن دون إضاءة عمومية مع ضيق شوارعها وتعرّجها بهدف مقاومة الحرارة، ولكنها كانت بذلك معرقلة للتهوية"[3].

---

(1) المصدر نفسه. ص 101 – 102.

(2) سعد الله. الحركة... ج1 ق2. المرجع السابق. ص 50.

(3) أوريان. الجزائر للجزائريين. المصدر السابق. ص 102. لا شك أن القارئ يلاحظ هذا التصوير الرائع للاحتلال الذي أراد أوريان أن يقنع به قرّاء كتاباته بنبل المهمة الحضارية التي جاءت بها فرنسا. ولكن الحقيقة التي أريد أن أردّ بها على هذا التصوير هي ما سجّله الأستاذ تركي رابح بقوله: " لقد تعرضت الجزائر في بداية الاحتلال إلى نوعين من الجيوش هجما عليها في وقت واحد، أحدهما جيش مسلح بالبنادق والمدافع والسيوف والآخر لا يملك سلاحا ولا يلبس

https://t.me/montlq

ووضح أوربان أن الهدف من تحقيق هذا التقدم هو تمدين الأهالي وجلبهم إلى الحضارة الفرنسية، وكتب في ذلك "... وفي كل مستعمرتنا يتوجه أطباؤنا إلى معالجة المرضى دون تمييز لسنّ أو جنس من أجل توطيد الاستعمار وربط الأهالي بنا"[1]. ومن أجل الغرض نفسه أنشأت إحدى القابلات الفرنسيات مركزا لتعليم النساء الجزائريات ضروريات المهنة (القابلة)، كما خصصت مقاعد بيداغوجية للتلاميذ الأهالي بمدرسة الطّب بالعاصمة.

ويعتبر أوربان -رغم اعتناقه الإسلام- من أنصار فكرة غرس الأفكار المسيحية في أذهان أطفال الجزائر ومعوزيها التي سار عليها الكاردينال لافيجري، والتي من أجلها خصص الإمبراطور جزءا من وقته للاطلاع على الحالة الصحية المزرية لهم. نقول هذا بعد أن دعا أوربان إلى إنشاء الملاجئ للعجزة وأصحاب الأمراض المزمنة والمعتوهين واليتامى، هذه الفئة الأخيرة التي قال عنها: "تتكفّل الإدارة بمنحهم دروسا دينية- مسيحية طبعا - باعتبارهم صفحة بيضاء نكتب عليها ما نشاء"[2].

أما ما يتعلّق بالزراعة فيعرّج أوربان على مختلف التحسينات التي أدخلتها فرنسا والتي رآها قد مسّت الثروة الحيوانية بالاعتماد على التهجين من الأنواع العالمية الجيدة ويشيد بالأغنام الإسبانية الجيدة وكذا بخراف نهر الرّون. كما اهتمت فرنسا أيضا بعملية جز الأغنام والماعز للاستفادة من أصوافها وجلودها

-دروعا، بل جاء في شكل حمامة سلام وهو أخطر من الأول، ونعني به جيش المبشرين المسيحيين. لقد كان الجيش الأول يقوم بتخريب قرية أو دوّار ويفتك بالرجال والنساء ويذبح الصبيان والشيوخ، ويأتي بعد ذلك الجيش الثاني حاملا الخبز والدواء والكساء في يد والصليب والإنجيل في اليد الأخرى". ينظر: تركي رابح. <u>عبد الحميد بن باديس. فلسفته وجهوده في التربية والتعليم</u>. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. بد ت. ص 42.

(1) أوربان. الجزائر للجزائريين. مصدر سابق. ص 104.

(2) المصدر نفسه. ص 103.

وأشعارها، لأن الثروة الحيوانية تمثّل مصدرا هاما للتجارة والصناعة.

أما الفصل الرابع والأخير فجعله أوربان خاتمة الكتاب. فطرح فيه جملة من الأسئلة حول مدى نجاح فرنسا في مهمتها الأساسية، مهمة نشر الحضارة على حد تعبيره، وفي ذلك يجيب بالإيجاب حين يرى: " أن نشر الحضارة قد تحقق بشكل كبير من خلال استفادة الأهالي من الصناعات التجارية وخروجهم من بساطة الحياة إلى استخدام الغاز الطبيعي في الإنارة والتدفئة وتزوّدهم بالكهرباء ووسائل النقل وعلى رأسها السكة الحديدية". ورغم إشارته إلى أن هناك بعض النقائص إلا أنه رأى أن الأهالي قد استفادوا من الثورة الصناعية المنقولة إليهم من أوربا استفادة موجّهة تبعا لإملاءات أفكاره.

وخلص أوربان في الختام إلى جملة من الاقتراحات على شكل توصيات من أجل إنجاح المشروع الاستعماري بالجزائر، وأهمها ما يلي:

1- الأمن والسلم هما أرضية تحقيق أي تطوّر.

2- تحرير المرأة الجزائرية على الطريقة الأوربية بإخراجها من حالتها التي هي عليها آنذاك والتي يصفها بأنها حالة " الأمَة".

3- الاهتمام بالتعليم بما يخدم المصلحة الفرنسية وخاصة العلوم التقنية لما لها من دور في تحصيل التكنولوجيا وتحقيق التطور.

4- الاهتمام بنوع المنتوج لا كميته.

5- إنشاء سجل الحالة المدنية للجزائريين واحترام التشريع الإسلامي فيما يتعلق بأحوالهم الشخصية.

6- تأسيس مستوصفات للجزائريين بالمناطق التي تفتقد المستشفيات، وجعل الأطباء في خدمة الجزائريين في إطار المكاتب العربية.

ومن المفيد القول أنه إذا قارنّا محتوى الكتاب بما ذكرناه فيما يتعلّق بالأيديولوجية السانسيمونية في الفصل الأول من هذه المذكرة، فإن أيديولوجية أوربان السانسيمونية تبدو واضحة من خلال دعوته إلى إقامة مجتمع متشارك

يجمع بين الأهالي والمعمرين تتحقق فيه في النهاية المصلحة الفرنسية، مركزا على الاهتمام بتحسين الناحية الاجتماعية في إطار المبادئ الإنسانية السامية التي كان يعتنقها، وعلى بناء اقتصاد مزدهر تكون الزراعة فيه للأهالي والصناعة للمعمرين على أن تتولى الدولة ورجال المال الناحية التجارية.

2-1- الجزائر الفرنسية *L'Algérie Française*

يعتبر كتاب أوربان هذا كتابا مهما لما احتواه من أفكار هذه الشخصية التي طالما أثرت على السياسة الفرنسية بالجزائر منذ حلوله بها سنة 1837 إلى غاية انتهاء تأثيره بسقوط نظام الإمبراطورية الثانية عام 1870. ولم يكن كتابه هذا كتابا ظرفيا وإنما كان صرخة من أجل نموذج آخر للاحتلال الفرنسي بالجزائر[1].

ويبدو أن أهم من تناول هذا الكتاب بالدراسة هو مارسيل إيميرت في كتابه السابق الذكر "السانسيمونيون في الجزائر" حين أجمل محتوياته في 21 فكرة رئيسية[2]، وهي نفسها، على العموم، التي استخلصناها نحن والتي تدور حولها دراستنا هذه.

قسّم أوربان كتابه هذا إلى مقدمة (بين يدي الموضوع) وثلاثة عشر فصلا، ويمكن اعتباره تكملة لما توقف عنده في كتاب الجزائر للجزائريين. اتسمت مقدمته بأسلوبها الأكثر صراحة في الإعلان عن رفضه للمطالب المنادية بنفوذ المعمرين حتى ولو استعملوا البطش والإبادة ضد الجزائريين، فأشار بجرأة كبيرة إلى أن كتابه هذا هو محاولة للكشف عن أصوات جديدة للجزائر، أصوات

(1) أوربان. الجزائر الفرنسية. المرجع السابق. ص 11. صدر كتاب الجزائر الفرنسية أول مرة بتاريخ 08- نوفمبر 1862 عن مطبعة " شالامال آني" "*Challamel aîné*" لمؤلف مجهول تبيّن من خلال الأفكار التي حملها أنه لإسماعيل أوربان، قبل أن يؤكد ذلك كتاب السيرة لأوربان. وأعاد ميشال لوفالّوا نشره سنة 2002 بمطبعة "سيغويي" "*Séguier*".

(2) إيميريت. مصدر سابق. ص 270 – 273.

الدفاع عن حقوق الأهالي كما يسميها مشيرا إلى أن محتويات الكتاب " تمس البعض أو تمس مؤلَّفاتهم، فقد تضع اليد على موضع الألم "[1].

ويمكن أن نعتبر الفصول الثلاثة الأولى تذكيرا عاما بمهمة فرنسا في الجزائر وكيفية نجاحها، حيث أشار إلى أنه " بعد تثبيت فرنسة الجزائر من خلال القرارات الرسمية وسياسة الإلحاق حان الوقت لجعل الجزائر القلب النابض لفرنسا وأساسا لتحقيق مصالحها"، وستكون إذا ما طُبقت أفكاره ورؤاه نموذجا لحضارة صنعها الفرنسيون. معلنا أن تحقيق ذلك يتطلب سياسة التهدئة وترويض الأهالي لا استعمال القمع والإبادة معهم، مع مراقبة العناصر الخطرة وإخماد المقاومات وفصل قواعدها الشعبية عنها.

وكرّر أوربان أن الأهالي هم أصحاب الأرض، فهم أولى إذا بنشر الحضارة التي هي، تبعا لذلك، واجب على فرنسا، خاصة وأن الأهالي يتمتعون بخصائص البناء الحضاري، وهي الخصائص التي كان قد ذكرها في كتابه السابق: الإتقان والنزاهة والكرامة والثروة. أي أن أوربان قد نص صراحة على قابلية المجتمع الجزائري للتطور والحضارة، على عكس التشدّق الرسمي الفرنسي الذي يصف الجزائريين بالبداوة والتوحش، وهذا وإن جعله يرى أن نشر الحضارة الفرنسية يتطلب تغيير الأوضاع إلى النمط الفرنسي، فإنه تساءل حول إمكانية قبول الأهالي هذا التغيير. فنصح بضرورة احترام الدين والعادات وعدم المساس بمقدسات الأهالي وحرياتهم، مع حفظ الحد الأدنى من الاحترام للوصول إلى التأثير فيهم. مركزا على أن مفهوم الاحتلال قد تطور من" استعباد الشعوب كما كان عليه في السابق إلى تغيير الحياة السياسية للحكومات دون المساس بالمصالح الخاصة"[2]. مشيرا إلى "أن احترام الأهالي سينتهي بهم حتما إلى اقتفاء الحضارة

---

(1) أوربان، الجزائر الفرنسية، مصدر سابق، ص 47.

(2) المصدر نفسه، ص 55 – 56.

الفرنسية"[1].

أما الفصل الرابع فخصصه لنظرته إلى رسالة فرنسا لتمدين الأهالي، ناصحا إياها بـ"إنشاء القرى الفلاحية للمعمرين وتنظيم المستوطنات الأوربية وإلى دفع الأهالي إلى الانتظام في مراكز سكانية متقاربة مع المستوطنات بغية التأثر بالحضارة الفرنسية وتحقيقا للتعايش والتشارك". منتقدا تحويل الحكم العسكري إلى أداة لإبادة الأهالي وإفقارهم بحجة قمع المقاومة، وكذا تحويل الحكم المدني لخدمة مصالح المعمرين وزيادة ثرائهم. ومركزا على أن "الشعب الحقيقي في الجزائر، هو ذلك الشعب الخادم للأرض، الدؤوب في عمله، المنتج، الدافع للضريبة، الطّامح لخدمة الراية الفرنسية"[2].

وخصص أوربان الفصل الخامس لنقطة هامة طالما شكلت لغزا في شخصية أوربان، وهي قضية دفاعه عن مصالح الأهالي، ونسرد هنا رأيه بوضوح: "لابد لفرنسا أن تعمل على تحقيق الأهداف المادية (الأشغال العمومية، التعليم الموجّه، القروض، الفلاحة، السكة الحديدية...) لا المعنوية وعليها أن تضع مصالح الأهالي في الدرجة الثانية"[3].

أما الفصلان السادس والسابع فخصصهما أوربان للفلاحة، حيث أشاد بالمحاصيل الزراعية الجزائرية واعتبرها وفيرة، منتقدا الدور السلبي للمعمرين الذين لم يثبتوا كفاءاتهم الفلاحية التي وصفها بالكارثية باستثناء القليل منهم. ووصف عمومهم بقوله: "... ولم يضيفوا شيئا لروتين الأهالي"[4].

كما أكد أوربان مرة أخرى على ارتباط التقدم الفلاحي والصناعي بتحقيق

(1) أوربان. الجزائر الفرنسية. المصدر نفسه. ص 57 – 59.

(2) المصدر نفسه. ص 66.

(3) المصدر نفسه. ص 68.

(4) المصدر نفسه. ص 80 – 82.

الأمن والاستقرار للسكان ووفرة المياه لمعالجة مشكلة الجفاف، داعيا إلى استغلال الثروة الخشبية. وهي العوامل التي أصر على ضرورة اهتمام الحكومة بها فتجسدت من خلال استغلال الغابات وبناء السدود وشق القنوات واعتماد أسلوب الرّي وحفر الآبار الارتوازية وفتح طرق السكة الحديدية وإقامة الجسور من أجل توفير عوامل الإنتاج والتسويق[1]. مشيدا بالفلاح الجزائري الذي وصفه بقوله: " إن الفلاح الحقيقي هو ذلك الفلاح الأهلي الذي يمثّل القاعدة الأكثر قوة والأكثر صلابة"[2].

أما الفصول الأربعة من الثامن إلى الحادي عشر فقد ركّز فيها أوربان على ضرورة الاهتمام بالصناعة من خلال الاهتمام بالمناجم وصناعة الملابس، مع توظيف الإنسان الأهلي حسب قدراته سواء في النشاط الزراعي أو الصناعي[3].

وخلص أوربان إلى الاقتراحات التالية:

1- منح الجزائر نوعا من الاستقلالية مع قيام الحكومة بدور المراقبة.

2- العمل على تحقيق الرعاية الاجتماعية للأهالي ودفعهم إلى الاندماج بالمعمرين طواعية.

3- العمل على تطوير وازدهار الصناعة بسواعد المهاجرين.

4- تجنيد الأهالي في صفوف الجيش الفرنسي.

وفي الفصل الثاني عشر تناول أوربان قضية هامة وحسّاسة في آن واحد، وهي قضية اعتبار الإسلام أساس تأخر المسلمين. فسارع أوربان إلى الإجابة بالنفي معتبرا ذلك من أكبر الأكاذيب المسجّلة في التاريخ. و اعتبر ذلك حجة

---

(1) أوربان، الجزائر الفرنسية، المصدر نفسه، ص 82.

(2) المصدر نفسه، ص 83.

(3) المصدر نفسه، ص 90 – 92.

على الجهل، ووصف مروّجي هذه الفكرة بقوله: "إنهم واقعون تحت تأثير بربرية أوربا الكاثوليكية". مذكرا بأن "التاريخ الإسلامي ثري بالبطولات والروح الإنسانية السامية والتسامح والاحترام للآخر، وتاريخ الأندلس شاهد على ذلك". واصفا المسلمين بحبهم للعلم والعلماء وبكونهم روادا للإنتاج الأدبي والعلمي لطالما أناروا العقول الأوربية بالطب والرياضيات وعلم الفلك والفلسفة وطرق الفلاحة مذكرا بالدّقّة والإتقان اللذين واكبا العلوم المختلفة[1].

ونوّه أوربان بالأمة الجزائرية التي انبهر بمقاومتها للاحتلال فقال: " إن الأمة التي قاومت الاحتلال الفرنسي، القوة العسكرية الأولى في العالم، لهيَ أمة جديرة بالاحترام"[2]. رابطا تأخرها بالتواجد العثماني الذي وصفه بالظالم والمستبد والقاضي على عناصر القوة والتطور الحضاري. مما جعل فرنسا، حسبه، تجد في الجزائر ظروفا بعيدة عن الحضارة. وهي نفسها الأكذوبة التي كانت ترددها فرنسا.

أما الفصل الثالث عشر والأخير فقد جاء خاتمة للكتاب، واعتبر فيه أوربان أن الاحتلال الفرنسي للجزائر يتجاوز كونه قضية حكم وإدارة إلى كونه قضية نشر

---

(1) أوربان. الجزائر الفرنسية. المصدر نفسه. ص 123. وأراد أوربان من خلال ذلك الإشارة إلى الدرجة الكبيرة التي أثّر بها المسلمون على أوربا، إذ إن الكثير من أسباب يقظتها تعود إلى العلوم التي انتقلت إليها من العالم الإسلامي وخصوصا من الأندلس. فكُتب ابن سينا لم تكف جامعة مونبيلي عن تدريسها إلا مع بداية القرن العشرين. كما أن ملوك أوربا بعثوا موفديهم بل وأبناءهم أيضا للتزوّد بالثقافة الإسلامية ونظم الحكم، كما هو الشأن بالنسبة للملك الألماني ونظيره الإنجليزي. ووصل الأمر بأحد مفكّري إيطاليا وهو بيترارك إلى المناداة بما يلي: "... لقد أدركنا الإغريق وجميع الشعوب -وسبقناها في بعض الأحيان ماعدا العرب (المسلمين). فيا للحماقة والجهل للعبقرية الإيطالية الخامدة". دون أن ننسى الإشارة إلى دور الترجمة الكبير في نقل التراث الإسلامي إلى أوربا. ينظر: يحيى بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1999. ص 13 وما بعدها.

(2) المصدر نفسه. ص 123.

للحضارة، مشيرا إلى العوائق العويصة التي تعيق تحقيق الثراء والازدهار وما يتعلق به من تقسيم للأدوار بين الأهالي والمعمرين، وتوفير العوامل المادية والمعنوية التي من شأنها المساعدة على نشر الحضارة التي وصفها بأنها " إنارة للعقول وتوسعة للقلوب"[1].

2- الرّسائل

2-1-رسالة نابليون الثالث إلى الماريشال بيليسيي 06 فيفري 1863:

بعث الإمبراطور هذه الرسالة إلى الحاكم العام بالجزائر الماريشال بيليسيي الملقّب (منذ مشاركته في حرب القرم) بالدوق مالاكوف "*Malakoff*" بتاريخ 06 فيفري 1863، نشرتها الجريدة الرسمية للإمبراطورية الفرنسية " المرشد العام"" *Le Moniteur Universel*"[2]، التي كانت تصدر بالجزائر، في اليوم الموالي بالعدد 58، والملاحظ أنها لم تعلق عن محتوياتها، كما يبدو أن بيليسيي هو الآخر لم يهتم بها.

وكتب أوربان حول هذه الرسالة: " بعث الإمبراطور إلى الماريشال بيليسيي في شهر فيفري 1863 رسالة حملت أفكاري بصفة مباشرة"[3]. كما خاطب

---

(1) أوربان، الجزائر الفرنسية، مصدر سابق، ص 127.

(2) وردت الرسالة في عمودين من الصفحة الأولى وقليل من العمود الثالث، بحجم 52، 5 × 07 سم. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسالة نشرت مترجمة للغة العربية أيضا، وهي موجودة بالأرشيف الوطني التونسي تحت رقم: *ANT. Dos. 384 bis. Cart. 233*، وقد كتب عليها ما يلي: الوثيقة مترجمة من الفرنسية إلى العربية، كتبت على صفحة واحدة من الحجم الكبير وبخط رقعي وبأسلوب عربي تتداخل فيه الدارجة الجزائرية، من غير المستبعد أن يكون مترجمها أحد الشوام العاملين في جيش الاحتلال. ينظر: احميدة عميراوي، من تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى.

(3) أوربان، السيرة [illegible]، مصدر سابق، ص 67.

الإمبراطور مستشاره أوربان في 23 جوان 1865 أثناء مأدبة غداء: " السيد أوربان، لقد استوليت على كتابك من أجل كتابة رسالة السادس من فيفري"[1].

حملت رسالة 1863 عنوان المملكة العربية، ويمكن تقسيم محتواها إلى ثلاثة أقسام:

1- عموميات : تتمحور حول التذكير بمهام فرنسا الاستعمارية في الجزائر.

2- حول الجزائريين.

3- حول واجبات الحكومة العامة.

تبدو الرسالة منذ البداية متفقة مع أفكار أوربان الذي كان يلح على ضرورة احترام الأهالي واحترام ممتلكاتهم ومقدساتهم. وفي ذلك جاءت الرسالة بتذكير أول من الإمبراطور إلى الماريشال بيليسيي مفاده أن فرنسا "قد وعدت الأهالي أثناء حملة 1830 على العاصمة أنها سوف تحترم عقيدتهم وممتلكاتهم".

أما التذكير الثاني فبيّن فيه الإمبراطور " أن درجة اهتمام الإدارة الفرنسية بملكية الأهالي يعد من أكبر العوامل الخادمة للمصلحة الفرنسية بالجزائر من خلال تحويل جزء هام منها إلى ملكية المعمرين". وهي الفكرة التي كان قد دعا إليها أوربان أيضا.

وجاء التذكير الثالث متفقا أيضا مع أفكار أوربان حين اعتبر أن "مهمة فرنسا بالجزائر هي نشر الحضارة وليس نشر الظلم والاستبداد"، فأما نفي صبغة الاستبداد عن طبيعة مهمتها فيبدو جليا في رفع شعار القضاء على سلطة الداي حسين المستبد حسب زعمها، وأما رفع الظلم فيتضح في البند الخامس من اتفاقية حسين – بورمون في 05 جويلية 1830 والذي ينص صراحة على: "سيظل العمل بالدين الإسلامي حرا، كما أن حرية السكان مهما كانت طبقتهم ودينهم

---

(1) أوربان. الجزائر الفرنسية. مصدر سابق. ص 29.

وأملاكهم وتجارتهم وصناعتهم لن يلحقها أي ضرر، وستكون نساؤهم محل احترام"[1].

أما القسم الثاني من الرسالة وهو الأهم في نظرنا، فيبحث عن صيغة قانونية لتسهيل انتقال الملكية من الأهالي إلى المعمرين، وقد حملت الرسالة تساؤلات الإمبراطور " عن كيفية تهدئة الأهالي الذين سيتصدّون بقوة للقرارات الفرنسية من أجل المحافظة على ممتلكاتهم". كما تساءل عن: "كيفية التحسين والازدهار في ظل غالبية ممتلكات أهلية لا تؤجّر ولا تباع".

رأى الإمبراطور في ذلك " أن فرنسا قد تأخرت في السيطرة على ملكية الأهالي وتحويلها بصفة دائمة إلى المعمرين والتمتع بها ملكا أبديا خلافا لما كانت عليه منذ 1830 حيث كان التمتع مؤقتا سواء عن طريق الإيجار أو الاستغلال عن طريق القوة". فأعلن صراحة " تحويل أراضي العرب (الأهالي) إلى المعمرين"، واهتدى بفضل أوربان إلى أن أحسن طريقة لتحقيق ذلك تتمثل في تطبيق الإجراءات الأساسية التي سنعود إليها في الفصل الثالث وهي كالآتي:

1- تقسيم القبائل إلى دواوير.
2- تفتيت الأسر العريقة.
3- تأسيس المحتشدات (الكانتونات).
4- دحر الأهالي لكي يتراجعوا إلى الصحراء.

وعبّرت الرسالة عن أهمية الجزائر لفرنسا من خلال الإشارة إلى إحصائيات حول عدد السكان واستغلال المساحات التي نعتتها بأنها واسعة، فذكرت أن " عدد الأهالي يقدر بثلاثة ملايين نسمة، في حين يقدر عدد الأوربيين بـ 200 ألف أوربي منهم 120 ألف فرنسي. وتبدي نظرة سريعة حول المعطيات أن من جملة 14 مليون

(1) حمدان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الجزائر، ط2، 1982، ص195 - 196.

هكتار التي هي مساحة التل الجزائري، يستغل منها الأهالي 02 مليون هكتار فقط، في حين تسيطر مصلحة أملاك الدولة (الدومين) على 2. 69 مليون هكتار".

واعتبر الإمبراطور الجزائر مملكة عربية فهي "ليست مستعمرة بمعنى الكلمة، ولكنها مملكة عربية، فالأهالي كالمعمرين لهم نفس الحقوق تجاه حمايتي، وإنني إمبراطور العرب كما إنني إمبراطور الفرنسيين".

أما القسم الثالث والأخير من رسالة نابليون فيتمحور حول واجبات الحكومة العامة، فقد بيّنت الرسالة المطلوب منها، و إن مهمتها "الأساسية هي نشر الحضارة في أوساط المجتمع الأهلي بعيدا عن الظلم والاستبداد" في إشارة إلى "التزام فرنسا ببنود اتفاقية حسين – بورمون، كما عليها أن تقضي على الأفكار البدائية (؟) للمجتمع الأهلي، وفتح الباب واسعا أمام تحرر الأهالي وتفتحهم أكثر". وهو نفس التعبير الذي استعمله أوربان من قبل.

وختم نابليون رسالته بتوصية ليليبسي بألا يدخر أي جهد فيه المصلحة العامة التي حددتها الرسالة طبعا.

إلا أنه من دواعي العجب أن نابليون، وبعد كل ما ألح على القيام به تجاه الأهالي عبّر عن أنه "على ثقة تامة بالمستقبل الجيد للعرب". وهنا أشار إلى تكليف الماريشال راندون بتحضير مشروع سيناتوس كونسيلت "مشروع الملكية". فلا ندري أيّ مستقبل جيد لأمّة لم يمنع من إبادتها نهائيا إلاّ، ربما، الروح الإنسانية والرأي العام الدولي فقط؟، ولا ندري أي مستقبل جيد لأمّة طُرد أبناؤها الى الصحراء والمنافي، وانتزعت أراضيهم منهم غصبا بطرق تسمّى "قانونية" لمعمّرين استقدموا من وراء البحر؟، ولا ندري أي مستقبل جيّد لمواطنين باتوا عبيدا على أراضيهم، وماتوا صبرا في المغارات؟.

2- 2- رسالة نابليون الثالث إلى الماريشال ماكماهون 20 جوان 1865:

جاءت هذه الرسالة على شكل كتيب من ثمان وثمانين (88) صفحة من

الحجم المتوسط تحت عنوان "رسالة الإمبراطور إلى الماريشال ماكماهون (الدوق دو ماجينطا *Duc de MAGENTA*) الحاكم العام للجزائر، حول السياسة الفرنسية في الجزائر". تحمل تاريخ 20 جوان 1865 بقصر التويلوري بباريس(1).

ونريد أن نوضح، وهو أننا نظرنا إلى رسالة الإمبراطور هذه من ضمن كتابات أوربان، لأن أوربان اعترف بذلك بنفسه حين كتب يقول: "اتصل بي الإمبراطور بخصوص رسالة 20 جوان المتعلّقة بالبرنامج السياسي لفرنسا بالجزائر، فألقيت محاضرات عديدة بإقامته، وقدّم لي تقريرا مع السيد روهر *Rouher* وزير الدولة باروش *Baroch* وزير العدل والسيد ديريي *Duruy* وزير التعليم العام، وكان معي السيد دولانغل *Delangle* مقرر مجلس الشيوخ حول تجنيس الأهالي"(2). "وهناك (بقصر التويلوري) قدّمت نسختين مما اتفق على تسميته رسالة 20 جوان إلى الدوق ماجينطا"(3).

ويشير ماكماهون أنه تلقى هذه الرسالة بعد عودة الإمبراطور إلى فرنسا، وأنها جاءت في سبع نسخ فقط، إحداها موجّهة له شخصيا، وأخرى إلى نائبه الجنرال دوفو *Desvaux*، وواحدة إلى مدير الشؤون العربية (الأهلية)، وأخرى إلى مدير الشؤون المدنية، والثلاثة الباقية إلى الجنرالات الثلاثة حكام الولايات. وأوضح ماكماهون أنه تعمّد عدم نشرها لإدراكه بما تثيره من رد فعل عنيف من غلاة المعمرين، وهو ما حدث فعلا بعدما تداولتها الصحف. ولكنه يبدو أنه لم

---

(1) نابليون الثالث، رسالة حول السياسة الفرنسية في الجزائر، رسالة موجّهة إلى الماريشال ماكماهون (الدوق دو ماجينطا).

Napoléon III . Lettre sur la politique de la France en Algérie. Adressé au Maréchal De Mac Mahon duc de Magenta gouverneur général de l'Algérie. Imprimerie Impériale. Paris. 20 juin 1865.

(2) أوربان، السيرة، مصدر سابق، ص 77.

(3) المصدر نفسه، ص 119.

يكن مقتنعا بما جاءت به من طرح قد يخدم الأهالي في نهاية المطاف[1]، كما مر بنا في الفصل الأول.

جاءت الرسالة في مقدمة وأربعة فصول، تناولت مقدمتها أفكارا عامة حول الجزائر، فاعتبر الإمبراطور هذه الرسالة هي خلاصة نظرته السياسية التي يجب اتباعها في الجزائر بعد السفرية التي قام بها، ومعلوم أن أوربان كان مترجمه الشخصي خلالها. وصرح الإمبراطور على أن هذه المحتويات "هي اقتراحات من أجل الوصول بالإداريين الفرنسيين إلى التحكّم التام في الجزائر، وليست نظاما جديدا".

وإذ يقدّم الإمبراطور اقتراحاته هذه، فذلك لأنه يرى أنها تجلب النفع للمصلحة الفرنسية، إذ تُمكّن من كسب مودة الأهالي واستقطاب المعمرين، واستغلال الثروات المادية والمعنوية للجزائر. ولذا ركّز على حث الأهالي والمعمرين على التعاون من أجل تطبيق محتوى رسالة 06 فيفري 1863 خاصة فيما يتعلق بدخول الأهالي عالم الشغل من تجارة وغابات ومناجم وريّ وقطن وتبغ... وتوجّه المعمرين إلى القيادة والإشراف.

وإذا كانت رسالة 1863 قد اعتبرت "الجزائر ليست مستعمرة بمعنى الكلمة ولكنها مملكة عربية" فإن هذه الرسالة اعتبرت" الجزائر مملكة عربية ومستعمرة أوربية وفضاء فرنسيا، ولذلك فهي جديرة بالاهتمام". والملاحظ هنا هو إن هذه الأفكار هي أفكار أوربان ومن قبله أونفونتان، فكلاهما كان يرى أن الهجرة لابد أن تكون أوربية فيما يكون الاحتلال فرنسيا كما مر بنا[2].

---

(1) ماكماهون، مصدر سابق، ص 212 – 213.

(2) وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الرأي لم يمر مرور الكرام على غلاة المعمرين الذين استغلوا وسائل الإعلام، وعبأوا الرأي العام الفرنسي وأوساط المعمرين بأن هناك اتفاقا بين الإمبراطور والأمير عبد القادر لاسترجاع سيادته على الجزائر، في إشارة إلى مصطلح المملكة العربية يراجع في هذا مذكرات الماريشال ماكماهون.

كما أن رسالة 1863 قد أشارت إلى أن عدد السكان الأهالي ثلاثة ملايين نسمة، فإنه من العار على الفرنسيين أن رسالة 1865 هذه نصّت على أن عدد السكان الأهالي يقدّر بـ 2. 580. 267 نسمة[1]. ولاشك أن هذا التناقص في عدد السكان دلالة على الأسلوب الوحشي للاحتلال الفرنسي من خلال المجازر المرتكبة وطريقة تصفية الوطنيين والمقاومة الشعبية والهجرة والتهجير.

أما الفصل الأول من الرسالة (الكتيّب) فقد خُصّص للعرب (الأهالي) الذين وصفهم نابليون بأوصاف حميدة، ولم يهوّن من شأنهم، فقد وصفهم بالثورة والحركية إيجابا، أما سلبا فوصفهم بأنهم طيّعون للحكم المطلق في إشارة إلى انقيادهم للدولة العثمانية التي كان يراها مستبدة. وهي الأوصاف نفسها التي قال بها أوربان في كتابه السالف الذكر "الجزائر للجزائريين".

ونصّت الرسالة كسابقتها سنة 1863 على أن فرنسا بالنسبة للأهالي لن تكون كأمريكا بالنسبة للهنود الحمر، فعليها إقامة التعايش معهم مع سلطتها عليهم، باعتماد المنشآت لا الأسلحة فقط، معتبرا " كسب ودّ الأهالي يعدّ نجاحا سياسيا يخدم المصلحة الفرنسية". خاصّة وأنها تعتبر الإنسان الأهلي إنسانا بدائيا وسيتأثر حتما بالمعمّرين المتحضّرين بشرط التظاهر بالحب والإنسانية بدلا من استعمال القوة. وفي ذلك دعوة للاستعمار بالأسلوب الحضاري والوقوف ضد سياسة السيف وهي مواقف أوربان نفسها.

عالجت الرسالة أيضا ما يتعلق بأراضي العزل والضريبة العربية[2]، فدعت

---

(1) رسالة 1865. مصدر سابق. ص10.

(2) أراضي العزل أو العزلة هي أراضي البايلك التي تستغل عن طريق الكراء أو الخَماسة لأن العامل المستأجر يأخذ خمس المحصول فيما تعود أربعة أخماس إلى مالك الأرض الذي عليه أن يقوم بكل التكاليف من حرث وحصد وحبوب. يراجع : ناصر الدين سعيدوني. دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني). المؤسسة الوطنية للكتاب. 1984. ص 344. أما ما يتعلّق بالضريبة العربية فيمكن العودة إليه في موضعه بالفصل الأول من هذه المذكرة.

إلى تأجير أراضي العزل للأهالي بقرارات من المحكمة رغم أنها ملك لهم أبا عن جد، في حين رأت بأن الضريبة العربية المقرّرة " باهضة ومرهقة ومعيقة للقوى الفعّالة في المجتمع الأهلي" ودعت إلى إيقاف العمل بها لأنها في نظرها "خطأ كبيرا من حيث آثارها السلبية على الأراضي الفلاحية والمواشي والأشجار المثمرة"(1).

وخلصت الرسالة في نهاية هذا الفصل إلى اقتراح جملة من الإجراءات تجعل المتفحص لها يضعها في مصاف الأوامر والتشريعات لا الاقتراحات. كما يتبين له أيضا أنها تمثل زبدة أفكار أوربان بعدما نادت بما يلي:

1- باعتبار أن الجزائر مقاطعة فرنسية، فالأهالي هم فرنسيون تبعاً. ولكنهم إذا أرادوا الاستفادة من الحقوق الفرنسية فعليهم أن يتخلّوا عن أحوالهم الشخصية. أي أن الجزائريين لم يبق لهم من خيار فإما التخلّي عن الإسلام وإما الاستعمار والحرمان.

2- السهر على تنفيذ قرارات سيناتوس كونسيلت 1863 وهو المتعلّق بالملكية كما علمنا.

3- إنشاء سجل الحالة المدنية لتنظيم الدواوير والأعراش. بما يحمله ذلك، طبعا، من اندثار للأنساب و بناء لأسس البلدية التي تقوم محل القرى و الدواوير. وسيادة الأنظمة الفرنسية تسهيلا للتحكم في حركية المجتمع.

4- إعادة تنظيم المدارس الإسلامية العليا خاصة فيما يخص أعوان القضاء الإسلامي وكتّاب اللغة العربية. مع تطوير التعليم الإسلامي العام في بلديات الحكم المدني.

5- إنشاء مراكز للتكفل باليتامى المسلمين إناثا وذكورا في كل مقاطعة.

---

(1) رسالة 1865. مصدر سابق. ص25.

أما الفصل الثاني من الرسالة فقد جاء تحت عنوان الاستعمار "*La Colonisation*" وفيه ذكّرت الرسالة بأن فرنسا عملت الكثير منذ 1830، إلا أن الاستعمار لا يزال يراوح مكانه ولم يجد الطريق الرّشيد الذي يسلكه بسبب غياب المبادئ الحقيقية للاقتصاد السياسي كالحرية في إبرام الصّفقات التجارية وتنظيم القرض من أجل إقامة المشاريع الاقتصادية المختلفة التي تتطلّب سيولة نقدية، مع بناء المستوطنات في الأماكن الاستيراتيجية ومنح الامتيازات للأوربيين تشجيعا لهم على القدوم. وفي هذا تبدو أفكار أوربان واضحة وجلية. خاصة حين نصّت الرسالة: " وعلى أمل الرّفع من عدد المعمرين بالجزائر لابد من التركيز على قضيتين أساسيتين، وهما تأسيس المستوطنات الأوربية وإنشاء الاستثمار المجّاني، ومن دون ذلك لا يمكن الوعد بأي شيء". منبّهة في ذلك، إلى أن المعمرين القادمين إلى الجزائر يتميّز أغلبهم " بفقدان الثروة، ولن يتمكّنوا من كسبها إلا بعد مرور سنوات، ولذا على الحكومة أن توفّر لهم مختلف المشاريع المحقّقة لذلك".

وفي الفصل الثالث تناولت الرسالة الاحتلال العسكري. معتبرة أن الأولوية الأساسية للحكومة هي تخفيف التكاليف على فرنسا وتوفير الأمن لممتلكاتها في الجزائر، بالاعتماد على المكاتب العربية التي اعتبرتها الرسالة " قناة اتّصال بين المعمرين والأهالي"، ولذا لابد أن تكون على درجة كبيرة من الحنكة في التعامل للتمكين للتهدئة"[1].

(1) ترجع الاهتمامات الفرنسية الأولى بتأسيس هيئة إدارية تتحكم من خلالها في إدارة الأهالي إلى بداية الاحتلال والتي تجسدت بصفة خاصة في المكتب الذي أحدثه الدوق دو روفيقو "*Duc de Rovigo*" الحاكم العام للجزائر سنة 1833 بمكتبه الخاص تحت اسم " المكتب العربي"، الذي أعطيت صلاحيات إدارته إلى النقيب لاموريسير في السنة نفسها. وأصبح هذا المكتب يحمل اسم "مصلحة الشؤون الأهلية" التي أصبح يشرف على رأسها فيما بين 15 أفريل 1839 ومطلع سنة 1840 قبل أن يخلفه على رأسها النقيب كونفيل "*Allonville*". وبعد مجيئ الجنرال بيجو

أما الفصل الرابع فكان خلاصة للرسالة، دعا فيه الإمبراطور إلى استغلال ما وصفه ببسالة وفقر الأهالي لخدمة المصالح الاستعمارية وتحويل المعمرين إلى أغنياء مزدهرين. مشيرا إلى أنه يحدوه أمل كبير لتحقيق التهدئة في الجزائر والنفع لفرنسا. معتبرا أن الجزائر لن تكون لغير فرنسا في إشارة للطابع الاستيطاني للاستعمار الفرنسي بالجزائر. مذكّرا الحاكم العام ماكماهون أن فطنته ونباهته تدفعانه إلى التطبيق الأحسن لمحتوى الرسالة من أجل المصلحة الفرنسية حاضرا ومستقبلا[1].

3-البحوث

1-3- نبذة عن إقليم قسنطينة Notice sur la province de Constantine

حرر أوربان هذه النبذة رفقة الدكتور وارني سنة 1841 حينما كان أوربان يشغل منصب مترجم من الدرجة الأولى، أما وارني فكان عضوا باللجنة العلمية

=حاكما عاما على الجزائر في 22 فيفري 1841 أسندت إدارة الشؤون الأهلية إلى الجنرال دوماس في 16 أوت من السنة نفسها. ومع توسع الاحتلال وتزايد الحاجة الاستعمارية إلى مزيد من التحكم في الجزائريين تم ترسيم هذه الهيئة نهائيا تحت اسم "المكاتب العربية" بمرسوم وزاري مؤرخ في 01 فيفري 1844. وتكونت الهيئة الإدارية للمكتب العربي من ضباط مرشحين وآخرين متربصين ومترجمين وأطباء وكتّاب وقضاة وشواش وفرسان من كتائب الخيالة أو الصبايحية. ينظر: جاك فريمو. المكاتب العربية بالجزائر منذ الاحتلال.
J. Fremaux, Les Bureaux Arabes dans l'Algérie de la conquête. Edition denoël. Paris. 1993.

وكذلك: غزافي ياكونو. المكاتب العربية وتطور أنماط حياة الأهالي في الجزء الغربي من التل العاصمي.
Xavier yacono. Les Bureaux Arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans l'Ouest du tell algérois (Dahra, Chélif, Ouarsenis, Sersou). édition larose. Paris. 1953. .

(1) رسالة 1865. مصدر سابق. ص 72 – 75.

لاكتشاف الجزائر[1]. ويقول عنها أوربان: "في سنة 1841 وخلال الأشهر العشرة التي قضيتها بباريس حرّرت نبذة عن إقليم قسنطينة نُشرت في سجل المنشآت الفرنسية بشمال إفريقيا، الذي تطبعه وزارة الحربية"[2].

قبل أن يبدأ أوربان دراسته هذه فصّل التمهيد لها في حدود نصف صفحة مبينا فيها الهدف من دراسته هذه وهو التعرّف على التنظيم الإداري والوضع المادي لبايلك قسنطينة إلى غاية وقوعها تحت الاحتلال الفرنسي في أكتوبر 1837.

ففيما يخص الجانب الإداري ذكر أوربان الحدود الجغرافية لهذا الإقليم، إذ يحده شمالا البحر المتوسط ومن الغرب قرية أولاد منصور ببجاية، ومن الشرق مدن حدودية كثيرة أهمها تقرت وتبسة والكاف إلى غاية طبرقة داخل الحدود التونسية[3]، وفي أقصى الجنوب الغربي تحدها بعض المدن الصغيرة كسيدي هجرس، وسيدي عيسى التي تقتسمها مع إقليم التيطري[4].

---

(1) وزارة الحربية. سجل المنشآت الفرنسية بالجزائر. أوربان و وارني. نبذة حول إقليم قسنطينة.

Ministère de la guerre. ***Tableau de la situation des Etablissement français dans l'Algérie****. Urbain et Warnier.* ***Notice sur la province de Constantine*** *Organisation et situation à l'époque de l'occupation. 1841. p.307.*

جاءت هذه الدراسة عن قسنطينة في اثنتين وخمسين (52) صفحة من صفحات السجل، من الصفحة 307 إلى الصفحة 358 تحت عنوان " نبذة عن إقليم قسنطينة، التنظيم والأوضاع"، متناولا ما يتعلق بالحكومة والإدارة وتعداد القبائل والقوى الشعبية والمصادر المالية وأخيرا إدارة مدينة قسنطينة.

(2) أوربان. السيرة... مصدر سابق. ص 81.

(3) لعلّ كتابات أوربان هذه تساعد على نفي دعوى تونس بأن لها جزءا من الأراضي داخل حدود الجزائر كتبسة. إذ لولا القوانين الدولية القائلة باحترام الحدود الموروثة عن الاستعمار، والتي تبقي الجزائر وتونس على حدودهما الحالية، لكان من حق الجزائر ربّما المطالبة بجزء من الأراضي الموجودة بتونس كمدينة الكاف.

(4) مثلت مدينة سيدي هجرس (بإقليم التيطري) الحد الفاصل بين هذا الأخير وإقليم قسنطينة.

ومن الجانب البشري رأى أورباّن أن الإقليم يتكون من ثلاث إثنيات مختلفة العادات والتقاليد وأنماط العيش واللغة، هذه الإثنيات هي العرب المنتشرون على جنوب الإقليم والشاوية على المنطقة الوسطى منه والقبائل على الساحل في شمال الإقليم.

رأى أورباّن أن عرب الإقليم مربو مواشي وخاصة الأغنام والإبل، ويعيشون على الفلاحة خاصة النخيل وقليل من الأشجار المثمرة ولا ينتجون الحبوب إلا قليلا. أما الشاوية فهم أيضا مربو مواش كالأبقار والأغنام ويعيشون على زراعة الحبوب على الخصوص، ينتشر بعضهم على السهول بينما البعض الآخر مستقر بجبال الأوراس وبلّزمة، وتشتبه عاداتهم إلى حد كبير مع عادات القبائل. أما القبائل فأهم يتكلمون العربية على عكس العرب الذين لا يتكلمون الشاوية. أما القبائل فأهم محاصيلهم الزراعية الزيتون والحمضيات. وهو في ذلك يكرّر كلية ما ذكرناه في كتابيه الجزائر للجزائريين والجزائر الفرنسية.

ورأى أورباّن أن السكان ينتسبون إلى العرش حسب أصولهم، مشيرا إلى أن العرش ينقسم بدوره إلى فرق مشتركة في النسب والروابط القوية. أما الفرقة فتنقسم إلى دواوير وينقسم الدّوار إلى دُشُر (جمع دَشرَة) أي قرية[1].

ففيما يخص تعداد القبائل (*Les Tribus*) أشار أورباّن إلى عشرة قبائل كبرى، تتفرع عن كل منها مجموعة هامة من الفرق والدواوير، وأهم هذه القبائل هي : الحنانشة، قبائل الصحراء بفرعيها (الرّحل والقاطنين قرب الواحات)، الحراكتة، بلّزمة، البرّانية، عامر الشراقة، أولاد دريد، قبائل الساحل التي قسّمها إلى ثلاث قواعد كبرى هي (أولاد براهم، ساحل سكيكدة، ساحل زردازة)، زواغة، فرجيوة[2].

---

(1) وزارة الحربية. السجل. مصدر سابق، ص 313 – 317.

(2) المصدر نفسه. ص 328 – 329.

ومن جانب آخر أشار أوربان إلى "الميليشيات" وحصر مهمتها في نقطتين اثنتين، تتمثل الأولى في تنفيذ قرارات الباي، فيما تتمثل الثانية في العمل على توحيد الجهود فيما يخدم الإقليم. وفصّل أوربان في ذلك من خلال الأمثلة كقبيلة الحنانشة التي تزوّد القوى العسكرية بألف فارس مثلا[1].

أما المصادر المالية للمدينة فبيّن أوربان أنها كانت من مداخيل الضرائب النقدية، وما يجمع عن طريق العشور، أو الغرامات، أو إسهامات المناطق الصحراوية. إضافة إلى أملاك البايلك سواء منها ما ترتّب عن الملكية العامة أو الخاصة كالحُبُس "الأوقاف" مثلا، أو الضرائب المتعلقة بقطعان الماشية أو الأشجار المثمرة[2].

وفي الأخير يشير أوربان إلى الطاقم الإداري لمدينة قسنطينة فيلخّصه في الرتب التالية : قايد الدار، مقدم اليهود، أمين الجماعة (*corporation*)، موظفو البلدية، الناظر المكلّف بالأوقاف، شيخ البلاد المكلّف بالتعليم والأوقاف سواء ما تعلّق منها بالمدارس أو المساجد... .[3]

2-3- نبذة عن إقليم التّيطري[4] Notice sur la province de Titteri

أعدّ أوربان هذه النبذة سنة 1843 حينما كان يشغل منصب مترجم رئيسي لجيش إفريقيا، وقال عنها كما مرّ بنا " وخلال الأشهر العشرة التي قضيتها بباريس حررت نبذة عن إقليم قسنطينة نُشرت في سجل المنشآت الفرنسية بشمال إفريقيا،

---

(1) المصدر نفسه. ص 334 وما بعدها.

(2) المصدر نفسه. ص 340 وما بعدها.

(3) المصدر نفسه. ص 356 – 358.

(4) وزارة الحربية. السجل. 1844. أوربان. نبذة حول إقليم التيطري.
Notice sur L'ancienne province de Titteri. P 307.

الذي تطبعه وزارة الحربية، وفي العدد الموالي نشرت عملا جديدا في شكل نبذة عن إقليم التيطري"[1].

تناول أوربان ابتداء تنظيم الإقليم تحت الحكم العثماني موضحا حدوده بين سلسلتي الأطلسين التلي والصحراوي، أما من الغرب إلى الشرق فيمتد من ضواحي حجوط إلى غاية شرق عريب (عين بسام بولاية البويرة حاليا).

ورأى أوربان أن هذا الإقليم هو الأقل أهمية مقارنة بإقليمي الجزائر وقسنطينة، ولذا نجد بعض قبائله ملحقة مباشرة بآغا الجزائر وتمدّه بفرسان الصبايحية كقبيلتي بني سليمان وموزاية. وتتميز الإدارة به بإحكامها وأسلوبها المباشر في التعامل مع القبائل الذين شعروا بالطمأنينة والاحترام. مشيرا إلى وجود بعض القبائل القوية التي عرفت باسم " الأوطان" ويحكم كلّ وطن منها قائد معين من طرف الباي[2].

أما من حيث السكان، فبيّن أوربان أنهم يتألفون من القبائل والعرب، مشيرا إلى وجود روابط قوية بينهم. وأوضح أن المهنة الرئيسية للقبائل هي زراعة التين والزيتون إضافة إلى امتهانهم الصناعة ومنهم من هو تاجر. مؤكدا أن فرنسا باستطاعتها توظيفهم في الميدان الصناعي الذي تريده بالجزائر. أما العنصر العربي فأوضح أوربان أنه يعيش على الزراعة وخاصة الحبوب (القمح والشعير) وتربية المواشي[3].

وفيما يتعلق بالإدارة بيّن أوربان أن الطاقم الإداري هو نفسه من حيث الرّتب بين الأقاليم الثلاثة، وهي الرتب التي كان قد ذكرها في دراسته عن إقليم قسنطينة. باستثناء أن سلطة إقليم التيطري تخضع مباشرة لآغا الجزائر الذي من

---

(1) أوربان. السيرة... . مصدر سابق. ص81.

(2) السجل. 1844. مصدر سابق. ص 397 – 399.

(3) المصدر نفسه. ص 398 – 399.

مهامه تعيين حاكم تركي (عثماني) على الإقليم.

وبين أوربان أيضا أن الموظفين الذين أخذوا اسم المخازنية والمكاحلية أو زمالة القايد في إقليم قسنطينة عُرفوا بإقليم التيطري باسم " القوم" "*goum*". أما القاضي فيشكل مع القايد ما يشبه محكمة لمعالجة قضايا القبائل التي تعمل إما تحت سلطة الباي أو مجلس المدية للفصل فيها وإلا ترفع للداي ومجلس العاصمة للفصل فيها بصفة نهائية فيما يشبه المحكمة العليا[1].

وقبل أن يتطرق أوربان إلى تنظيم الإقليم تحت إدارة الأمير عبد القادر،عرّج باختصار على وقوع عاصمة الإقليم، المدية، تحت الاحتلال الفرنسي، منبها إلى أن حكم الأمير بالمنطقة لم يستقر إلا بعد معاهدة التافنة وقيام الأمير بزيارة المدية ثانية بعد تلك التي كانت في 22 أفريل 1837. مركّزا على أن الأمير حافظ على النمط الاجتماعي القائم فأبقى على القبيلة تحت حكم قائد معيّن من أحد خلفائه وقسّم كل قبيلة إلى فرق وكل فرقة إلى دواوير[2].

ولم يتجاهل أوربان الإشارة إلى القبائل(*Tribus*) التي تسكن الإقليم، فتطرّق إليها بإسهاب مبينا مواقعها وحدودها وفروعها، وقسّمها إلى :

1- قبائل التل: وأحصى بها أربع عشرة قبيلة وهي : بنو حسّان، حسان بن علي، بنو بويعقوب، وزرة، العمري(*Ouamri*)، عمورة، ريغا، هوارة، أولاد عنتر، أولاد هلال، أولاد لعور، عريب، الحنانشة، موزاية.

2- قبائل شرق الإقليم: وأحصى بها ثماني عشرة قبيلة وهي: الربايعة، أولاد علان، الصحاري (*Sahri* واسمها مشتق من الصحراء على لسان أوربان)، العذاورة، أولاد سي احمد بن يوسف، جوّاب، أولاد فاهرة، أولاد بوعريف،

---

(1) المصدر نفسه، ص 400.

(2) المصدر نفسه، ص 404 – 406.

أولاد دريس، أولاد سي عامر، أولاد بركات، أولاد سلامة، أولاد عبد الله، أولاد سي موسى، أولاد سي علي بن داود، أولاد سيدي هجرس، أولاد سيدي عيسى.

3- قبائل القبلة: وعدّ بها أربع عشرة قبيلة وهي: أولاد هديم (*Hédim*)، أولاد حمزة، امفاطة (*Emfata*)، أولاد مَعْرَف، دايمة السواري (*Déimat souari*)، النيطري (قبيلة)، أولاد دعيّد (*Daid*)، الزناخرة (*Zenakhera*)، أولاد أحمد، العبادلية (أولاد سي عبد الله)، الرحامنية، أولاد مختار، المويعدات.

4- قبائل المخزن: وتضم قبيلتين هما الدواير والعبيدات[1].

4- التقارير

علمنا أن أوربان كان قد كتب لمسؤوليه الذين نشروا ذلك تحت أسمائهم الخاصة، وقد انتهى بنا البحث إلى اكتشاف ثلاثة تقارير، وكم سعينا جاهدين للعثور عليها ولكننا لم نصل إلا إلى تقرير واحد، وهو تقرير كتبه أوربان ونشره وزير الحربية السيد "رونو دو سان جون دانجلي" "*Renaud de saint- jean D'angely*" بجريدة المرشد بتاريخ 25 جانفي 1851 تحت عنوان "تقرير آنجلي حول حكم وإدارة القبائل العربية بالجزائر" "*Rapport sur le gouvernement et l'administration des tribus arabes de l'Algérie*[2]".

---

(1) المصدر نفسه. ص 406. ينبغي أن نذكر هنا أن أسماء هذه القبائل هي ترجمة لما ورد في كتابات أوربان، ولذلك قد تحتمل بعض الأخطاء من حيث نطقها ومن ثمة كتابتها وربما كتابة غير صحيحة، باستثناء ما ورد منها في كتاب دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر للدكتور سعيدوني أو بعض ما توصلنا إلى تسميته الصحيحة عن طريق بعض أصدقائنا من أبناء تلك المناطق.

(2) آنجلي. تقرير حكم وإدارة القبائل العربية بالجزائر. صادر عن وزارة الحربية بباريس. 1851. *Ministère de la guerre. Angely. Rapport sur le gouvernement et l'administration des tribus arabes de l'Algérie*. . وقد جاءت النسخة الأصلية لهذا التقرير في 91 صفحة. ينظر: أوربان. السيرة... مصدر سابق. ص49.

وكان أوربان قد أخبرنا بأنه هو صاحب هذا التقرير بقوله : " وأود أن أشير إلى التقارير التي كنت أحرّرها والتي تمضى باسم وزراء الحربية، كالتقرير الذي أمضاه أنجلي والذي يوضّح الصورة حول القبائل بالجزائر، أو التقرير الذي أمضاه راندون حول العمليات العسكرية لسنة 1851 في شرق منطقة القبائل، وتقرير ثالث أمضاه فايان"[1]. والعناوين الأصلية لتلك التقارير هي كالآتي:

1- أنجلي. تقرير حول حكم وإدارة القبائل العربية بالجزائر

Rapport sur le gouvernement et l'administration des tribus arabes de l'Algérie

2- راندون. تقرير حول العمليات العسكرية لسنة 1851 في شرق منطقة القبائل

Randon. Les Opérations militaires dans la Kabylie Orientale en 1851 .

3- تقرير أمضاه الماريشال فايان "*Vaillant*" لم يذكر أوربان عنوانه.

وقد جاء تقرير أنجلي على ست صفحات من الجريدة المذكورة بداية من صفحتها الأولى، أمضاه وزير الحربية أنجلي كما علمنا. وهو موجّه إلى رئيس الجمهورية لويس نابليون بونابرت لوضعه في الصورة تجاه كيفية التعامل مع القبائل العربية حكما وإدارة، وقد أشار المتن إلى أن هذا التقرير تم تحريره بباريس في 23 جانفي 1851.

حمل هذا التقرير صبغة وصفية لبعض ما تعلّق بشؤون حكم وإدارة القبائل الجزائرية (الأهلية) منذ الاحتلال وإلى غاية 1851، ووجدناه شبيها إلى حد بعيد

---

(1) الماريشال فايان هو جون باتيست فيليبار فايان "*Jean-Baptiste Philibert Vaillant*" من مواليد 1790 عمل في ظل الإمبراطورية الثانية في رتبة ماريشال وعيّن وزيرا للحربية بين 11 مارس،

بما أشار إليه أوربان في كتاباته التي أشرنا إليها سابقا، ولذا رأينا تجنب التكرار إلا فيما نرى ضرورة لذكره. وأول ما ركز عنه هو دعوة رئيس الجمهورية إلى وضع القبائل الأهلية تحت الحكم المباشر للسلطة الفرنسية بواسطة مسؤولين فرنسيين أو بعض الجزائريين الذين هم في خدمة الإدارة الفرنسية[1].

ودلنا هذا التقرير على مساحة الجزائر التي قدرها بـ 390. 9 ألف كلم^2، تبلغ مساحة التل منها 137. 9 ألف كلم^2 أما الصحراء على مساحة 253 ألف كلم^2، مشيرا إلى أن عدد سكان الجزائر يقدر بـ 03 ملايين نسمة، موزعة على الشكل التالي:

1- ولاية الجزائر: تتشكل من 290 قبيلة على مساحة 113 ألف كلم^2 وبتعداد سكاني بلغ 900 ألف نسمة.

2- ولاية وهران: تتشكل من 275 قبيلة على مساحة 102 ألف كلم^2 وبتعداد سكاني يضم 600 ألف نسمة.

3- ولاية قسنطينة: تتشكل من 580 قبيلة على مساحة 175 ألف كلم^2 وبتعداد سكاني بلغ 1. 3 مليون نسمة.

وقد أشاد التقرير بصورة غير معلنة بالجهود التي تبذلها المكاتب العربية في الجزائر فهي التي تراقب تحركات الأهالي لا سيما رجال الدين منهم،كما تقوم أيضا بجباية الضرائب " وتسهر على السير الحسن للإدارة وتزود الحاكم العام بتقاريرها الشاملة حول مختلف الجوانب السياسية والإدارية وقضايا الحكم والإدارة العليا للقبائل الأهلية بالجزائر"[2]. كما يستشف من التقرير أن المكاتب

---

(1) أوربان. تقرير 1851 بإمضاء آنجلي. ص 01.

(2) المصدر نفسه. ص 02. ومن الذين وجدت فيهم فرنسا القابلية للعمل معها، إضافة لبعض القبائل -

العربية هذه قد أحكمت سيطرتها على القبائل في الجزائر، ففي ولاية وهران تبيّن أن فرنسا قد وضعت يدها على كل القبائل فيها حين ربطتها بالمكاتب العربية التي قدّرها التقرير بعشرة مكاتب، أربعة منها من الدرجة الأولى أي تلك المتشرة بالقسمات، وأربعة من الدرجة الثانية أي تلك المتواجدة بالدوائر. أما ولاية الجزائر فتضم هي الأخرى عشرة مكاتب عربية شطرها من الدرجة الأولى وشطرها الثاني من الدرجة الثانية. كما أطلعنا التقرير على تسع مكاتب عربية بولاية قسنطينة ثلاث منها من الدرجة الأولى وستة من الدرجة الثانية. وكل تلك المكاتب مرتبطة بمديرية الشؤون الأهلية وهي الإدارة المركزية أو المكتب السياسي الموجود بالجزائر[1].

=الجزائرية المنضوية تحت لواء فرق جيش الاحتلال كالصبايحية مثلا... ، نجد الموظفين في وظيفة آغا العرب ومنهم على سبيل المثال حمدان بن أمين السكة الذي عمل مع الجنرال بورمون قائد الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830 وهو ما جعله في أعين الجزائريين رجلا حقيرا. ولما أصبح قليل التأثير أنهت الإدارة الفرنسية مهامه وعوضته بأحد الفرنسيين الذي هو المقدم ماراي مونج "Marey Monge" في منصب آغا العرب، فكان بذلك أول فرنسي يتولى إدارة القبائل الجزائرية بصفة مباشرة. وهذا النمط هو الذي أراد أوربان العودة إلى توظيفه. يراجع في ذلك: صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد، 1844 – 1871، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2006، ص 13- 14.

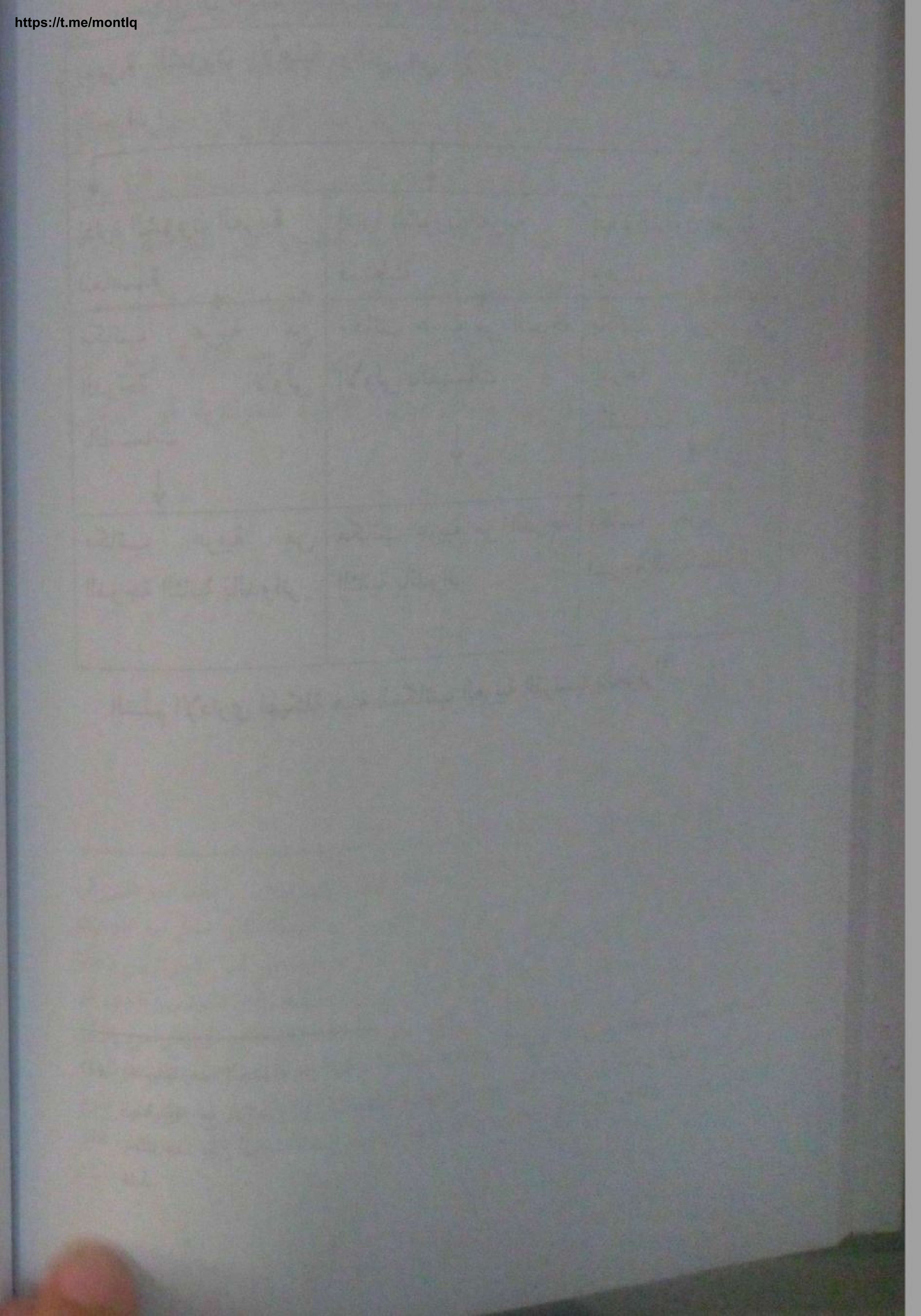
(1) أوربان، التقرير، ص 02 – 03.

ويمكن أن نحدد تنظيم تلك المكاتب على الشكل التالي:

مديرية الشؤون الأهلية والتي هي الإدارة المركزية أو المكتب السياسي (الجزائر)		
إدارة الشؤون العربية العاصمة	إدارة الشؤون العربية قسنطينة	إدارة الشؤون العربية وهران
مكاتب عربية من الدرجة الأولى بالقسمات	مكاتب عربية من الدرجة الأولى بالقسمات	مكاتب عربية من الدرجة الأولى بالقسمات
مكاتب عربية من الدرجة الثانية بالدوائر	مكاتب عربية من الدرجة الثانية بالدوائر	مكاتب عربية من الدرجة الثانية بالدوائر

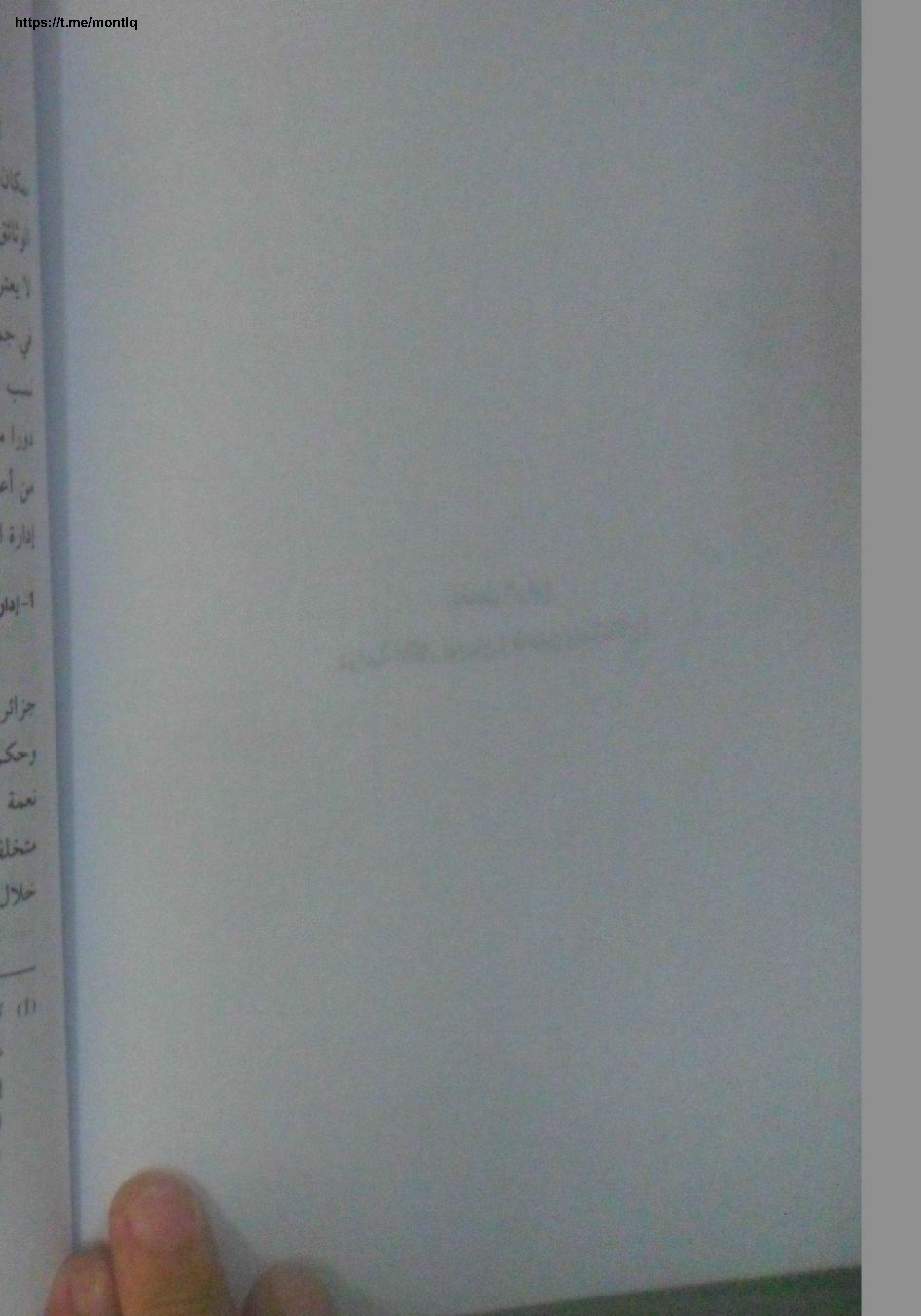
السلّم الإداري لهيكلة هيئة المكاتب العربية الفرنسية بالجزائر[1].

(1) اعتمدنا هذا الجدول من كتاب الدكتور فركوس السالف الذكر مع تصحيح بعض الأخطاء المطبعية. مع الإشارة إلى أن صالح فركوس ينسب هذا التقرير إلى آنجلي طبعا. ومن خلال بحثنا هذا تبين أن هذا العمل هو في حقيقة الأمر من إعداد أوربان بينما اكتفى آنجلي بإمضائه فقط.



الفصل الرّابع

دراسة أفكار أوريان (تحليل واستنتاج)



إن التطرّق إلى مثل هذه الأفكار وما ترتّب عنها من أعمال من الصعوبة بمكان، ذلك أنه لا يمكن حصرها مهما حاولنا جاهدين في ذلك لأننا لا نمتلك وثائق التي يمكننا الاعتماد عليها في نسب ما أمكن من الأعمال إلى أوربان نسبا لا يعتريه شك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نودّ الإشارة هنا إلى أن الاسترسال في جمع الأعمال الفرنسية بالجزائر خلال الفترة المدروسة هذه يجعلنا أقرب إلى نسب لأوربان ما ليس من حقه الاستئثار به، باعتبار أن التيار السانسيموني لعب دورا مهما آنذاك وأن أوربان كان أحد رواده. ولذا حاولنا الاقتصار على ما رأيناه من أعمال ناتجة عن اقتراحات أوربان شخصيا والتي تركزت حول كيفية تثبيت إدارة الاحتلال.

1- إدارة وفهم المجتمع الجزائري:

الملاحظ على أوربان من خلال كتاباته أنه لا يعترف بوجود مجتمع جزائري فيصفه تارة بالجبليين وتارة بالرّحل ومرة أخرى بالعرب والبربر[1]، وحكم عليه حكما قاسيا تمهيدا لمدح الاحتلال الفرنسي على ما أنعم عليه من نعمة الحضارة ، على حد قوله. ذلك أنه حكم على المجتمع الجزائري بأنه متخلف عن الحضارة بقرون، داعيا المعمرين إلى التأثير والحذر من التأثر، من خلال ما يتميّزون به من خصائص تبرز تفوقهم كالفوارق الكبيرة بين حالتهم

---

(1) كان وارني قد سار في مثل هذا الطرح حين اعتبر أن الجزائريين (الأهالي كما يسميهم) كانوا على شكل قبائل ولم يتمكنوا من إنشاء وطن لهم، ومن ثمة ينطلق في محاربة الوطنية لديهم إلى هنا يتفق مع أوربان ثم يختلفان حين يرى وارني أن سياسة المملكة العربية أو المكاتب العربية هي حرية إدارية للأهالي وأداة هامة لتحقيق الجزائر الجزائرية. كما رأى أن المملكة العربية تخدم العسكريين وموظفي المكاتب العربية ولا تخدم المصلحة الفرنسية. يراجع في ذلك: وارني. الجزائر أمام الإمبراطور.
Warnier. L'Algérie devant L'Empereur. Librairie challamel. Ainé. Paris. 1865. p05.

الاجتماعية وبين الحالة الاجتماعية للأهالي. ولذلك تساءل أوربان عن الكيفية التي يُخرج بها الجزائر (المتخلفة بقرون) من خطر الوقوع في التوحش والبدائية ثانية فقال: " كيف يمكننا أن نُلحق هذا المجتمع المسلم بالحضارة؟... وكيف يمكن أن نبعد إفريقيا (الجزائر) المتخلفة بقرون عن خطر الوقوع في البدائية ثانية؟ فلنفهم الواقع جيدا لنبحث عن طبيعة المجتمع المسلم الذي نريده"[1].

ففي هرم السلطة رفض أوربان تقليد الحكم العثماني بالجزائر الذي يراه كغيره من أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية، حكما تيوقراطيا يتمتع فيه الحاكم بالسيادة المطلقة، والإرادة التنفيذية والساهر الأول على تطبيق تعاليم الشرع، والقرآن الكريم فيه هو مصدر التشريع وعلى ضوئه تبنى السياسة فقال في ذلك: "... الحكومات التيوقراطية هي النموذج الذي تتبعه الدول الإسلامية في حياتها السياسية فشيخ الإسلام هو الحاكم وهو الذي بيده السلطة المطلقة وبالتالي التصرف المطلق في شؤون الدولة، كما أنه الساهر الأول على ترجمة تعاليم القرآن الكريم على أرض الواقع"[2].

كما انتقد أوربان، في الوقت نفسه، إدارة الاحتلال بشدّة معتبرا إياها قد عجزت عن تغيير الكثير من هذه الخصائص. فأشار إلى " إن شرف فرنسا ليس في مزيد من الهدم ولا في مصادرة ممتلكات الأهالي وإنما في الإرادة المثلى وإلحاقهم بالمدنية من خلالنا". داعيا فرنسا، من أجل ذلك، إلى أخذ هذه المهمة مأخذ الجد والاستعداد لها استعدادا بليغا حين ضمّن ذلك في قوله: "وبفعل عدم التنظيم الذي كان عليه الغزاة الفاتحون (الفتوحات الإسلامية) كسب الأهالي الرهان في العديد من المرّات"[3].

---

(1) أوربان، الجزائر للجزائريين، مصدر سابق، ص 28.

(2) المصدر نفسه، ص 28.

(3) أوربان، الجزائر الفرنسية، مصدر سابق، ص 59.

كما رفض أوربان أن تقلّد فرنسا جانب القوة والبطش الإداري العثماني الذي كان سائدا بالجزائر من خلال القومية وقبائل المخزن حسب رأيه. فقال حين أشار إلى مجزرة العوفية التي ارتكبتها فرنسا: "إن فرنسا ليست مستعدة أن تجر وراء الأتراك لأخذ كيفية الحكم"[1]. في إشارة منه إلى اتفاق ذلك التنظيم (العثماني) مع النظرة الفرنسية المطبقة في بداية الاحتلال والتي كان أوربان يدعو إلى ضرورة تغييرها بنوع من رد الاعتبار للجزائريين. إذ إن فرنسا كانت قد سارعت مع بداية الاحتلال إلى إنشاء الكتائب الأهلية الخادمة لها على إثر قرار الجنرال كلوزيل في 01 أكتوبر 1830، وهو ما يعود إليه أوربان ويؤكّده بنفسه فقال: " كان النظام العثماني يعتمد على قبائل المخزن، في حين اعتمد الأمير عبد القادر على تنظيم القبائل وجعلها في صفّه وكذلك فعل أحمد باي، أما نحن فلابد أن نعتمد على تكوين الفيالق الأهلية المجندة لخدمتنا بصفة رسمية"[2]. ثم يؤكد ذلك فيقول: "وكان علينا إحياء نظام الأتراك المتمثل في استغلال القبائل العسكرية للقبائل الأخرى"[3]. وكان من ذلك أن ظهر أول فيلق للزواف وتلاه فيلق القناصة الجزائريين *Chasseurs Algériens* وفرق " درك المور(الأهالي)"، والصبايحية[4]. ويمكن استخلاص دورها مما كتبه أوربان: " لقد أعطينا للرماة

---

(1) أوربان. الجزائر الجزائرية. مصدر سابق. ص 37.

(2) المصدر نفسه. ص 83.

(3) المصدر نفسه. ص 83.

(4) كان فيلق الزواف فيلقا جزائريا بحتا ثم مختلطا على عهد النقيب لامورسيير سنة 1833 حيث ضم فرقتين من الفرنسيين وثماني فرق من الأهالي. وفي 20 مارس 1837 أنشئت الفرقة الفرنسية الثالثة. وابتداء من 1841 أصبحت فيالق الزواف فرنسية بحتة. أما جيش القناصة الجزائريين فتأسس في 07 ديسمبر 1841 بمعدل جيش في كل مقاطعة، وأصبح يضم سنة 1852 08 كتائب ثم ما فتئ أن ارتفع عدده في 09 جانفي 1855 إلى جيشين في كل مقاطعة يضم كل واحد 08 كتائب. وفي الأخير استقر العدد عند ثلاث كتائب بوهران وأربع بالعاصمة ومثلها بقسنطينة. أما الترك فكان في بادئ الأمر فرنسيا بحتا حين نزل 113 تركيا مع الحملة سنة 1830 وارتفع عددهم إلى 193 سنة 1835 لا سيما

الأهالي وفرق الصبايحية دورا هاما من أجل تثبيت سيطرتنا بالجزائر. لا نتكلم عن دورهم في ساحة المعركة أو ككتائب منظمة فحسب، بل كان لهم دور كبير في حملتنا على القرم وإيطاليا[1]، كما أبدعوا في الحروب بأوربا... وكان نفعهم

=على الساحل في الجزائر وبجاية ووهران. أما فرقة درك المور وهي الخاصة بالجزائريين فأنشئت في 31 أوت 1839 بأربع فيالق بها 708 من ضباط ودركيين (كان الضباط فرنسيين)، ومع 03 أكتوبر 1860 صدر في شأنهم قرار ينص على توظيف مساعدين من الأهالي بهذه الفيالق على ألا يتجاوز عددهم الاثنين في كل كتيبة. أما الصبايحية فهي القبائل التركية والعربية التي خدمت الإدارة العثمانية واعتمدت عليها إدارة الاحتلال في بسط سيطرتها. لمزيد من الاطّلاع ينظر: الحكومة العامة بالجزائر. جيش إفريقيا 1830 – 1930. التطور والأزياء. تقديم الماريشال فرانشي ديسبيري (المحافظ العام للاحتفالات المئوية بالجزائر).

Gouvernement général de l'Algérie. L'Armée d'Afrique 1830 – 1930 son

(1) معلوم أن القارة الأوربية قد شهدت ثورات عديدة منذ أن شعرت شعوبها باستبداد ملوكهم، بعد تفتحها على الديمقراطية وحقوق الإنسان التي انتقلت إليها من فرنسا بعد نجاح ثورتها سنة 1789، والتي كانت تحمل شعار المبادئ الحرّة: حرية، أخوة، مساواة. وقد عرفت تلك الثورات بثورات 1830 و 1848 في أوربا. وحين هدد البابا الثوار الجمهوريين برفضه الحرب ضد النمسا التي تحتل بعض الولايات الإيطالية خوفا من انفصال النمسا عن كنيسة روما الكاثوليكية خاصة وأنه الساهر على وحدة المسيحيين، اضطر البابا إلى الاستنجاد بفرنسا مستغلا استعداد رئيس الجمهورية الفرنسية لويس نابليون لدعم الكاثوليكيين المؤيدين لحكمه " فجهزت فرنسا جيشا أرسلته إلى إيطاليا فاحتل مدينة روما في جوان 1849 وأعاد البابا إلى عرشه بعد طرد الجمهوريين". ينظر كتاب: عبد العزيز نوار وعبد المجيد النعنعي. التاريخ المعاصر. أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية. دار النهضة العربية. 1973. ص 223. كما أن فرنسا قد شاركت في حرب القرم 1854 – 1856 حين اندلعت الحرب بين روسيا الطامحة إلى مزيد من التوسع والبحث عن الوصول إلى البحر المتوسط وبالتالي تهديد سواحل شمال إفريقيا مما يهدد مصالح فرنسا وبريطانيا بالمنطقة وبين الدولة العثمانية الضعيفة. ومع حسم روسيا المعارك الأولى لصالحها اضطرت فرنسا وبريطانيا إلى نجدة الدولة العثمانية، فهُزمت روسيا في معركة سيباستوبول (ميناء بالبحر الأسود) في سبتمبر 1855، وفرض عليها المنتصرون التزام حدودها. وإننا لا ندري الآن دور الجزائريين في تحقيق هذا الانتصار الفرنسي الذي أشار إليه أوربان، وهو أكيد موضوع جدير بالدراسة والبحث لما يخدم به تاريخنا الوطني. معلومات هذه الفقرة عن نوار ونعنعي. المرجع نفسه. ص 237 – 238.

https://t.me/montlq

بالجزائر مستفيضا دوما حيث شكلوا الصفوف الأولى في كل المعارك الحرجة التي أحاطت بالجنود الفرنسيين"[1]. و" كثيرا ما حققت هذه الفيالق تحت قادتنا انتصارات لصالحنا على حساب القبائل الأهلية دون مشاركة كتائبنا إطلاقا"[2].

دعا أوربان إلى تحقيق التعايش بين الجزائريين والمعمرين لإقامة شعب واحد متشارك تحت السيادة الفرنسية، فصرّح أن الجزائر شهدت قبل الفتح تعددا عقائديا من مسيحيين أرثوذكس، ويهود، وأغلبية وثنية، إلا أنهم اعتنقوا الإسلام جميعا، في الوقت الذي لم يريدوا اعتناق الحضارة الفرنسية اليوم. والسبب في ذلك هو أن المسلمين آنذاك "نجحوا لأنهم أرادوا النجاح (أي أنهم كانوا قدوة)، لكل المسلمين سواء القادة منهم أو الجنود كان طموحهم واحدا هو تحقيق انتصار الدين الجديد"[3]. وفي ذلك دعوة إلى إقناع الجميع أهالي ومعمرين إلى ضرورة العمل من أجل هدف واحد هو تحقيق الازدهار في حضارة بخصائص فرنسية. مذكّرا أن عدم تمكّن فرنسا من تحقيق الكثير في الجزائر يعود أساسا إلى أن " الفرنسيين بالجزائر غير مهتمّين بمهمة التمدين التي يقومون بها، ويعاملون الأهالي كمنهزمين واقعين تحت الضغط والسيطرة، ولم يعاملوهم كمواطنين ملحقين بفرنسا"[4]. فدعا الحكومة إلى الحكمة والتبصر والاستفادة من تجارب الآخرين مشيرا إلى إن المنهج الأجدى لبسط الحضارة الفرنسية هو "أن نحبهم (الجزائريين) ونقدرهم ونحفظ كرامتهم وعاداتهم ولا نطعن في دينهم ولا في مقدساتهم فنصل إلى كسب ثقتهم فيسمعونا ويقلّدونا" وذلك بعد أن اعترف بأن الأهالي يكرهون الحضارة الفرنسية كرها شديدا[5].

---

(1) أوربان. الجزائر للجزائريين. مصدر سابق. ص 84 – 85.

(2) المصدر نفسه. ص 88.

(3) المصدر نفسه. ص 125.

(4) المصدر نفسه. ص 125.

(5) المصدر نفسه. ص 125.

وحفاظا على الجزائر فرنسية جاءت اقتراحات أوربان التي يدعو الإدارة فيها إلى ضرورة التحكّم في الأهالي (الجزائريين) واضحة في مختلف كتاباته لا سيما حين كتب: "إن هذه الدراسة (الخصائص التي يقدمها عن المجتمع الجزائري) أريدها حصانة لنا من السقوط في المطبّات، فالنظام الذي نتبعه ليس نفسه مع كل الإثنيات (الجزائرية) إذ لا نصل إلى تحقيق أهدافنا مع الجميع بتطبيق نفس الاستراتيجية"[1]. ولذلك نصح بتطبيق الإجراءات التالية:

أ-*- تقسيم القبائل إلى دواوير:

وذلك حتى تتمكّن الإدارة الفرنسية من الوصول إلى الملكية الفردية التي استحدثتها، ومن ثمة تسهيل عملية تحويلها إلى المعمرين، ولا نجد هنا أحسن ما نستدل به من مقولة الإمبراطور نفسه في رسالة 1863 والتي هي من أفكار أوربان كما رأينا "إننا قد تأخرنا، ولا بد أن نقسّم القبائل إلى دواوير لتمكين الإدارة من الوصول إلى الملكية الفردية"[2].

ويمكن اعتبار أهم ما صدر في مجال تفكيك الملكية من جماعية إلى فردية هو ما صرّح به الإمبراطور بنفسه في خاتمة رسالة 1863 بقوله: "... إنني أكلّف الماريشال راندون بتحضير مشروع سيناتوس كونسيلت فيما يخص الجزء الأساسي الذي سوف يعيد القبائل إلى شتات وإلى ملاّك ظاهريين لأراض كانوا يملكونها بتوطّنهم عليها واستقرارهم المتوارث بها"[3].

ب-*- تفتيت الأسر العريقة:

نصّت كتابات أوربان على وضع العناصر الخطرة تحت الرقابة الأمنية

---

(1) المصدر نفسه، ص 27.

(2) رسالة 1863، مصدر سابق.

(3) المصدر نفسه.

https://t.me/montlq

أجهزة المكاتب العربية فقال: " كل القوى الحيّة في المجتمع لابد أن نروّضها لتقبل سيطرتنا شاءت ذلك أم أبت من رجال الدين الذين يشكّلون فئات المقاومة أو المحافظين الحاقدين علينا"[1]. مقلّدا العثمانيين فقال: "وكل الضربات التي وجّهناها لهم (الأهالي) منذ الاحتلال كانت ترويضا لهم على تقبّل القوّة مثلما خضعوا لها تحت سلطة الأتراك"[2]. كما دعا إلى دحر السكان إلى الصحراء إبعادا لزعمائهم عن التأثير على عامة الشعب حتى تتجنب فرنسا المقاومات التي أرهقت كاهلها. وهي الأفكار التي دعّمتها فرنسا بمزيد من الإذلال والتبعية على الجزائريين بالإفقار عن طريق مصادرة الأراضي وفرض الضرائب العربية المرهقة. وكل ذلك من أفكار أوربان كما مر بنا. وقد خصّ أوربان تفتيت الأسر النافذة من أرستقراطيين وعسكريين وأسر عريقة سابقة، وذلك بتعويضها بشيوخ وقبائل أخرى من اختيار فرنسا بناء على مدى الإخلاص في خدمتها فقال: "إن الحياة العسكرية في إطار الفيالق المنضوية رسميا تحت الإدارة الاستعمارية تشكّل محطة تجريب لاختيار شيوخ القبائل والقياد والأعوان الأكفاء التي تحكم الكتائب الأهلية... فتقلّص بذلك نفوذ الأرستقراطيين العسكريين بنفس الدور الذي قلّصت به الإصلاحات في مجال التعليم خطر رجال الدين"[3].

ومن أمثلة الأسر التي تشتتت تلك التي تؤول إليها مشيخة القبيلة، والأمثلة في ذلك كثيرة " فقد تدهورت حالة عائلات كانت قبل 1830 غنية برجوازية، ومن ذلك العائلات التالية: آل يحيى آغا، وآل الكبابطي، وآل الساجي، وآل الجبّار، وآل بن قشوط، وآل عمر القبي، وآل بن سيسني، وآل العمالي، وآل ابن العنابي، ويمكن أن نضيف إليهم آل خوجة وآل ابن مرابط، وآل مصطفى باشا،..."[4].

---

(1) المصدر نفسه. ص 86.

(2) المصدر نفسه. ص 86.

(3) المصدر نفسه. ص 89 – 90.

(4) سعد الله. الحركة ج1 ق1. المرجع السابق. ص 93. اعتمادا على أوغسطين بيرك "البرجوازية الجزائرية" بمجلة هيسبرس. 1948. ص 17 – 18.

ما يهمّنا من ذلك الآن هو ضرب الملكية الجماعية والعمل على تحويلها إلى ملكية فردية فتسهل عملية انتقالها للمعمرين وخاصة الفرنسيين منهم، ومن ذلك ما ورد في رسالة 1863: "يجب أخذ أرض القبيلة وتقسيمها على شعوبها (الفرق والدواوير) على أن يتدرج الولاة في عملية تقسيمها على كل الأفراد وتمليكها إياهم ملكية مطلقة فيتصرفوا فيها بحرية كما يشاءون "[1].

وقد تركت هذه السياسة آثارا وخيمة، فمن جرّاء هذا التفكك أصبح أحفاد العائلات الأرستقراطية المشار إليها سابقا في أمسّ الحاجة إلى المساعدة بعد فقدان الأرض والثروة وتعمّد إدارة الاحتلال إفقارها وإذلالها، فتحوّلت إلى عائلات يمدّ أبناؤها أيديهم إلى المستعمِر بغية المساعدة "فهذا حمودة الفكّون (بن شيخ الإسلام) بقسنطينة الذي كانت لعائلته أموال طائلة تضرب بها الأمثال كتب سنة 1852 إلى الحاكم العام راندون يلفت نظره إلى وضع عائلته السّيّء، وهذا حسن بن الباي السابق لقسنطينة علي إنكليز يطلب أيضا من راندون أن يعيّن له معاشا يعيش به... ونفس الطّلبات والشكاوى قدمها بعض كبار الأمس أمثال علي بن عيسى (قائد جيش أحمد باي) ومحمد مزوار الشرفاء في مدينة الجزائر ومرابطي وأشراف بجاية... وزوجتَي أحمد، باي قسنطينة تطلبان سنة 1851 الإنعام عليهما براتب من السلطات الفرنسية"[2].

جـ-*- تأسيس المحتشدات (الكانتونات):

لا ندّعي هنا بأن أوربان كان وراء سياسة المحتشدات وإنما يستشفّ من

---

(1) رسالة 1863، مصدر سابق. وينظر أيضا: عميراوي، من تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص 80.

(2) سعد الله، الحركة ج1 ق1، المرجع السابق، ص 390 – 391. رغم أن إحدى زوجتي أحمد باي هي أخت حمدان بن عثمان خوجة واسمها "خدوجة"، والأخرى وهي بنت محمد بن قانة شيخ العرب بالزيبان وهي "الدايخة"، فكلاهما من عائلتين ثريتين. المرجع نفسه، ص 391.

كتاباته أنه كان ضدّها، خاصة حين قال: "إن سياسة الكانتونات مستحيلة التطبيق"[1]. ومع ذلك اعتمدناها هنا لأن أوربان دعا إلى سياسة التهدئة ومراقبة العناصر الخطرة وإخماد المقاومة وفصل قواعدها الشعبية عنها كما مرّ بنا. فكيف تتم التهدئة وفصل القواعد الشعبية دون اللجوء إلى سياسة المحتشدات التي رآها راندون (الذي كان يَعتبر أوربان خبيرا بالشؤون الأهلية) خير وسيلة لذلك. كما أن سياسة المحتشدات هذه هي طريقة أخرى تخفي وراءها دهاء المنظرين الفرنسيين الذين وجدوها أيضا جزءا من حل مشكلة انتقال الأراضي من الأهالي إلى المعمّرين، إذ حين يجمّع الأهالي في المحتشدات يُسمح للمعمرين بالاستحواذ على جزء هام من أراضي الأهالي تستغلّه الإدارة الاستعمارية في التمكين للاحتلال وبناء المستوطنات.

وقد جاءت الدعوة إلى تأسيس المحتشدات بعد أن سال لعاب نابليون ومنظّريه طمعا في خيرات الجزائر التي وصفها بقوله: "أرض الجزائر لا تزال واسعة والثروات بها معتبرة، فهي تحوي كل مريد للعمل كل حسب قدراته وعاداته واحتياجاته... "، ووصف أهلها فقال: "... هذا العرق (الأهالي) أذكياء وواثقون من أنفسهم، ومحاربون وفلاحون". فقد وصف الجزائر أرضا ومجتمعا بصفات تحمل أسس الحضارة، وذلك ما يتفق مع آراء أوربان الذي اعتبر، من قبل، منجزات الجزائريين عبر التاريخ أهم بكثير من منجزات فرنسا في حد ذاتها فقال: " لابد لفرنسا أن تتجاوز فكرة احتقار الأهالي إذ لابد أن تعلم جيدا أن التطوّرات التي حصلت على هذه الأرض المسلمة لم تحصل على أرضها. وإنما عليها أن تفعّل حركة الأهالي وتثمّن مجهوداتهم للمضيّ قدما"[2].

---

(1) أوربان. الجزائر للجزائريين. مصدر سابق. ص 118.

(2) المصدر نفسه. ص 15.

د-٣- دحر الأهالي إلى الصحراء:

في إطار السيطرة على الممتلكات دعا نابليون في رسالة 1863 صراحة إلى دحر الأهالي وإلجائهم إلى الصحراء فقال: "لابد من دحر العرب إلى الصحراء لأنه من غير الممكن معاملتهم كهنود أمريكا الشمالية (يعني الإبادة) لأن ذلك أمر مستحيل وغير إنساني أيضا". وهذا ما أكّدته كتابات أوربان الأخرى، ومن الشواهد على ذلك رسالة 1865 التي أكّدت على:

1- ضرب العائلات العريقة من خلال زعزعة مكانتها، لأن في ذلك تفكّكا للقبائل والقضاء الإسلامي. فيتم بذلك القضاء على ثوابت أصيلة للأمة الجزائرية تحت غطاء استحداث ديمقراطية حيّة كما وصفتها الرسالة.

2- تسهيل عمليات نقل ملكية الأراضي من الأهالي إلى المعمرين.

3- كراء الأراضي للأهالي من أجل فلاحتها بنظام الخماسة (٢).

4- إبعاد الأهالي من السهول إلى الجبال. وفي ذلك طرد لهم من أراضيهم الخصبة وتمكين المعمرين منها[1].

وذلك ما أشار إليه أيضا تقرير سنة 1851 حين أكّد كل تلك الإجراءات سواء ما تعلّق بالقضاء على نفوذ الأسر الكبيرة (النافذة) كما مرّ بنا، أو بضمّ أبنائها إلى كتائب الجيش الفرنسي للخدمة فيه، واستعمالها كأدوات طيّعة لبسط الاحتلال ضد القوى الوطنية الحيّة، وفي ذلك يقول: " يمرّ الأهالي أولا عبر فرق الزواف ثم الصبايحية ثم فرق الرماة الأهالي فيقومون بواجباتهم بصفوفنا حيث يستكمل حسن السيرة لديهم وتزداد كفاءاتهم العسكرية، بل والكثير منهم قد تعلّم لغتنا... ولا توجد قبيلة إلا ولنا منها جنود، وهؤلاء هم الأداة التي نصل بها إلى زرع الأفكار التي نريدها في أوساط الأهالي. وهم القوة الفعّالة التي نحصّن بها

---

(٢) رسالة 1865 مصدر سابق.

دن وثقافة الأهالي باعتبار أنهم يتكونون بالقرب من مستوطناتنا العسكرية، يمكننا منهم قوة فعّالة بتعداد خمسة آلاف رجل، كما نستعملهم أيضا كمرشدين أثناء حروبنا". كما دعا أيضا إلى توظيف رجال الدين المتساهلين مع المستعمر رغم الذين يسمّيهم "العناصر المتحزّرة الثائرة على التيار المحافظ" وهم (المتحزرون) من صنع الاستعمار في حد ذاته[1]، مشيرا إلى دور المكاتب العربية في مراقبة الرأي العام الجزائري لاسيما رجال الدين منهم[2].

كما دعا أوربان في إجراءاته الإدارية المتعلّقة بإخضاع الجزائريين إلى توظيف قدرات المكاتب العربية التي أشاد تقرير 1851 بالمجهودات التي تقوم بها باعتبارها الساهر الرئيس على حسن سير الإدارة الفرنسية بالجزائر، فهي التي تراقب الرأي العام الجزائري وترفع في ذلك التقارير إلى الحاكم العام وهي التي تشرف على جباية الضرائب من الأهالي وهي التي تراقب حركات الثوار ورجال الدين كما مرّ بنا.

ولا شك أن القارئ يقف أمام فكرتين متناقضتين تتمثل الأولى في دفاع

---

(1) أوربان، تقرير 1851، مصدر سابق، ص 01- 04.

(2) كلها هو عصارة أفكار أوربان في الجانب الإداري. وأود أن أشير هنا إلى محاولة فرنسا استغلال القبائل الجزائرية لخدمتها حين وضعتها تحت تصرّف المكاتب العربية، فكانت فرق (القومية) تقوم بعمليات التفتيش إلى جانب الجيش الفرنسي خاصة في المناطق الثائرة، إضافة إلى استعمالها في جباية الضرائب ومهمة استكشاف الطرق تمهيدا للحملات الفرنسية. ولكن لا ينبغي أن نتجاوز فكرة أن هذه القبائل كلها كانت محل ريبة وشك من إدارة المكاتب العربية، لعلمها أن ولاء هذه القبائل لها إنما هو وليد الضعف وليس القناعة. لمزيد من الاطلاع على هذا الاستغلال الفرنسي للقبائل الجزائرية ينظر: فركوس، المرجع السابق، ص 31 وما بعدها. أما فيما يتعلق بمراقبة المكاتب العربية للرأي العام الجزائري فنشير إلى ما كتب أحد ضباط المكاتب العربية وهو السيد فرديناند إيغوني "Ferdinand Hugonnet" رئيس مكتب مدينة القالة المتمثل في: "لما كنت رئيسا بمصلحة الشؤون العربية بدائرة القالة كان همي الوحيد هو مراقبة الرأي العام للسكان والعمل على إخضاعه لتأثيري". يراجع: المرجع نفسه، ص 46.

أوربان عن الأهالي، في حين تتمثل الثانية في تأييده للدور الذي كانت تلعبه المكاتب العربية. ولعلّ الجمع بين هذين الفكرتين المتناقضتين تجعلنا نقول إن أوربان كان يعتبر الجزائريين مواطنين من الدرجة الثانية حينما يتعلّق الأمر بالمصلحة الفرنسية، ولذا كان يقول: "من حق الأهلي علينا أن نعيره اهتماما أكثر من ذلك المعمّر"، وقال أيضا: "إنهم مثلنا عليهم كل الواجبات وكأهال لهم كل الحقوق التي تؤهّلهم للتمدّن" ثم عاد وبيّن كُنْهَ ذلك بقوله: "على فرنسا أن تجعل مصلحة الأهالي في الدرجة الثانية مقارنة بالمصلحة الفرنسية"[1].

2- حول ملكية الأرض او قانون سيناتوس كونسيلت 22 افريل 1863:

رأينا من خلال هذا البحث أن أوربان كان قد دعا إلى إعداد قانون خاص بالأهالي يضبط لهم الحقوق والواجبات ويضعهم في الدرجة الثانية مقارنة بالمعمرين. ومن بين تلك القوانين الهامة التي جاءت لتعالج قضايا الجزائريين نجد المرسوم المشيخي سيناتوس كونسيلت الصادر في 22 أفريل 1863 المتعلّق بملكية الأرض في الجزائر، والتي ضربت فيها فرنسا كل ما كان مألوفا عند الجزائريين من قوانين شرعية تنظم الملكيّة، ففي الوقت الذي كانت فيه هذه الأرض ملكا للدولة (العثمانية) عن طريق المسؤولين أو قبائل المخزن وممن هم في خدمة السلطة العثمانية أو وقفا أو ملكا جماعيا تتخلله بعض الملكيات الفردية القليلة وفق أحكام الشريعة الإسلامية وكان صاحبها حرّا يستغلها كيف شاء ومتى وفيما شاء، عملت فرنسا على فرنسة كل شيء معتقدة "أن التحكّم في الجزائريين وإخضاعهم لنفوذها يتوقف على تحويلهم من مالكين إلى أجراء يعملون لتنمية ثروات المعمّرين الأوربيين"[2]. فسيطرت فرنسا على الأرض تحت

---

(1) أوربان، الجزائر الفرنسية، مصدر سابق، ص 68.

(2) عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1997، ص136.

مجح لا تقنعها إلا هي أو من والاها، من مثل أنها هي وريثة العثمانيين (الأتراك) لها الحق في السيطرة على أملاك البايلك كما لها الحق أيضا في السيطرة على أملاك الوقف حتى لا تتحوّل إلى دعامة للجهاد، أما الأملاك الجماعية فاستعملت بها حجة معاقبة الثوّار على معاداتهم للتواجد الفرنسي بالجزائر"[1].

ولا يستخلص من كتابات أوربان الشيء الكثير عن علاقته بصدور مرسوم 22 أفريل 1863 وإنما يستنتج ذلك من خلال تطابق شبه كلّي بين مضمون المرسوم وبين ما كان يدعو إليه، فقد علمنا أن أوربان كان لا يحبّذ استعمال القوة في بسط السيطرة على أراضي الجزائريين، ولم يكن راضيا بسياسة المحتشدات التي جاء بها راندون. وكان يدعو لبقاء الجزائريين على أراضيهم لفلحها مع الاستفادة من الطرق الزراعية الحديثة التي يُعلّمها المعمرون، داعيا في الوقت نفسه إلى تأسيس الملكية الفردية وإلى تحطيم التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري القائمة على القبيلة والعرش واستبدالها بالدواوير تمهيدا، كما مرّ بنا، لبناء مجتمع جزائري على الطريقة الفرنسية بحيث تحلّ البلدية (التي تخلف الدوار) محل القبيلة والعرش.

عالج أوربان قضية الملكية عند الأهالي بحذر كبير ولم يكن ثابت المواقف بادئ الأمر إذ أنه صرّح بأن "الملكية شيء مقدّس لدى الأهالي" وأن الأرض بالنسبة للأهالي هويّة أكثر منها قضية مادّيّة، وأن الملكية لا تخرج عن إحدى الثلاثة أوجه فإما فردية أو جماعية أو حق تمتّع (بايلك) وهي بذلك غير قابلة للمصادرة. كما أبدى أوربان اهتماما بليغا بالمعتقد الإسلامي فيما يخص ملكية الأرض فاعتبر الخليفة حاكما باسم الله ومادام أن الأرض لله فإن الحاكم المسلم حرّ في التصرّف في ملكيتها، حسبه دائما. ومن هنا استدلّ على أحقية الدولة العثمانية في ملكية البايلك وأن من حق فرنسا (الحاكم الجديد) أن يمتلك

---

(1) سعد الله. الحركة... ج1 ق2. مرجع سابق. ص 26 – 28.

الأرض فحوّلت بذلك أراضي البايلك إلى مصلحة الدومين. وقال في هذا الشأن: "إننا نرى بأن السيطرة على الأراضي حق طبيعي للحاكم الذي اتّجه لجمع الأراضي العمومية"(1). كما ذهب إلى القول أيضا: "... إننا ندعو إلى استحداث الملكية الفردية"(2). أي داخل الملكية الجماعية تيسيرا لنقلها إلى مصلحة الدومين للتّصرّف فيها كما تشاء كما مرّ بنا.

وإذا علمنا أيضا تأثير أفكار أوربان على سياسة الإمبراطور فباستطاعتنا أن نقول إذا إن الرّاجح لدينا هو أن أوربان هو المهندس الرّئيسي لمرسوم 22 أفريل 1863 إذا علمنا أن أهم ما جاء به هو:

1. الاعتراف بأراضي البايلك.
2. تحديد أراضي العرش ورسم حدودها.
3. إنشاء الدواوير تمهيدا لإعلان البلديات ذات الطابع الفرنسي كبديل عن العرش.
4. إنشاء الملكية الفردية داخل الملكية الجماعية والاعتراف بها.
5. أما أهداف المرسوم فيمكن حصرها فيما يلي:
6. "تسهيل مراقبة الجزائريين بأن تكون الإدارة الاستعمارية حاضرة في أصغر خلاياهم (الدّوّار)".
7. "تفكيك المجتمع والتحكّم في إحدى الخلايا الأساسية فيه (العرش) تمهيدا للسيطرة، وقطع الجذور والأنساب والأصول تمهيدا لإنشاء الحالة المدنية"(3).

---

(1) أوربان. الجزائر للجزائريين. مصدر سابق. ص 94.
(2) المصدر نفسه. ص 35.
(3) سعد الله. الحركة... ج1 ق2. مرجع سابق. ص 30 - 37.

https://t.me/montlq

ب- حول الأحوال الشخصية أو مرسوم سيناتوس كونسيلت 14 جويلية 1865:

على عكس المرسوم السابق، فإن أوربان هذه المرة يشير بصفة مباشرة إلى مسؤوليته في ما جاء في مرسوم سيناتوس كونسيلت الخاص بالأحوال الشخصية أكتب يقول: "طلب مني الإمبراطور ومن السيد كونتي (Conti) إفادته بما يتعلق بالمجالس الإسلامية قبل الاحتلال، وبعد نهاية العرض رأوا أن صيغة المعالجة الرئيسية لابد أن تتم في شكل قانون سيناتوس كونسيلت يعالج الأحوال الشخصية. وقد أثّرت أفكاري على الإمبراطور بدرجة كبيرة جعلته يطلب منّي الحضور للاتفاق حولها مع السيد روهر (Rouher) ومع السيد باروش (Baroch)، فالتقيت هذا الأخير في لقاء حميمي واستمع إليّ بكل احترام وتقدير وطلب مني إفادته بكل ما أعلم حول هذا الموضوع. أما الثاني فكان لقائي معه فاترا جدا ولكنني توصّلت معه إلى نتيجة حين دلّني على السيد دولانغل الذي أصغى إلى كل أفكاري، ولخّص كل الأفكار التي تطرّقت إليها في جلسات المحاضرات التي ألقيتها على الشخصيات المذكورة"(1).

ويمكن اعتبار هذا القانون هو أسوأ قانون أصدره الإمبراطور نابليون الثالث بإيحاء من أوربان كما عرفنا، ذلك أن هذا القانون، كما لا يخفى على أحد، يعتبر الجزائريين مجرّد رعايا فرنسيين ليس لهم الحق في نيل الجنسية الفرنسية إلا إذا تنازلوا عن حالتهم الشخصية كمسلمين. ولعل تفسير ذلك هو أن أوربان ربما استعجل تنفيذ مخططه الرامي إلى صهر الجزائريين حضاريا في بوتقة الحضارة الفرنسية، بأن يضطرهم إلى الخضوع إلى الأهداف التي عمل من أجلها وهي إذابة مقومات الأمة الجزائرية في نفسيّات الجزائريين تحت طائلة الضغط الناتج بسبب البحث عن اكتساب حق المواطنة. وهذا ما كان يرفضه الجزائريون ولا يقبلون المساومة فيه أصلا ولم يقبل به إلا فئة قليلة من خريجي المدارس التعليمية الفرنسية.

(1) أوربان، السيرة... مصدر سابق، ص 79.

4- آراء أوربان في الجانب الزراعي:

أ-*- تأهيل الفلاح الجزائري وتهيئة الأرض:

ألحّ أوربان على ضرورة تهيئة الأرض للفلاحة والعمل على زيادة المساحة الصالحة للزراعة وخاصة بالمناطق الخصبة، فأيّد الحكومة في تجفيف المستنقعات وهدّ سفوح الجبال وأشار إلى أن الإدارة الفرنسية " تحدث كل يوم تغييرات جديدة في استغلال الغابات وهدّ الجبال واستخراج المياه وبناء السدود وإقامة السكك الحديدية... "[1]. فتم استصلاح أراضي هامة بسهل متيجة الذي كانت فرنسا تراه القلب النابض للزراعة بالجزائر بل وتعتبره و خاصة بمنطقة بوفاريك من أجود الأراضي التي لابد أن تُجفّف مستنقعاتها حتى تكون صالحة لاستقطاب المعمرين[2]. وكانت بدايات التجفيف هذه مع نهاية سنة 1845 وإلى شهر فيفري من السنة الموالية[3].

وأهم المناطق الأخرى التي مسّها الاستصلاح بمقاطعة الجزائر كانت تلك المنتشرة ببوفاريك كما أشرنا، من مثل منطقة حوش غيلان (*Haouch-Ghilan*) على مساحة 170 هـ ومستنقعات سوكالي (*Soukali*) حدّ ذاتها والذي قدّرت مساحته بـ 56 هـ إضافة إلى مستنقعات المناطق المحاذية لأودية اسطاوالي ووادي بريجة. كما تم شق مجموعة من السواقي والخنادق بالمنطقة من أجل تسهيل مهمة السكان في استغلال الثروة المائية للأودية

---

(1) أوربان، الجزائر الفرنسية، مصدر سابق، ص 81 – 83.

(2) كراسات الاحتفال المئوي، الكتاب الأول، ج 2، عرض بي <u>الجزائر إلى غاية غزو الصحراء</u>. J. M. Bourget. <u>L'Algérie jusqu'à la pénétration saharienne</u> السابق. بـ "Garcia" الموقع الإلكتروني

(3) كانت عمليات الاستصلاح هذه طبقا لتعليمة حكومية صادرة بتاريخ 22 ديسمبر 1845. ينظر: السجل 1847، مصدر سابق، ص 279.

مجاورة وتسهيلا أيضا لعمليات الرّي.

أما إقليم ولاية وهران فلم يتم به، على ما يبدو، سوى تجفيف مستنقع عين تيفاء على مساحة 20 هـ تقريبا. في حين تم تجفيف مستنقعات الزرامة (Zérams) والصفصاف بالقرب من سكيكدة، وكذلك السهول المجاورة لعنابة وشق أنهار وهد جبال بالمناطق المجاورة لقسنطينة[1].

ولم يكتف أوربان بالمناداة باستصلاح الأراضي فحسب، وإنما اهتم أيضا بضرورة تحسين مستوى الفلاح الجزائري (الأهلي كما يسميه)، بل وصل به الأمر إلى انتقاد عموم المعمرين حين قال: "... ولم يضيفوا شيئا لروتين الأهالي"[2].

وقد اتفقت نداءات أوربان مع نظرة الحكومة الاستعمارية فاهتمت اهتماما بليغا بالجانب الزراعي بالجزائر وتشجيع الأهالي على الإنتاجية الوفيرة التي تعود في نهاية المطاف إليها بجمعها من الأهالي ثم تصديرها، خاصة بعد التراجع المسجّل بسبب سنوات الحروب وعدم الاستغلال الأمثل[3].

كانت فرنسا على قناعة راسخة مفادها أن الأرض الجزائرية أرض معطاء بالتجربة وشهادة التاريخ لها منذ عهد الاحتلال الروماني لها خاصة في محاصيل الحبوب والزيتون والخمر. كيف لا وهي (فرنسا) من اتخذت من قمح الجزائر ذريعة لاحتلالها. ولذا سارع أوربان ومن ورائه إدارة الاحتلال إلى استغلالها في هذه المنتجات بصفة خاصة مع مراعاة نوعية التربة والمناخ واستغلالها أيضا في إدخال زراعة منتجات جديدة كالقطن والتبغ وتحسين سلالات الخيول

---

(1) المصدر نفسه. ص 278 وما بعدها.

(2) أوربان. الجزائر الفرنسية. مصدر سابق. ص 89

(3) ف ريبور. حكومة الجزائر 1852 – 1858. F. Ribourt. Le Gouvernement de L'Algérie. De 1852 – 1858. Paris 1859. p 72 – 73

والمواشي[1]، معتبرين ذلك خطوات أساسية في مسار التحسّن الاقتصادي الذي تريده فرنسا[2] في إطار المهمة التي كانت تصفها بالحضارية.

وفي ظل تلك التحسينات وصلت إلى مرسيليا، من الجزائر، سنة 1851 حمولة 60. 604 ألف هل كانت من القمح الصلب قبل أن تتضاعف 09 مرات خلال المواسم الفلاحية الأربعة الموالية حين قدّرت الصادرات الجزائرية التي وصلت إلى مرسيليا بـ 547. 520 ألف هل من القمح الصلب سنة 1855 الشيء الذي جعل فرنسا تعترف بأن الجزائر بوّأتها احتلال المرتبة الأولى عالميا بقيمة صادرات بلغت 20. 471. 296 مليون فرنك فرنسي خلال السنة نفسها لا سيما بعد الاستثمارات الخاصة بالمعمرين في هذا المجال على عهد الإمبراطورية الثانية إذ أنه: "... من 1852 إلى 1859 تحصّلت 51 شركة على تنازلات ليصل العدد بذلك إلى 50 ألف هـ من الأراضي والغابات، ومن بين أهم المستفيدين نذكر (الشركة السويسرية) بـ 12350 هـ متنازل لها عنها بين 1860 و 1877، كما تحصلت شركة (الشركة الجزائرية) على 100هـ و(الشركة الفرنسية الجزائرية) على مناطق نفوذ قدرها 24 ألف هـ"[3].

ب-*- إعادة بعث زراعة محصولي التبغ والقطن:

ومن الزراعات التي اهتم بها أوربان ودعا الحكومة إلى الاهتمام بها زراعة التبغ، ولكننا نقول هنا إن التبغ لم يكن محصولا جديدا بالجزائر فزراعته على

(1) أوربان. الجزائر الفرنسية. مصدر سابق. ص 64.

(2) كراسات الاحتفال المئوي. الكتاب الحادي عشر. جون ميرانت. فرنسا والأعمال الأهلية بالجزائر. J. MIRANTE. La France et les œuvres Indigènes en Algérie. "Garcia" بـ الموقع الإلكتروني السابق.

(3) رضا حوحو. مشروع السكة الحديدية الفرنسية بالجزائر وأثرها في تدعيم سلطة الاستعمار (1830 - 1914). رسالة ماجستير قسم التاريخ بجامعة قسنطينة. 2005. ص 26.

العهد العثماني(1) كانت تحتل مساحات ولو قليلة وذلك على سهول القالة وعنابة ومتيجة. ولكن الجديد هنا هو أن أوربان دعا إلى: " التمكين لزراعة التبغ والاهتمام بها"(2). وهو ما اتفق فيه مع الحكومة الفرنسية التي عملت على تحسين هذا النوع من المحاصيل مستفيدة من الخبرة التي يمتلكها المعمرون في ذلك والتي استفاد منها الجزائريون فيما بعد وأصبحت محاصيل التبغ الجزائرية تضاهي نظيراتها العالمية(3).

وقد اهتمت الحكومة الفرنسية بزراعة التبغ بداية من 1843 وفي ذلك جاء تصريح وزارة المالية الفرنسية في محضر 20 جانفي 1844 ينص على: " إن الجزائر مؤهلة لإنتاج محاصيل جيدة من التبغ بشرط استغلال التربة والمناخ". فكان ذلك إيذانا بميلاد عهد جديد لبعث زراعة التبغ بالجزائر المحتلة(4).

وتشجيعا لهذا المحصول اضطرت الحكومة العامة إلى التدخل بمنع المعمرين من استغلال الفلاحين الجزائريين بطريقتين، تمثلت الأولى في تحديد أسعار التبغ بقرار من وزارة المالية مؤرخ في 01 أكتوبر 1844 على النحو التالي:

النوعية الجيدة (الأولى) : 130 ف للقنطار الواحد.

النوعية الثانية: 110 ف للقنطار الواحد.

النوعية الثالثة: 90 ف للقنطار الواحد.

أما الطريقة الثانية فتمثلت في تدعيم الفلاحين من خلال شراء محاصيلهم عن طريق تجار التبغ. ولدينا في سنة 1857 نموذج لذلك حيث ارتفع عدد

---

(1) سعيدوني، دراسات... مرجع سابق، ص 213 وما بعدها، وكذلك السجل، 1847، مصدر سابق، ص 208.

(2) أوربان، الجزائر الفرنسية، مصدر سابق، ص 82.

(3) السجل، 1847، مصدر سابق، ص 208.

(4) المصدر نفسه، ص 208.

المتجين إلى 3279 متجا جزائريا ومعمّرا حصدوا محصولا قدّر بـ 3. 430. 149 مليون كلغ من مساحات إجمالية قدّرت بـ 3749 هـ، دون احتساب كل ما استهلك بالمكان و965. 441 كلغ تم شراؤها مباشرة من قبل التجار من أجل تصديرها إلى كل من تونس والمغرب الأقصى[1].

وفي ضوء ذلك أصبحت الإنتاجية في تحسّن على الشكل التالي:

1843 : 800 كلغ وخاصة من ضواحي بوزريعة.

1844 : 21534 كلغ تم شراؤها كلّيّة.

1845 : أنتج المعمرون 60. 727. 70 كلغ بيع منها 51. 902 كلغ.

وأنتج الأهالي 37. 110. 36 كلغ بيع منها 33. 288 كلغ.

أي تم بيع 85. 190 كلغ من مجموع الإنتاج المقدّر بـ 97. 838. 06 كلغ. أما المنتوج الباقي فقد تكفّلت الإدارة بشرائه، كما اشترت في السنة الموالية (1846) 200. 000 كلغ[2].

وإضافة إلى زراعة التبغ نجد أيضا زراعة القطن التي لم تكن هي الأخرى جديدة بالجزائر، حيث إن هناك من يعود بها إلى العصور الوسطى[3]. ونجد أن أوربان قد أيّد الحكومة حين دعا إلى ضرورة الاهتمام بها كما رأينا بعد أن شجّعت الإدارة الاستعمارية زراعته وأضحت الجزائر من بين أهم المناطق المتجة له في العالم مما جعل فرنسا تعتمده كمصادر حيوي يوجّه، بصفة خاصّة، إلى لويزيانا بالولايات المتحدة الأمريكية[4]، خاصة لطبيعته المزدوجة فهو سلعة

---

(1) ريبور. مصدر سابق. ص 75.

(2) السجل. 1847. مصدر سابق. ص 209 – 210.

(3) يشير سعد الله إلى أن كتب الرحلة تشير إلى ذلك. يراجع: سعد الله. الحركة... ج1 ق2. المرجع السابق. ص 67

(4) ريبور. المصدر السابق. ص 75. وكانت الولايات المتحدة قد اشترت لويزيانا من فرنسا سنة 1803.

تجارية ومادة خام للنشاط الصناعي.

وينبغي هنا أن نشير إلى أن الإدارة الفرنسية أدخلت زراعة القطن، بعد تجديد الاهتمام بها، على يد السانسيمونيين من خلال السيد هاردي (*M. Hardi*) الذي كان قد كسب خبرة واسعة في هذا المجال بعد التجربة التي خاضها في مصر مستفيدا من تجربة محمد علي في هذا الميدان، فأصبح هاردي مديرا للمشتلة المركزية للقطن بالجزائر[1].

وبفعل النجاح الذي حققه السيد هاردي والتطور الذي حصل على زراعة القطن بمشاتله قدّم الإمبراطور سنة 1852 مساعدة مالية قدرها 10 آلاف ف في إطار مشروع تنموي لمدة 05 سنوات بهدف الوصول إلى محاصيل جيّدة كما ونوعا، وهو المخطط الذي آتى أكله بعد أن استغلت مناطق الواحات الجنوبية والأغواط وباتنة. فتوسّعت مساحة المناطق المستغلّة في زراعته وارتفع الإنتاج ليصل إلى 200 ألف كلغ سنة 1857[2].

ج -*- توفير الثروة المائية:

كما أكّد أوربان على ارتباط التقدّم الفلاحي وكذا الصناعي بوفرة المياه لمعالجة مشكلة الجفاف ولتدعيم المنشآت الصناعية بما تحتاجه من مياه، فوافق الحكومة الاستعمارية حين كتب: "... كما اهتمينا بالري خاصة وأن الشبكة الهيدروغرافية بالجزائر تجف سنويا، ولذا بنينا السدود على الأنهار الرئيسية الكبرى... وأقمنا قنوات الري خاصة لما يتعلّق الأمر بالأراضي الجافة مثلما فعلنا في سان دونيس (*Saint-Denis*) بسيق بمقاطعة وهران بطاقة ضخ فائقة تقدّر بملايين الأمتار المكعبة". وأعلن بذلك موافقته على ضرورة اهتمام الحكومة

---

(1) المصدر نفسه. ص 75.

(2) المصدر نفسه. ص 75.

بشق السدود والقنوات واعتماد أسلوب الري وحفر الآبار الارتوازية. بل ويستشف من كتاباته أنه كان عنصرا فاعلا في تلك السياسة حيث قال: " وفي الجنوب حفرنا الآبار الارتوازية إذ إن الأرض هناك غنية فعلا بالثروة المائية حيث تضخ حاليا (1861) آلاف الأمتار المكعبة خلال الدقيقة الواحدة كتلك المتواجدة بوادي ريغ"[1]. وقد جسدت إدارة الاحتلال ذلك حين تمكّنت من إيصال مياه الري إلى الأراضي ومياه الشرب إلى المدن[2] عن طريق جيش إفريقيا الذي وصفته (الإدارة) بأنه حقق ما لم يحققه جيش آخر في العالم حين ادّعت: "... فعمل (جيش إفريقيا) على نشر الحضارة(؟) في أرجاء البلاد الواسعة... ففتح الطرق وجفف المستنقعات وهدّ الجبال وأقام الجسور والسّدود وأخضع القبائل"[3]. ونحن نعلم أن هذا الجيش قد تغيّرت تسمياته على طول فترة الاحتلال من 1830 إلى 1962 من جيش إفريقيا إلى فيالق الاحتلال إلى الجيش الفرنسي... ولم يكن ناشرا للحضارة برهة واحدة وإنما كان حاملا للإبادة والجشع طول وجوده على الأرض الجزائرية.

ولقد اكتشفت إدارة الاحتلال وهي تبحث عن تحقيق مشروعها الاستيطاني بالجزائر طبقة هامة من المياه الجوفية تنحدر من الواجهة الجنوبية للأطلس الصحراوي وتتجه نحو بسكرة إلى غاية وادي ريغ، فقررت أن تستغلها بواسطة الآبار الارتوازية التي انطلقت أشغالها في 09 جوان 1855 وبعد 39 يوما من الحفر تم الوصول إلى الطبقة الجوفية على عمق 60 مترا، وبالتالي كان إيذانا بحفر أول بئر بالمنطقة بطاقة ضخ قدرت بـ 4000م^3 يوميا بمنطقة تامرنة (*Tamerna*) بوادي ريغ وسرعان ما وصلت طاقة ضخّها إلى 6480م^3 يوميا، أي بمعدل 4500 لترا/

---

(1) أوربان. الجزائر للجزائريين. مصدر سابق. ص 113.

(2) ديبور. مصدر سابق. ص 73.

(3) المصدر نفسه. ص 34.

الدفينة، وهي طاقة ضخ كبيرة جدا.

وقد استغل هذه البئر سكان المنطقة في مختلف حاجياتهم اليومية فسعت إدارة الاحتلال إلى توظيف ذلك في تسهيل احتلال المنطقة التي كانت تحت ضربات الحملات منذ ما يقارب الخمس سنوات، وهذا ما جعلها توقع من وتيرة التنقيب عن الماء لتظهر أمام الرأي العام المحلي في صفة ناشر الحضارة وخادم الإنسانية، فحفرت بئرا ثانية سمّتها "عين العافية" ربما تفاؤلا لعل العافية تحل بسود الأمن والاستقرار المنطقة فتصبح آمنة مطمئنة لفرنسا أو أنه اسم مشتق من المكان الذي وُجدت فيه العين. وقد صرّحت فرنسا بأن طاقة هذه البئر الأخيرة تجاوزت طاقة ضخ بئر غرونال (*Grenelle*) بباريس. كما حفرت آبارا أخرى نذكر منها واحدة بالقصور بالحضنة بطاقة ضخ 3336 ل/د وأخرى بسيدي سليمان سمّتها " عين الحياة" بطاقة ضخ 4000 ل/د[1].

وفي المجموع يمكن أن نشير إلى إحصائيات 08 جوان 1865 التي تصرح فرنسا من خلالها أنها وصلت إلى تحقيق مبتغاها كما وكيفا وغاية من وراء حفر الآبار. تلك الإحصائيات التي تشير إلى مايلي:

47 بئرا ارتوازية تم حفرها بكل من بسكرة وتقرت بمجمل طاقة 87، 132 م³/يوميا، و24 بئرا تقليدية تم حفرها بواحات تقرت بطاقة إجمالية قدرت ب 4، 994 م³/يوميا، وأربعة أخرى إلى الجنوب منها تضخ 338 م³/يوميا، و16 بئرا قديمة موروثة عن العهد الروماني بسهول الحضنة تضخ ما مقداره 8، 239 م³. أي أن مجموع الآبار قد بلغ سنة 1865 واحدا وتسعين (91) بئرا بإقليم قسنطينة توفر يوميا 100 ألف م³[2].

---

(1) المصدر نفسه، ص 35 – 36.

(2) المرشد، السنة 05، ع 149، بتاريخ 22 جوان 1865، ص 01 – 02.

5- آراء أوربان فيما يتعلّق بالمواصلات:

ارتأينا التركيز أكثر في هذه الفقرات على شبكة السكة الحديدية نظرا للاهتمام الذي أبداه أوربان بها ولما كان لها من دور أيضا في خدمة الاستعمار، بل وقد أسسها خصّيصا لذلك، ولما لها كذلك من صبغة استثمارية عالمية. وقد ارتبطت مشاريعها على وجه الخصوص بالتيار السانسيموني، فهم الرواد في فتح خطوطها بفرنسا وإيطاليا والنمسا وإسبانيا وروسيا والجزائر أيضا[1]. ويهمنا هنا الدور الذي لعبه أوربان في ذلك، فهو قد أيّد إنشاء طرق السكك الحديدية وإقامة الجسور من أجل توفير عوامل الإنتاج والتّسويق[2]. كما اقترح الحاكم العام راندون، الذي كنا قد رأينا تأثره بأفكار أوربان، إنشاء شبكة للسكك الحديدية بالجزائر بقرار 08 أفريل 1857[3]. ونشير إلى أنه إذا كان أوربان قد حرص على إنشاء هذه السكة لتكون الأداة الفعّالة لتنشيط الإنتاج والتسويق ومن ثم خدمة الاقتصاد فإن إدارة الاحتلال جعلتها أداة مهمة في بسط الاحتلال وأناطت بها هذا الدور رسميا بعد 1870 أي بعد انتهاء دور أوربان ومن يقفون إلى صفّه رسميا، وذلك حين رأت الحكومة العامة المدنية حاجتها الماسّة إلى آليات فعّالة لإخضاع (الأهالي) المتمردين بعد ثورة المقراني 1871 فوجدت في السكة الحديدية الوسيلة التي تحقق أمانيها[4].

تحول اقتراح راندون إلى عمل ميداني على إثر صدور قانون 20 جوان 1860 الذي حل النزاع القائم بين شركات السكك الحديدية الراغبة في الاستثمار بالجزائر، وبتاريخ 11 جويلية 1860 استفادت " شركة السكك الحديدية الجزائرية"

---

(1) إيميريت. المصدر السابق. ص11.

(2) أوربان. الجزائر الفرنسية. مصدر سابق. ص 82.

(3) للاطلاع على نص هذا القرار يرجى الاطلاع على: جوحو مرجع سابق، ص 61.

(4) المرجع نفسه. ص 168 – 169.

من إنجاز الخطوط الثلاثة الأولى"

- خط الجزائر – البليدة : مدة الإنجاز سنة واحدة.
- خط سكيكدة – قسنطينة : مدة الإنجاز 04 سنوات.
- خط وهران – سيق مع وجود فرع للميناء : حدّدت مدة الانتهاء من إنجازه قبل حلول سنة 1863[1].

كما أن أول ما تم إنجازه هو بناء محطة آغا بالعاصمة حين إنشاء خط الجزائر - البليدة المتّجه نحو وهران في محاولة لربط الساحل الجزائري: "وفي بضعة أشهر وصلت السّكة إلى بوفاريك (من الجزائر) على طول 36 كلم مع 04 جسور كبرى و 35 جسرا صغيرا و 26 قناة"[2]. ومن المفيد هنا أن نشير إلى أن أوربان هو من أشرف على حفل التدشين الرسمي لأول خط حديدي بالجزائر ألا وهو خط الجزائر – البليدة في 15 أوت 1862 بحضور جمع غفير من الصحافة الفرنسية[3]. وقد أصبح هذا الخط في الخدمة بداية من 08 سبتمبر 1862[4].

وكما سبقت الإشارة إليه وهو أن السكة الحديدية أرادها أوربان أداة فعّالة لخدمة الاقتصاد، فقد ساهمت فعلا في تحويل الإنتاج الزراعي والصناعي من

---

(1) المرجع نفسه. ص 81. صادق قانون 20 جوان 1860 على إنجاز خطوط السكة الحديدية الفرنسية الثلاثة بالجزائر وهي: قسنطينة – سكيكدة، الجزائر – البليدة، وهران – سيق. أما الشركات الكبرى التي كانت متنازعة حول الاستئثار بنيل امتيازات إنجاز خطوط السكة الحديدية فكانت أربعة وهي: 1- شركة السكة الحديدية بالجزائر. 2- شركة شارل لافيت "*Charles Laffite*". 3- شركة مير "*Mires*". 4- شركة باكستون وميتي "*Paxton*" و"*Maillet*" التي أنجزت سكة حديد السويس – القاهرة بمصر. المرجع نفسه. 79 – 81.

(2) المصدر نفسه. ص 81.

(3) أوربان. السيرة... . مصدر سابق. ص 185. يشير أوربان إلى أن حفل التدشين كان في شهر أوت. أما تحديد الخامس عشر منه فقد اعتمدناه عن : حوحو. مرجع سابق. ص 82.

(4) حوحو. المرجع نفسه. ص 82.

مناطق الإنتاج إلى الأسواق الداخلية قبل نقلها إلى الأسواق الخارجية. وأوضحت إحصائيات 1862 – 1868 أن العائدات التجارية للسكك الحديدية قد بلغت 10 آلاف عن كل 01 كلم، ومع 1870 كانت إدارة الاحتلال قد أنجزت 395 كلم موزّعة على الأقاليم الثلاثة وتربط الساحل الجزائري ببعضه[1]. ولعل في ذلك تمهيدا لتنفيذ احتلال كل من تونس الذي تم سنة 1881 والمغرب الأقصى الذي كان سنة 1912.

وإذا كان أوربان قد أراد أن تكون السكة الحديدية في خدمة الاقتصاد فإن الإدارة الفرنسية أضافت لها دورا موازيا ألا وهو إخضاع الجزائريين لسلطة الاحتلال، فسمح لها ذلك بتجاوز الكثير من الصّعاب والمعوّقات التي كانت تلاقيها إن هي أرادت غزو كثير من المناطق، ووضعت في أيدي المعمرين أيضا وسيلة هامة لتسويق محاصيلهم الفلاحية في أسرع وقت وبأقل التكاليف وذلك ما جعل الجزائريين يرغبون عن استغلال القطار في حياتهم اليومية وفي نقل منتجاتهم أيضا، وربما كان ذلك نوعا من المقاطعة العفوية التي تكشف عن نقمة شعبية تجاه أساليب الخداع الاستعماري، ولم يلجوا باب استعمالها إلا بعد 1878 بعد ألفة معها قاربت العشرين عاما أو بعد قناعة قد تكون ترشحت فيهم تفيد باستغلال هذه الوسيلة لربح الوقت واختصار المسافات بدلا من تعاملهم معها على أنها وسيلة للغزو وتذويب المجتمع.

أما الطرق البرية فاهتمت بها الإدارة الفرنسية هي الأخرى، بل وقبل اهتمامها بمشروع السكة الحديدية، وذلك لدورها في التمكين للاحتلال، فقد أزالت ما يعترض الطريق من الغابات وهدّت الجبال وأقامت الجسور على الأودية من أجل فتح شبكة الطّرقات التي تعدّدت أنواعها بين طرق وطنية وأخرى جهوية ولائية وأخرى بلدية. والملاحظ أن الفترة الممتدة بين 1830 و 1845

---

(1) كوردبي، مصدر سابق، ص 241.

شهدت فتح 05 طرق وطنية هي :

- طريق الجزائر – الأغواط.
- طريق الجزائر – وهران.
- طريق الجزائر – قسنطينة.
- طريق المرسى الكبير – تلمسان.
- طريق ستورا – بسكرة[1].

أما مستوى تقدّم الأعمال بها وببعض الطرق الأخرى فكان سنة 1845 على الشكل التالي:

- طريق الجزائر – الأغواط : انتهت به الأشغال إلى غاية جسر الشّفة.
- طريق الجزائر – قسنطينة : تقدمت الأشغال به ببطء حيث لم ينجز منه سوى 17 كلم.
- طريق الجزائر – سور الغزلان : إنجاز 12 كلم فقط بداية من العاصمة.
- طريق الجزائر – البليدة عن طريق الدويرة : تم إنجاز 30 كلم بداية من العاصمة.
- طريق البليدة – الأطلس : تم فتح 09 كلم فقط.

أما سنة 1868 فتوضّح لنا الإحصائيات تطوّر أشغال فتح الطرق على النحو التالي:

- طريق العاصمة – الأغواط : تم إنجازه إلى غاية بوغار (بولاية المدية حاليا).

---

(1) فريد فراحي و احسن سيد احمد. <u>فهرس الطرقات 1843 – 1965</u>. من خلال وثائق ولاية الجزائر. مذكرة لنيل شهادة الليسانس في علم المكتبات والتوثيق. معهد علم المكتبات والتوثيق. جامعة الجزائر. 1988. ص 05.
Farid Farrahi et Ahcèn sid ahmed. <u>Répertoire du fonds voirie et vicinalité (conserves aux archives d'Alger, 1843 – 1965)</u>

*- طريق الجزائر – قسنطينة : تم إنجاز 55 كلم.

*- طريق الجزائر – سور الغزلان : تم إنجاز 37 كلم.

*- طريق الجزائر – دلّس : تم إنجاز 75 كلم.

*- طريق البليدة – القليعة : تم إنجاز 20 كلم[1].

والملاحظة التي يمكن الخروج بها هي عزم السلطات الاستعمارية على استغلال الساحل الجزائري وتوفير مختلف وسائل الراحة به بما في ذلك التنقل للمعمرين تشجيعا لهم على القدوم إلى الجزائر خاصة في هذه المرحلة الأولى، مع الاتجاه نحو السيطرة على المناطق الداخلية من خلال فتح طريق بوغار وسور الغزلان...

6 - آراء أوربان في الجانب الثقافي:

أ- *- في الإعلام:

أدرك أوربان مبكرا دور الإعلام في خدمة أهداف الاحتلال مثلما أدركه السانسيمونيون من قبل كما أشرنا سابقا. وأدرك أيضا بأن الفعالية المرجوة للإعلام لن تتم إلا إذا كانت بلغة أهل البلد، فكان من الدّاعين إلى أهمية تأسيس جريدة ناطقة باللغة العربية بالجزائر تعمل من أجل الدعاية للتمكين الاستعماري الفرنسي فيها[2]. وذلك ما عبّر عنه في رسالته إلى صديقه بواصُوني (Boissonnet)[3]

---

(1) فرانك جوليان. احتلال متيجة. ج4. كراسات الاحتفال المئوي. باريس 1930. ص 628. Franc julien. La Colonisation de la mitidja. T4. librairie ancienne horone champion. Paris. 1930.

(2) أوربان. الجزائر للجزائريين. مصدر سابق. ص 172.

(3) هو إستاف لورون بارون بواصُوني "Estève Laurent Baron Boissonnet" أتقن العربية كتابة وقراءة، وعيّن مديرا للشؤون الأهلية بقسنطينة سنة 1844 و لقبه سكانها بـ"بوستة". عمل على استقطاب العلماء والمثقفين ليمدحوا فرنسا، إيمانا منه بمكانتهم المحترمة في أوساط الشعب.

ين وقف مؤيدا لإنشاء جريدة المبشّر فقال له: "إن مخاطبة الأهالي بلغتهم هو أجدى طريق لتحقيق ما نصبو إليه"(1). وكتب عن هذه الجريدة مايلي: "لقد أصدرنا جريدة نصف شهرية ناطقة بالعربية وهي سلاح هام بالنسبة لنا"(2). وذلك بعد أن أعلنت إدارة الاحتلال عن ميلادها في 05 شوال 1265 هـ الموافق لـ: 15 سبتمبر 1847(3). وهي جريدة نصف شهرية تصدر منتصف وآخر كل شهر، وهي بذلك أول جريدة عربية بالجزائر وثالث جريدة باللغة العربية تصدر في الوطن العربي. وقد عملت إدارة الاحتلال على توزيعها مجانيا أول الأمر على الموظفين

ومن هؤلاء العلماء نجد محمد الصالح العنتري الذي اغتنم موقفه المعادي للعثمانيين بحكم أن الحاج أحمد باي كان فيما سبق قد قطع رأس أبيه محمد العنتري فدعمه لكتابة كتابه "الفريدة المؤنسة أو تاريخ بايات قسنطينة" سنة 1846 وهو كتاب يبرز الحكام العثمانيين في صورة قاتمة، فيما يظهر فرنسا على أنها صاحبة الخصال الحميدة. بل وأراد بواضوني أن يجعل من العنتري وسيلة لإسكات الأهالي وتقبلهم لفرنسا، فكان العنتري يقول: "في عهد الدوق أومال وبوسة كول خبزتك واتهنّى (كذا)". كما نشر العنتري بإيعاز من بواضوني كتيبا بعنوان "هدية الإخوان الذي يبين المبادئ العامة للحضارة الغربية. كما عمل بواضوني أيضا على استمالة محمد الشاذلي القسنطيني إلى أن وصفه تقرير فرنسي بمايلي: "ينبغي استخدامه (محمد الشاذلي القسنطيني) واستعماله أحسن استعمال... فهو أحد أئمة الدين حيث يمكن الاعتماد عليه في هذا الجانب المؤثّر لصالح سيادتنا... لقد قدم خدمات جليلة لفرنسا لما كان قاضيا بالمكتب العربي، وكان منبوذا من طرف المجتمع المسلم وغير محبوب فيه، بل كانت سمعته سيئة في وسط هذا المجتمع. نال إعجاب راندون فاختاره لمرافقة الأمير عبد القادر في منفاه بأمبواز في شهر أفريل 1848. لمزيد من المعلومات. يراجع: أبو القاسم سعد الله. محمد الشاذلي القسنطيني 1807 – 1877. دراسة من خلال رسائله وشعره. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1974. ص 17 وما بعده. وكذلك فركوس. المرجع السابق. ص 253 وما بعدها.

(1) رسالة أوربان إلى بواضوني. بتاريخ 02 نوفمبر 1847. بـ ميشال لوفالوا. إسماعيل أوربان... مرجع سابق. ص 505 – 506.

(2) المصدر نفسه. ص 133.

(3) المرشد. ع 25 سبتمبر 1847. ص1. ويراجع أيضا: محمد ناصر. المقالة الصحفية الجزائرية. نشأتها، تطورها، أعلامها 1903-1931. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1978. ص42.

الرّسميين بصفة خاصة ليقوموا بتداول مشاريع الاحتلال ونشرها في الأوساط الشعبية خدمة لأهداف الإدارة وتمهيدا لتطبيقها.

وقد صدرت جريدة المبشر باقتراح من الجنرال دوماس المكلّف بالشؤون الأهلية الذي اقترح بدوره ذلك على وزير الحربية الذي أمر بصدورها بالتاريخ المذكور. ولعبت دورا هاما فعلا في بسط نفوذ الإدارة الاستعمارية إذ كلما أقدمت الإدارة على فعل شنيع أو قرار فظيع كلما سارعت هذه الجريدة إلى أسلوب التهدئة امتصاصا لغضب الأهالي، عاملة على تخفيف وطأته عليهم مقنِعة إياه بالطابع الحضاري والأمل في الرّقي والهدف النّبيل الذي تنشده إدارة الاحتلال من ورائه[1].

وكانت جريدة المبشّر تصدر في أربع صفحات من الحجم الصغير ذات لغة ركيكة بعيدة عن لغة الصحافة مما يعكس ثقافة الجزائريين والمستشرقين العاملين بها. بل ويرى المختصّون أن هذه الجريدة ليست لها قيمة من الناحية الصّحفيّة[2]. ولكننا نقول إنها كانت تمثّل الأسلوب الأجدى لإطلاع الرأي العام الجزائري على ما تمليه الحكومة من تشريعات، إذ ورد في مقالها الافتتاحي أنها (الجريدة): "ستصدر مرتين في الشهر، وأنها ستنشر الأوامر والتشريعات التي يصدرها الرؤساء وأمراء المقاطعات إلى الموظفين. كما ستنقل إلى الأهالي الجزائريين تعليمات الحكومة الفرنسية. وعلاوة على ذلك فإن الملك لويس فيليب يريد أن تحوي هذه الجريدة المسمّاة المبشّر قدرا من الأخبار والمعلومات المفيدة وذلك لرفع المستوى الثقافي للسكان المسلمين"[3]. ولكنها في حقيقة الأمر ليست أكثر

---

(1) سعد الله. الحركة... ج1 ق2. مرجع سابق. ص 39.

(2) عواطف عبد الرحمان. *الصحافة العربية في الجزائر*. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1985. ص 27.

(3) جريدة المبشر. العدد 01. بتاريخ 15 سبتمبر 1847.

مما ذكرنا من أنها يد فرنسية لترويض الجزائريين وتهيئتهم للقابلية للاستعمار، حتى ولو كانت تضيف لهم بعض المعارف من خلال إطْلاعهم على ما يدور حولهم من أحداث محلّية أو عالمية.

رغم الدور الكبير الذي كانت تقوم به جريدة المبشر من أجل التمكين للاحتلال فإن هناك أصواتا جزائرية ظلت رافضة لسياسة المخادعة والتضليل التي تمارسها هذه الجريدة، ومن ذلك الرسالة الصادرة عن مؤلّف مجهول والتي تتهم مباشرة جريدة المبشر "بتضليلها للناس وبالأكاذيب التي عملت على تشويش أفكار الجزائريين متسائلة في شكل استفهامي توبيخي للاستعمار: " إنكم أخبرتم الناس بأمر البلدان والقرى والأوطان وعلى أهليهم... فما فايدة (كذا) إخبار الناس بذلك من حين أخذتم البر (أي منذ أن استوليتم على الوطن) ولم يبق لكم منازع "[1].

ب- * - في التعليم الأهلي:

أما التعليم الأهلي فقد اعتبره أوربان ضعيفا وفارغ المحتوى وبدون أهداف، من خلال إهماله الإعداد للوظائف العامة، مشيرا إلى عجز الزوايا والكتاتيب على تأسيس مؤسسات تضاهي المدارس الفرنسية منتقدا غياب الدولة الفرنسية التي كانت، حسبه، دون تأثير ولا تدخّل مباشر ولا حتى مراقبة تفرضها على هذه الزوايا التي تتدعّم من الأوقاف وتلعب دورا مكمّلا للمسجد. كما يتكفّل سكان الأحياء بتلاميذ المدارس القريبة منهم ذات النظام الداخلي، فضلا عن جمع التبرّعات وتقديم الهدايا للمعلّمين[2]. أما مواد محتويات الدروس المقدّمة فكانت ذات طابع ديني في المدارس الابتدائية مع تأخير العلوم الأخرى إلى المرحلة الثانوية.

---

(1) فركوس. مرجع سابق. ص 47.

(2) أوربان. الجزائر للجزائريين. مصدر سابق. ص 42. وينظر أيضا: تورين. مرجع سابق. ص 131.

يمكن أن نجد تبريرات كثيرة لملاحظات أوربان على التعليم الأهلي بالجزائر وعلى مستواه أيضا لأنه كان ضعيفا فعلا وبسيطا وغير مجد باعتبار أنه لا يهتم بمصالح الأمة الدنيوية بالقدر المقبول، وهذه ملاحظات هامة، إذ ما الفائدة من تعليم يسير على رجل دون أخرى (دين دون دنيا)؟. ولكن الغريب هو أن أوربان طعن في التعليم الأهلي وتناسى أن الإدارة الفرنسية هي من عملت على إفراغه من محتواه، أوَ ليست هي من صادرت الأوقاف؟ ومن حطّمت واستولت على المساجد والمدارس؟ ومن قلّصت دور العلم؟ ومن حرمت الجزائريين من المدارس الحرّة... ؟.

سبق وأن أشرنا إلى أن أوربان قد أعلن صراحة عن أفكاره فيما يتعلّق بالتعليم الأهلي فقال: "إن هذه الزوايا تخرج لنا رجال الدين والمقاومة ولذا فنحن على خطر كبير إذ لابد من تأسيس مدرسة إسلامية عليا في كل مقاطعة من المقاطعات الثلاثة تدرّس نفس المواد المدرّسة في الزوايا، إلا أن المدراء والأساتذة لابد أن نعيّنهم نحن ويتقاضون أجورهم من عندنا، فنراقب التعليم بها ونسهر عليها ونؤطّرها"[1].

كما أيّد أوربان أيضا "إنشاء مدارس ابتدائية فرنكو- عربية للتعليم الفرنسي والعربي بالمراكز السّكّانية الكبرى بمدير فرنسي ونائب من الأهالي لتكوين شباب مفرنسين يساهمون في نشر لغتنا"[2]. وذلك تمهيدا طبعا لنشر ثقافة التغريب والفرنسة.

وللخروج من بساطة التعليم الأهلي دعا أوربان إلى إدخال العلوم المختلفة من " حساب وتاريخ وجغرافيا ورسم إلى جانب تحفيظ القرآن (الكريم)، بحيث يدرس التلميذ (في هذه المدارس الفرنكو -عربية) القرآن (الكريم) ويحفظه مثلما

---

(1) أوربان. الجزائر للجزائريين. المصدر نفسه. ص 42.
(2) المصدر نفسه. ص 39.

لم عليه الحال في المدارس الأهلية، بشرط أن تكون نحن من أعدّ الكتب المدرسية... كما نلقّن التلاميذ، يوميا، الأناشيد الوطنية الفرنسية".

ولم يكتف أوربان بهذا وإنما أوضح أنه: "تمهيدا للثورة التي نريد أن نحدثها داخل الأسرة الجزائرية لابد أن نمنح الوقت الكافي للشعب كي يدرك أهمية إنشاء مدارس للإناث، فالنساء الأهليات مستعدّات للخياطة ولديهن رغبة كبيرة في القراءة والكتابة، وهذا التقدّم المادي سيحرّر المرأة الأهلية من الأعمال الجدّ متعبة في بيتها. وهن سعيدات بهذا التحول الذي يجعلهن كبعولهن أو أبنائهن"[1].

ويمكن أن نقول أن المدارس الابتدائية قد انتشرت حينما كان أوربان مديرا للشؤون الأهلية، بل وربما هو من كان وراء تشكيل "لجنة بيدو" سنة 1846 خاصة وأننا رأينا أن بيدو كان يستفيد من استشاراته لأوربان كما مرّ بنا في الحملة على بسكرة. هذه اللجنة التي تكون قد أثرت على وزارة الحربية التي كانت الجزائر تتبعها، فشجّعت سنة 1853 على التمكّن في اللغة العربية بمنح الجوائز والسّبق بالأولوية في التوظيف المدني. ولم يكن ذلك حبا في الجزائريين أو تمكينا للغتهم وإنما كان ذلك صناعة لأفراد يكونون في خدمة الإدارة الفرنسية قلبا وقالبا بعد توظيفهم في ميادين التعليم والقضاء والترجمة بالمكاتب العربية[2].

ونشير هنا إلى أن أطروحات أوربان تتفق إلى حد بعيد مع حالة التعليم السائدة آنذاك واقعا وأهدافا، حيث إننا إذا علمنا أنه كان مستشارا لمسؤوليه ولو

---

(1) أوربان، الجزائر للجزائريين، المصدر نفسه، ص 40.

(2) اعتمدت في هذه الفقرة التي تتناول خلاصة عن موضوع التعليم عن: أبي القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، مرجع سابق، ص 321 وما بعدها. اهتمت لجنة بيدو هذه بدراسة واقع التعليم ونوعية الدروس بالمؤسسات خاصة في المجالين الديني واللغوي لارتباطهما بالجانب الحضاري للجزائر.

بصفة غير رسمية وأنه كان مقرّبا من الإمبراطور وأنه من كبار المهتمين بالشؤون الأهلية بالجزائر، فإننا نقول عن أرجح الاحتمالات لدينا تشير إلى أن أوربان هو من نظّر لتلك السياسة التعليمية، ولنا أن نقارن بين ما ذكرنا من أطروحاته حول التعليم وبين ما ننقله في هذه الفقرة:"... وهو (التعليم العربي-الفرنسي المزدوج الموجّه للأهالي) على أنواع، منه المدرسة الحضرية – الفرنسية، ثم المدرسة الخاصة بالأهالي. وكلها كانت مدارس في مستوى التعليم الابتدائي،... ثم هناك المدارس الرسمية الثلاث التي ابتدأت عربية محضة ثم أصبحت مزدوجة وهي مدارس كانت تخرّج القضاة والمترجمين والمدرّسين، وكان مستواها هو التعليم المتوسّط والثانوي رغم أن بعض الاستعمالات الفرنسية تعطيها صفة التعليم العالي أيضا... وأخيرا هناك المدرسة السلطانية، كما تسمّيها (المبشّر) أو الكوليج الإمبريالي (الإمبراطوري) كما هو أصل التسمية الفرنسية، وهو معهد (كوليج) أسس للدراسة المزدوجة والعالية في الجزائر بإدارة فرنسية"[1].

ومن أجل القضاء على التعليم الأهلي الذي كان مصدر تخريج المدرّسين والقضاة وأساسا متينا للهوية الوطنية الجزائرية ضربت الإدارة الفرنسية أسسه فحاصرت المسجد والزاوية وصادرت الأوقاف، بل وأهملت هذا التعليم بصفة مطلقة خلال المرحلة الممتدة بين 1830 و 1850 وأقامت على أنقاضه التعليم المشار إليه خدمة لمشروع الاحتلال لأنه يتخرّج منه المدرّس والقاضي والموظّف المدني، وهم الذين تراهن عنهم فرنسا في بسط نفوذها إن هي تمكّنت منهم. وفي ذلك كتبت المرشد " وقد أنشأناها (المدارس الثلاث) من أجل محاربة الزوايا التي يقودها المرابطون وهي تعمل تحت رقابة ضباطنا العاملين بالمقاطعات من خلال استخدام المكاتب العربية"[2].

---

(1) أوربان، الجزائر للجزائريين، المرجع نفسه، ص 322.

(2) المرشد، ع 195 بتاريخ 11 ديسمبر 1863، ص 2.

وإذا كان لا يهمنا هنا إلا ما يربط العلاقة بين واقع التعليم آنذاك وأفكار أوربان، فإننا نرى أيضا أنه من الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أن أغلب الجزائريين قد قاوموا هذه المشاريع مقاومة جادّة، إذ أنهم رفضوا إرسال أبنائهم إلى الفرنسة والسّير خطوات نحو التنصّر وظلوا متمسّكين بالكتاتيب والزوايا ومنهم من اضطر، بفعل ذلك، إلى الهجرة إلى كل من تونس والمغرب أو إلى المشرق. كما بقيت الزوايا الجهادية على العهد تدعم المقاومة وتزوّدها بفتاوى الجهاد وتعبئة الشعب.

كما أن طبيعة دروس المدارس الثلاث التي أنشأتها فرنسا سنة 1851 تبدو متوافقة مع ما نادى به أوربان في الأفكار التي ذكرنا، حيث كانت جزائرية محضة سواء من التلاميذ أو الإدارة وذات برنامج عربي وإسلامي يعبّر عن شخصية المجتمع الجزائري الذي تنتمي إليه، قبل أن تتدخّل الإدارة الفرنسية وتجعل إدارتها فرنسية ومعلّميها من الجزائريين والفرنسيين مع الأخذ في الحسبان أن أغلب المدرّسين الجزائريين كانت تختارهم الإدارة الفرنسية ممن لا يتوفّرون على أخلاق المربّي ولا على الكفاءة المهنية، وإنما تختارهم من الأكثر ولاء لها خدمة لتكوين أمّة لها القابلية للاستعمار.

ولعلّه من المفيد هنا أن نترك الفرنسيين أنفسهم يحدثوننا عن الأهداف المبتغاة من وراء فرنسة التعليم بالجزائر، فهذا دي بوسيه يقول: "من المستعجل جدا أن نمكّن الأهالي من لغتنا أكثر مما هو مستعجل أن نمكّن أنفسنا من لغتهم، فالعربية لن تكون مفيدة لنا إلا من جهة علاقتنا مع الإفريقيين (يقصد الجزائريين)، أما اللغة الفرنسية فهي لا تبدأ علاقاتهم معنا فقط، ولكنها بالنسبة إليهم هي المفتاح الذي به يدخلون بر الأمان، فهي التي تجعلهم يعرفون كتبنا ويتعرّفون على أساتذتنا، أي يكونون على اتصال بالعلْم الفرنسي. إن تعلّم العربية ليس وراءه سوى اللغة لذاتها، أما تعلّم الفرنسية فوراءه كل المعارف الإنسانية وكل ما

أنتجه التقدّم العقلي عبر السّنين"[1].

إن هذا الكلام كما لا يخفى على ذي بال رشيد، لم يكن مجرّد إبراز للتفوق الفرنسي على التخلف الجزائري، وإنما كان يعبّر عن مشروع حضاري بعيد المدى جاءت به الإدارة الفرنسية لغسل أمخاخ أبناء الجزائريين تمهيدا لغرس الثقافة الفرنسية فيهم حتى يسهل دمجهم في المجتمع الفرنسي دمجا حضاريا تزول فيه الخصائص الأدبية والأخلاقية أي المعنوية الحضارية رغم أن أوربان نفسه هو القائل إن هذه الأمة الجزائرية خير وأرسخ تاريخا من الأمة الفرنسية ذاتها.

ويضيف دي بوسيه: "إن الهدف (من التعليم) كان محو التعصّب الديني والكراهية عن طريق التعليم بالفرنسية والحضارة والتقدّم، وذلك لا يكون إلا بإحداث لغة مشتركة في الجيل الصاعد وتقريبه من الفرنسيين بتبنّيه نفس الأفكار ونفس المصالح" وهي نفس الفكرة التي نادى بها أوربان في إطار التشارك.

وفي إطار الاستدلال بأقوال الفرنسيين حري بنا أن نسجّل ما كتبه طوكفيل (*A. de Tocqueville*) حين قال: " لقد استولينا في كل مكان على هذه الأموال (أموال المؤسسات الخيرية التي غرضها سد حاجات الإحسان والتعليم العام) وذلك بأن حوّلناها جزئيا عن استعمالاتها السابقة، وأنقصنا المؤسسات الخيرية وتركنا المدارس تتداعى وبعثرنا الحلقات الدراسية. لقد انطفأت الأنوار من حولنا وتوقف انتقاء رجال الدين ورجال القانون، وهذا يعني أننا جعلنا المجتمع الإسلامي أشدّ بؤسا وأكثر فوضى وأكثر جهلا وأشدّ همجية بكثير مما كان عليه قبل أن يعرفنا"[2].

---

(1) سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج3. مرجع سابق. ص 328.

(2) شارل روبير أجيرون. تاريخ الجزائر المعاصرة. ترجمة عيسى عصفور. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ط2. 1982. ص 36.

الخاتمة

عاش أوربان منذ الصبا حياة مضطربة جعلته يفتقد إلى الحنان الذي وجده في المدرسة السانسيمونية حين احتضنه زعماؤها في فرنسا، وبعد أن شعر بالأنس معهم ودرس أفكارهم التي وجد فيها الصبغة الإنسانية، وبعد أن تفتح على الصراع الدائر بين العالمين المسيحي والإسلامي، تعلّق بفكرة اكتشاف العالم الإسلامي (الحضارة الشرقية) فانتقل إلى مصر مرورا بأراضي الدولة العثمانية سواء في اسطنبول التي حط فيها الرحال أو في الأراضي التي كانت له معبرا مثل اليونان التي كانت لا تزال عثمانية. وفي مصر وجد نفسه أكثر انجذابا إلى أبنائها المسلمين الذين ساهموا في التخفيف مما كان يعاني منه حين اقتسموا معه آلامه ووقفوا معه فاعتنق الإسلام عن قناعة، فيما بدا لنا، و مات عليه بالجزائر سنة 1884.

وإذا كان أونفونتان قد جرّب تطبيق الأفكار السانسيمونية في مصر وعاد منها خائبا ودخل الجزائر من أجل بث أفكاره فإن أوربان اكتشف العالم الإسلامي في مصر بصفة خاصة وحاول تجريب أفكاره بالجزائر منذ أن وطئتها قدماه سنة 1837 ولكنه خرج منها خائبا هو الآخر. فقد حاول أوربان التمكين لنفسه من خلال العسكريين ولذا كان شديد الدفاع عن الحكم العسكري بالجزائر، إلا أن دفاعه هذا لم يكن تحت دافع الأنانية الذاتية وإنما خدمة لمصلحة فرنسا التي رآها تتحقق ما بقي العسكريون والسانسيمونيون منهم بصفة خاصة على رأس إدارة الاحتلال، وتزول متى تحكّم المدنيون في الحكم لأنه يرى فيهم الجشع والبحث عن الثروة والمصلحة الخاصة مع احتقار الجزائريين وذلك ما يعتبره أوربان السبب الأكبر لدفع المحتقَرين إلى الثورة. وبالتالي نهاية فرنسا بالجزائر.

وينبغي لدارس هذا الكتاب أن يرى أوربان خادما للمصلحة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر وليس العكس، حيث كان قد حاول التخفيف على الجزائريين والتكلّم باسمهم حين كانوا مستضعفين وكان صوتهم مبحوحا، ولكنه فعل ذلك إخمادا لروح الثورة فيهم وهو الذي آمن بأن الضغط يولّد الانفجار. وفي ذلك ينبغي التنبيه إلى أن الجزائر كانت محظوظة حين فشل أوربان في تحقيق مساعيه، لأن أوربان أراد التخفيف من الإبادة والقهر على الجزائريين ولكنه كان يرى أن إخضاعهم إنما يتم بطريقة أذكى وأقل تكاليف وأحفظ لماء وجه فرنسا أمام الرأي العام الدولي، وهي طريقة ضرب مقومات الأمة، فضرب التعليم والهوية الوطنية بالخصوص. وهنا نشير إلى أن الإبادة والقهر مخاطرهما آنية والانعتاق منهما مأمول لأنهما يحملان بذور ذلك. ولكن ضرب الهوية ومقوّمات الأمة هو قتل بطيء للمجتمع وتذويب له دون آلام تدعوه للرفض وتدفعه للتحرّر. حتى إذا وقع الأمر وجدت الأمة نفسها تابعة وفاقدة للسيادة وتائهة فلا تهتدي إلى كيفية بناء مجتمعها البناء الحقيقي والصحيح الذي يضمن لها السير الطبيعي. ومن ثمة نقول إن أوربان كان خطر الفكر مهما كانت نياته في ذلك تجاه الشعب الجزائري.

وإضافة إلى ما عرضه البحث فيما يتعلّق بتاريخ الجزائر في الفترة المدروسة أو حول شخصية أوربان فإنه أيضا قد حقق جملة من الأهداف نحاول إجمالها فيما يلي:

1- إماطة اللثام عن كثير من الخبايا في نشاط السانسيمونيين في مصر والجزائر، وكذلك في شخصية أوربان.

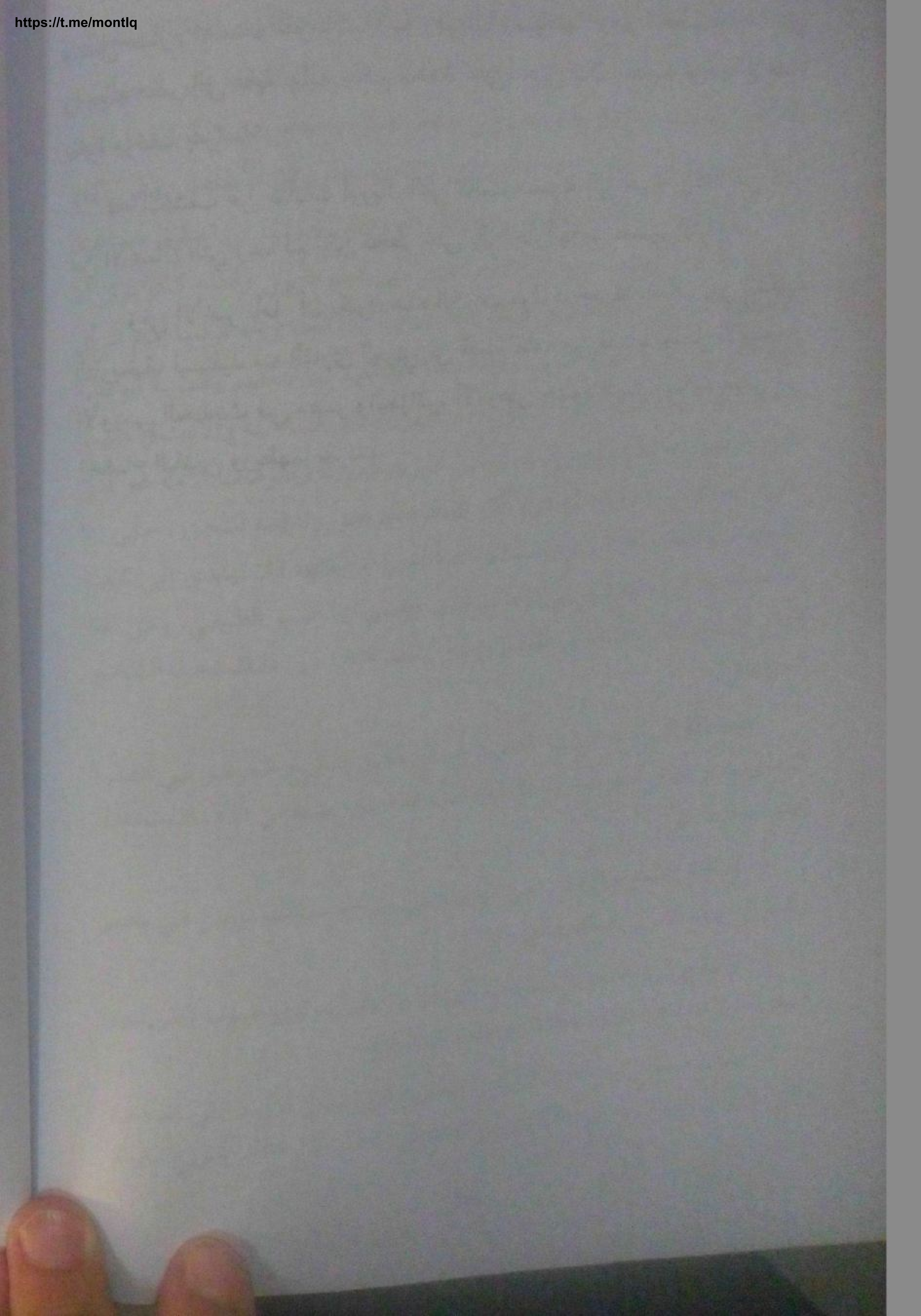
2- وضوح الرؤية حول تصوّرات أوربان والسانسيمونيين عموما وطريقتهم المقترحة لإخضاع الشرق انطلاقا من مصر ثم الجزائر.

3- معاناة الجزائريين تحت السياسة الخطرة التي سعى أوربان إلى تنفيذها، والتي لا تزال مخاطرها إلى الآن وربما للمستقبل إن لم يكن هناك مشروع مضاد

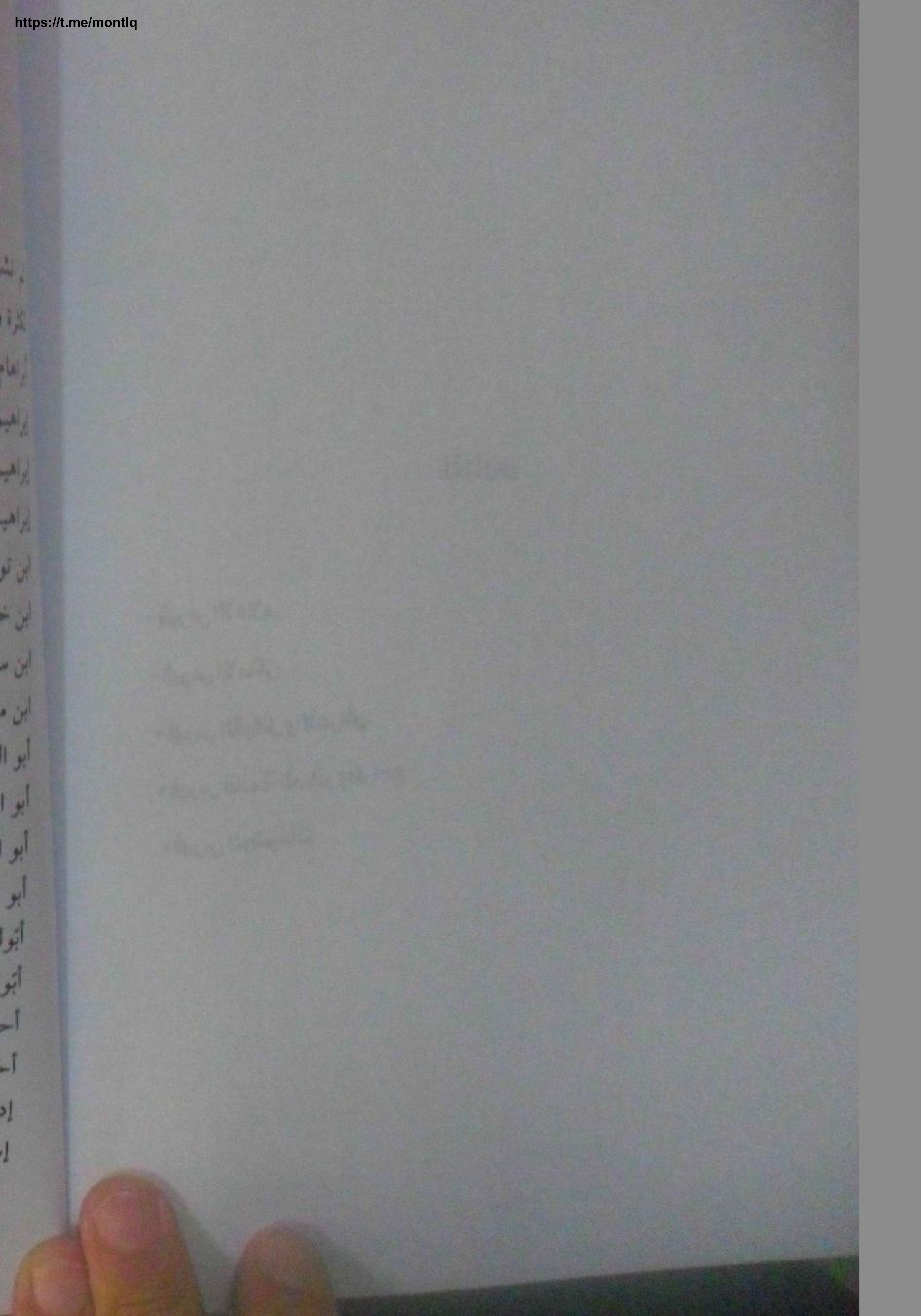
وعمل صارم لضمان مقوّمات الأمة وهويتها وسيادتها. وهو الخطر نفسه الذي واجهته مصر إلى غاية نهاية حكم محمد علي، حين كان التعليم موجها لإعداد نخبة مرتبطة بفرنسا.

4- الكشف عن كتابات أوربان التي كانت منسوبة إلى غيره، وكذا عن كثير من الأعمال التي ربما لم تكن تخطر على بال أحد أنها من صميم اقتراحاته.

وفي الأخير نأمل أن يكون هذه الكتاب مولودا جديدا يضاف إلى المكتبة التاريخية، ليستفيد منه القارئ العربي في قضية هامة من قضايا تغلغل الاستعمار الأوربي الحديث في مصر والجزائر. ألا وهي جهود التيار السانسيموني في إخضاع البلدين وربطهما بفرنسا.

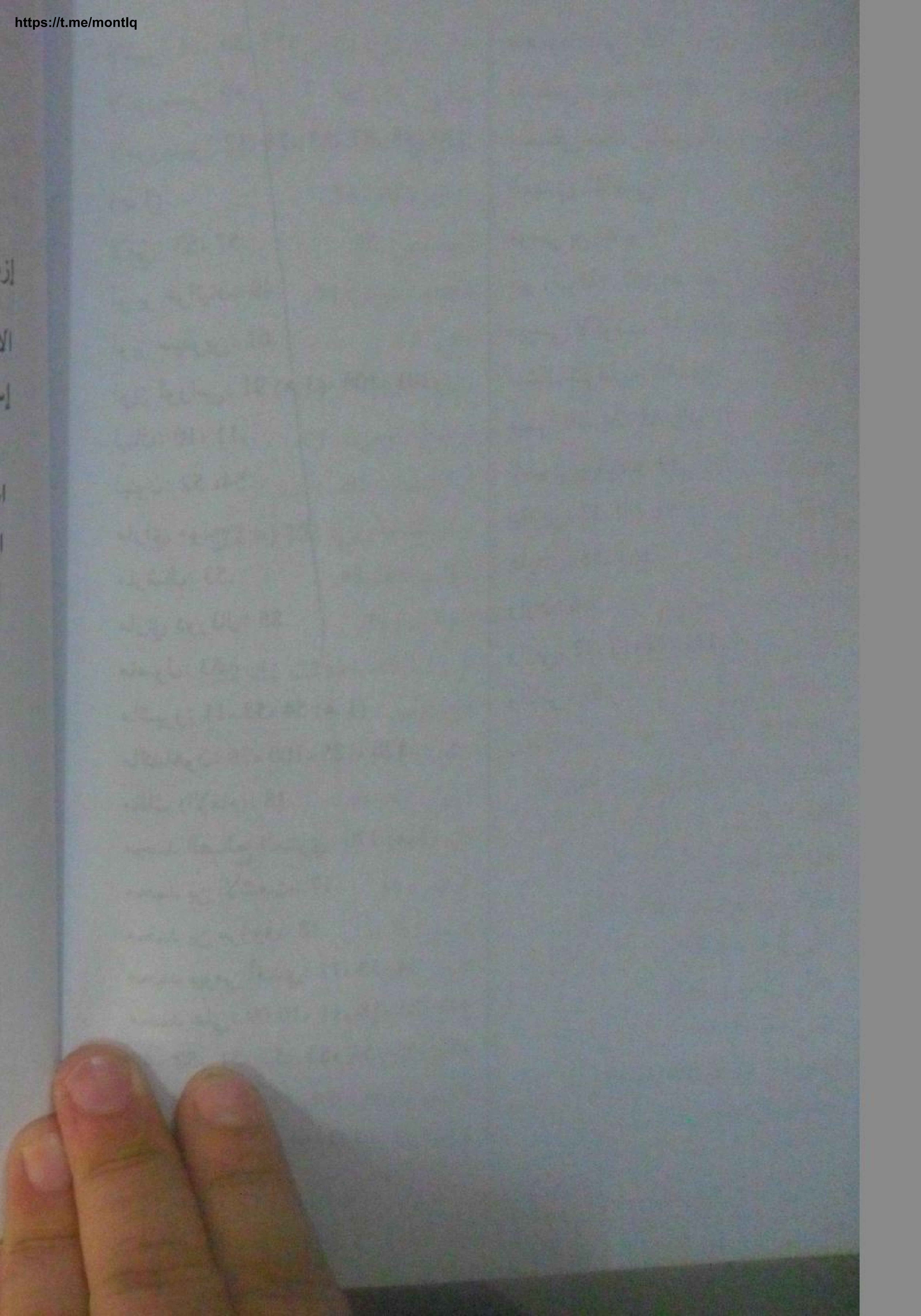


الفهارس



فهرس الأعلام

https://t.me/montlq



فهرس الأماكن

فهرس القبائل والأعراش



قائمة المصادر والمراجع

1-المصادر باللغة العربية:

1- القرآن الكريم.

2- جريدة المبشّر، العدد 1847.

3- حمدان خوجة. المرآة. تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري.ط2. الجزائر. 1982.

4- علماء الحملة الفرنسية، موسوعة وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، 11 مجلدا.

2-المراجع باللغة العربية:

1- أجيرون شارل روبير. تاريخ الجزائر المعاصرة. ترجمة عيسى عصفور.ط2. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.

2- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

3- اسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، ط 1، 1997.

4- بقطاش خديجة. الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 – 1871. دار الجزائر. 1992.

5- بوحوش عمار. التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962.دار الغرب الإسلامي.لبنان.ط1. 1997.

6- بوعزيز يحيى. **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1999.

7- تركي رابح. عبد الحميد بن باديس. **فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.

8- حوحو رضا. **مشروع السكة الحديدية الفرنسية في الجزائر وأثرها في تدعيم سلطة الاستعمار (1830 - 1914)**. رسالة ماجستير. قسم التاريخ. جامعة قسنطينة. 2005.

9- سعد الله أبو القاسم. **تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954**. ج3، 6. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 1998.

10- سعد الله أبو القاسم. **الحركة الوطنية الجزائرية**. ج1- ق1. 1830-1860. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1989.

11- سعد الله أبو القاسم. **الحركة الوطنية الجزائرية**. ج1- ق2. 1860-1900. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 2000.

12- سعد الله أبو القاسم. **الحركة الوطنية الجزائرية**. ج2. 1900 – 1930. ط3. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1983.

13- سعد الله أبو القاسم. خلاصة تاريخ الجزائر. المقاومة والتحرير. **1830 – 1962**. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 2007.

14- سعد الله أبو القاسم. **محاضرات في تاريخ الجزائر**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط3. الجزائر. 1982.

15- سعيدوني ناصر الدين. **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر "العهد العثماني"**. المؤسسة الوطنية للكتاب. 1984.

16- العلوي محمد الطيب. مظاهر المقاومة الجزائرية **1830 – 1962**. منشورات المتحف الوطني للمجاهد. الجزائر. 1994.

17- عميراوي احميدة، أبحاث في الفكر والتاريخ (الجزائر وفلسطين)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003.

18- عميراوي احميدة، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، ط2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004.

19- عميراوي احميدة، السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في منطقة سكيكدة (1838 - 1858)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004.

20- عميراوي احميدة، من تاريخ الجزائر الحديث، ط2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004.

21- عواطف عبد الرحمان، الصحافة العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

22- فركوس صالح، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد 1844 - 1871، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2006.

23- لقبال موسى، تاريخ المغرب الإسلامي، بد ط (منقحة)، دار هومة، الجزائر، 2002.

24- محمود صالح منسي، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفرديناند دي لسيبس، دار الاتحاد العربي للطباعة، مصر، 1978.

25- ناصر محمد، المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطورها، أعلامها، 1903 - 1931، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978.

26- نوار عبد العزيز والنعنعي عبد المجيد، أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1973.

3- المصادر باللغة الفرنسية

1- *Delavigne. Paul.* **Chemin de fer de L'Algérie**. *Debos Frères. Alger. 1854.*

2- *Edouard- Henri Cordier.* **NapoléonIII et L'Algérie**. *Ancienne Imprimerie V. Heintz. Alger. 1937.*

3- *Emérit Marcel.* **Les saint-simoniens en Algérie**. *Edition les belles lettres. Paris.1941.*

4- *Enfantin.* **Colonisation de L'Algérie**. *Bertrand. Paris. 1843.*

5- *Gouvernement générale de L'Algérie.* **L'Armée d'Afrique 1830 – 1930. son évolution, ses uniformes**. *Préface du Maréchal Franchet-D'Esperey.*

6- *Julien Franc.* **La Colonisation de la mitidja**. *T4. librairie ancienne horone champion. Paris. 1930.*

7- *Levallois Anne.* **Les écrits autobiographiques d'Ismayl Urbain**. *Maisonneuve et Larose. Paris. 2005.*

8- *Membres du Conseil Enfantin,* **Œuvres de Saint-simon et d'Enfantin**, *Vol 1, E. Dertu, Paris, 1865.*

9- *Ministère de la guerre.* **Tableau de la situation des Etablissement français dans l'Algérie**. *1840 – 1844 – 1847.*

10- *Mac Mahon.* **Mémoires du Maréchal de Mac Mahon, Duc de Magenta**. *Librairie plon. Paris.*

11- *Napoléon* . **Lettre de 1863** *in Le Moniteur Universel 07 février 1863.*

12- *Napoléon* . **Lettre sur la politique de la France en Algérie** . *adressé au Maréchal de Mac Mahon, Duc de Magenta gouverneur générale de l'Algérie. Imprimerie Impériale. Paris 20 juin 1865.*

13- *Régnier Philippe.* **Ismayl Urbain. Voyage d'Orient**. *Suivi de Poème de Ménilmontant et d'Egypte. L'Hamattan. 1993.*

14- *REY-GOLDZEIGUER Annie.* **Le Royaume Arabe. La Politique Algérienne de Napoléon III.** *1861 – 1870. SNED .alger. 1977.*

15- Ribourt. F. **Le Gouvernement de l'Algérie de 1852 – 1858**. Paris. 1859.

16- Urbain Ismayl. **L'Algérie Française. Indigènes et Immigrants**. Un Manifeste pour une colonisation de l'Algérie. Préface Michel levallois. Séguier.

17- Urbain Ismayl. **Notice sur L'ancienne province de tetteri**. Dans Tableau de la situation des Etablissement français dans l'Algérie 1844.

18- Urbain Ismayl. **Notice sur la province de Constantine. Organisation et situation à l'époque de l'occupation.** Dans Tableau de la situation des Etablissement français dans l'Algérie 1840.

19- Voisin Georges. **L'Algérie pour les Algériens**. Michel Lévy frères. Paris. 1861.

20- Warnier. **L'Algérie devant L'Empereur** .librairie challamel aîné. Paris. 1865.

21- Warnier. **L'Algérie devant le Sénat**. Imprimerie de dubuisson. Paris. 1863.

22- Xavier yacono. **Les Bureaux arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans l'Ouest du tell algérois (Dahra, Chélif, Ouarsenis, Sersou)**. Edition larose. Paris. 1953.

4- المراجع باللغة الفرنسية:

1- Farrahi Farid et Ahcèn sid Ahmed. **Répertoire du fonds voirie et vicinalité.1843 – 1965**. (conserves aux archives d'Alger).

2- Fremaux Jac. **Les Bureaux arabes. Dans l'Algérie dans la conquête**. Edition denoël. Paris. 1993.

3- Levallois Michel. **Ismayl Urbain (1812 – 1884). Une autre conquête de l'Algérie**. Paris. Maisonneuve et Larose.2001.

4- Société des amis d'Ismayl Urbain et d'études Saint- Simoniennes. **Les Saint- Simoniens et L'Algérie**. Journée d'étude du 25 janvier

2003. Michel Levallois. **L'Algérie Française d'Ismayl Urbain et des Arabophiles.**

5- Yvonne Turin. **Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale.** 1830 – 1880. ENAL. 2ème édition. 1971.

5- المقالات باللغة الفرنسية:

1- Massi Henri. "Les études Arabes en Algérie 1830 – 1930". in **Revue Africaine**.

2- Yver Georges. "Enfantin et L'Emigration étrangère en Algérie". in **Revue Africaine**.

6- المواقع الإلكترونية:

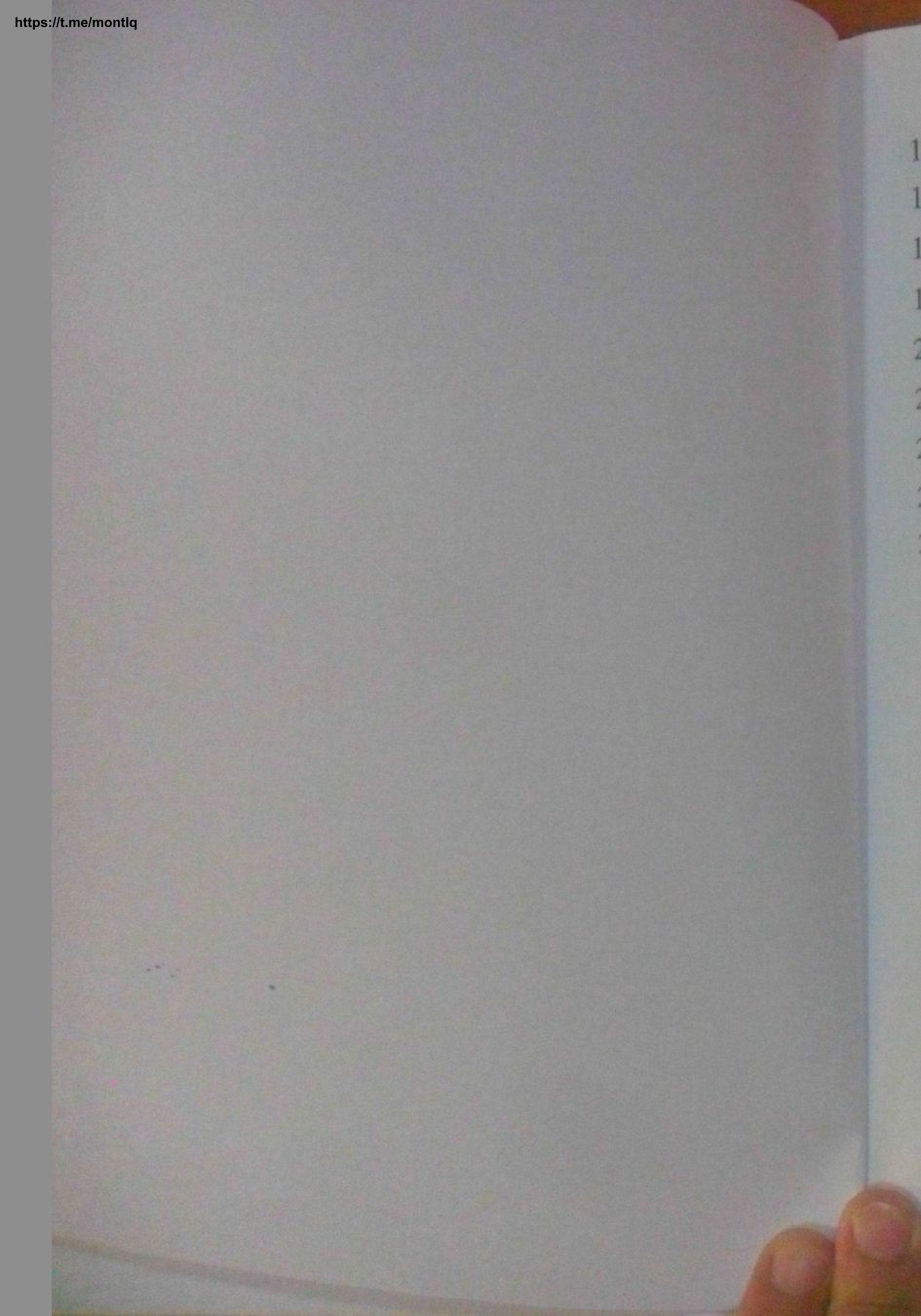
1- Dominique Chathiuant. Le rêve arabe de Napoléon III . in **Wanadoo. Fr. Yekrik**

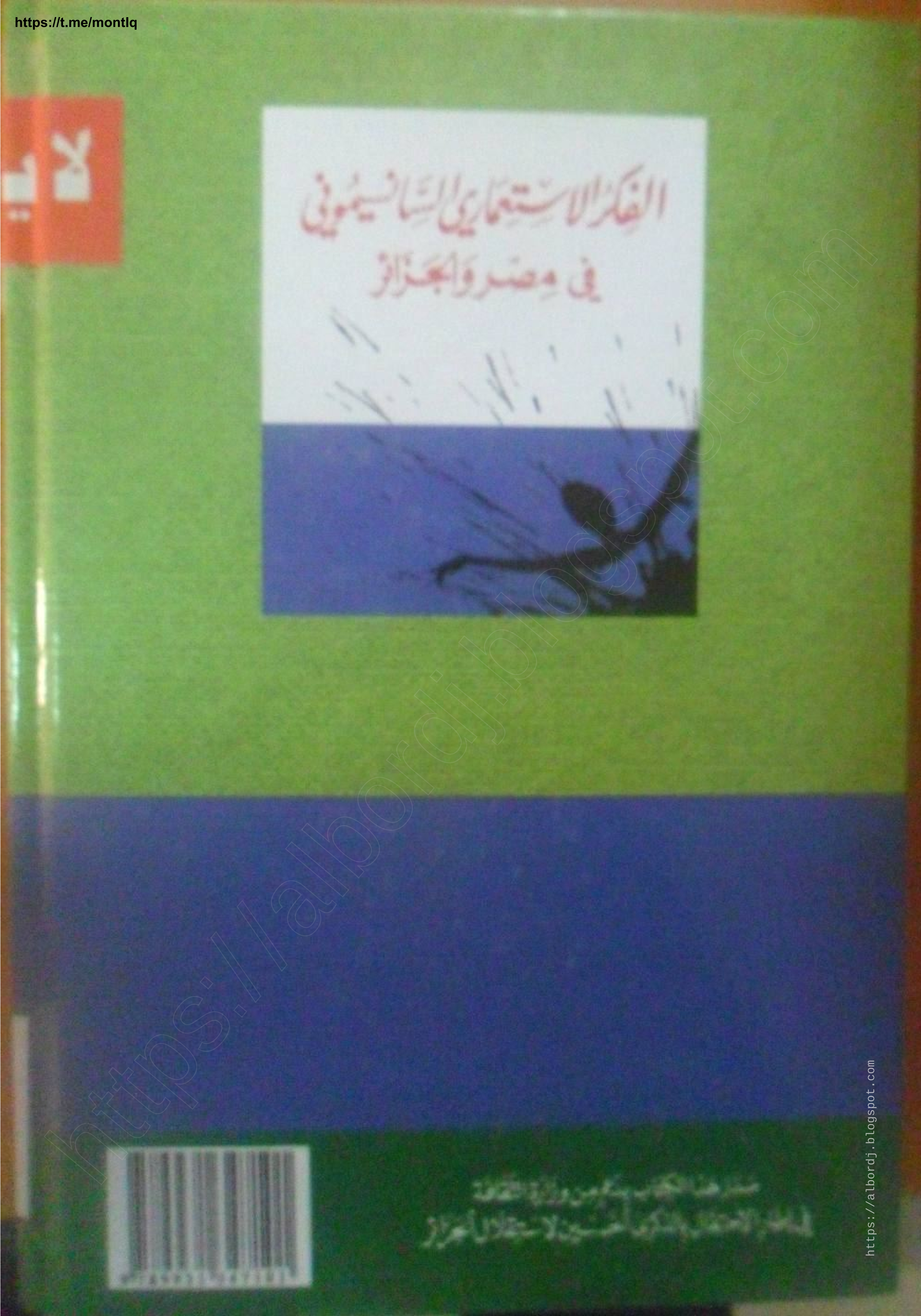
2- Les 12 Cahiers (Livres) du Centenaire de l'Algérie in: **www. Aj. Garcia. Free. Fr**.

فهرس الموضوعات








الفكر الاستعماري السانسيموني
في مصر والجزائر
صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الاحتفال بالذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر